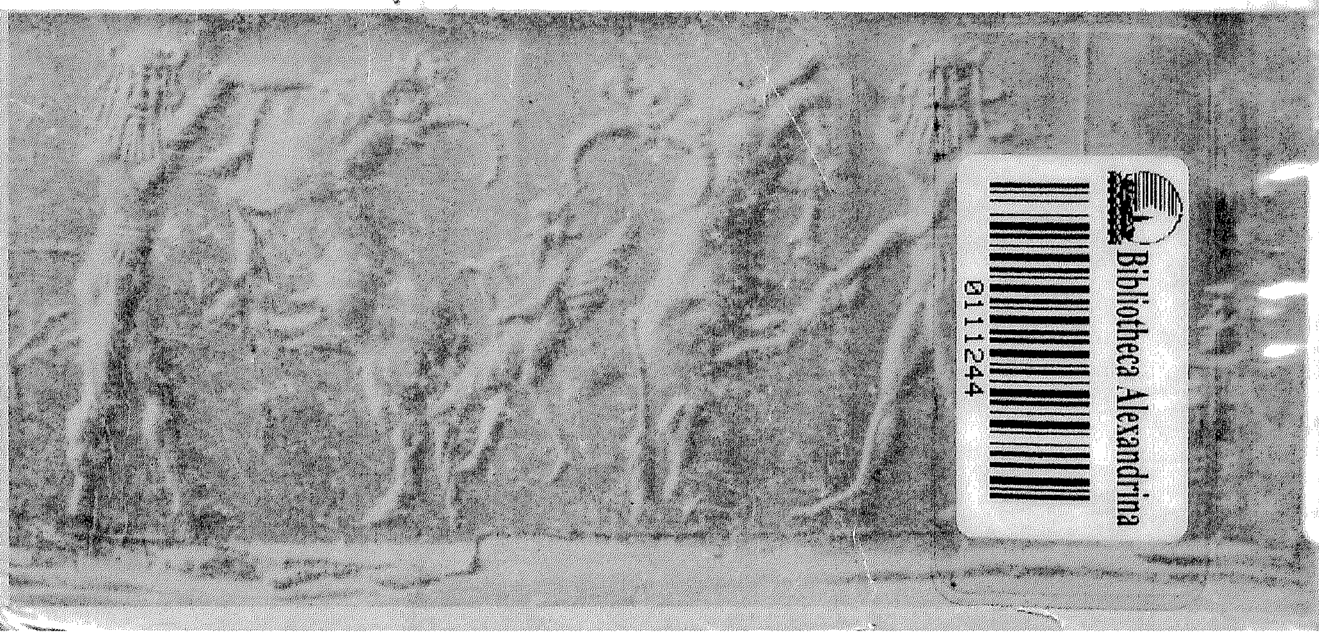
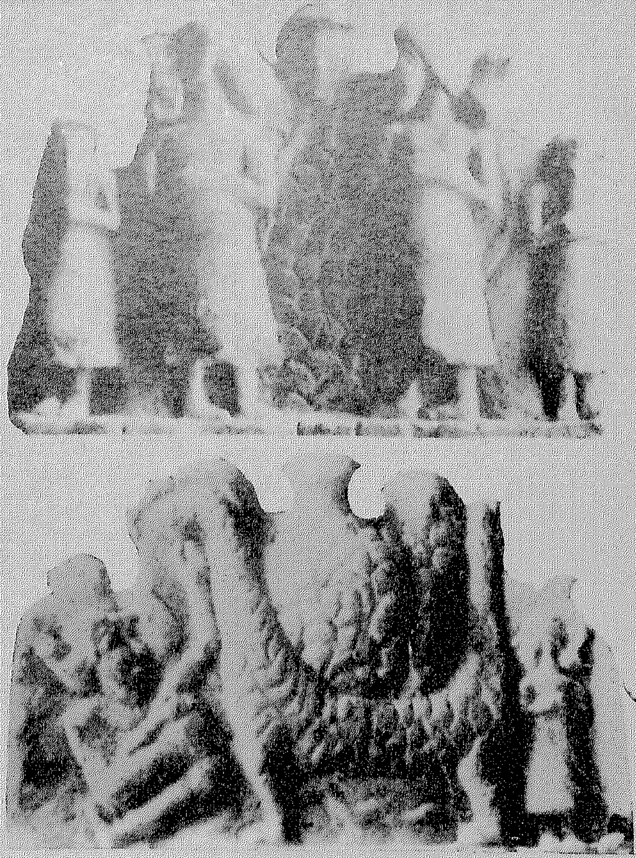
في أدب العراق القديم





منحوتة من الرخام تمثل مشهد اسطوري له علاقة
بآله الخصب « تموز » (نهاية الالف الثالث ق٠م)



منحوتة من الرخام تمثل ملحمة كلكامش بداية
الالف الثالث ق٠م

مقدمة في أدب العراق القديم

طبع على نفقة كلية الآداب ـ جامعة بغداد
بغداد ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

مقدمة

في أدب العراق القديم

طه باقر

دار الحرية للطباعة ـ مطبعة رقم (١)

مقدمة

النتاج الادبي في حضارة وادي الرافدين ، شأنها في ذلك شأن الحضارات الاخرى ، يأتي في مقدمة المصادر الاساسية عند الباحثين لمعرفة هذه الحضارة والوقوف على مقوماتها وخصائصها ، ذلك لانه أحسن ما يصور لنا اتجاهاتها الفكرية وعقائدها وآراءها في الكون والحياة ، فأن النصوص الادبية الى جانب المدونات الاخرى كالشرائع والنصوص القانونية المدونة والسجلات والاخبار التاريخية الاخرى ، وضعت في متناول أيدي الباحثين المادة الاولى في درسهم لهذه الحضارة والوقوف على عوامل نموها وتطورها وانحلالها على ضوء الاسس والاتجاهات العقلية والفكرية التي قامت فوقها . والواقع من الامر ما كان يتسنى تحقيق هذه الدراسات الكثيرة في الحقول المختلفة من حضارة وادي الرافدين لولا ما وضع في متناول أيديهم من النصوص المسمارية المتنوعة التي كان الكشف عنها ودرسها وتحليلها منذ منتصف القرن الماضي أروع ما أسهمت به الحضارة الحديثة في اثراء المعارف البشرية والتاريخ البشري العام .

هذا وانني لعلى ثقة من ان القارىء للبحث المتواضع الذي اضعه في متناول يده سيدرك الاسهام العظيم الذي يعزوه الباحثون ومؤرخو الحضارة الى حضارة وادي الرافدين في سير تقدم الفكر البشري بوجه خاص

والحضارات العالمية بوجه عام • واذا كانت النصوص المدونة المختلفة التي وصلت الينا من هذه الحضارة الى حال التاريخ قد تناولها الباحثون الغربيون ترجمة وتحليلا وبحثا فيجدر بالباحثين العراقيين ان يؤدوا بعض الواجب الملقى على عاتقهم في تعريف القراء والطلاب بتراث هذا البلد عن طريق ترجمة نصوصه الادبية الى العربية ، وهذا ما يفكر به الآن بعض أساتذة قسم الآثار في كلية الآداب وأنا من بينهم ، على انني رأيت ان امهد لهذا المشروع الضخم ، الذي يتطلب انجازه وتحقيقه عدة سنين ، بمقدمة تمهيدية في التعريف بأدب العراق القديم ، في وصف اشهر النصوص الادبية التي وصلت الينا وشرح محتوياتها وايراد ترجمات موجزة لبعضها ، لتكون مرجعا أساسيا لطلاب قسم الآثار بوجه خاص وطلاب التأريخ والدارسين لحضارة وادي الرافدين بوجه عام •

الفصل الأول

مقدمة في الخصائص والمميزات العامة

مدخل البحث

١ ـ المامة بأدوار حضارة وادي الرافدين :

١ ـ يتطلب عرض موضوع أدب العراق القديم تكرر الاشارات الى الادوار التأريخية التي مرت بها حضارة وادي الرافدين ، وتسهيلا لاستعادة القاريء الى ذاكرته هذه الادوار وأزمانها التأريخية يحسن لو نحن عددنا الادوار الرئيسية منها مقترنة بلمحة أو المامة تأريخية موجزة عن كل منها • ونبدأ من ذلك بتعريف موجز لما يقصد بحضارة وادي الرافدين ومكانة هذه الحضارة فيتأريخ الحضارات العالمية القديمة ، فنقول ان المقصود من حضارة وادي الرافدين حضارة العراق القديم التي ازدهرت في السهول الرسوبية منه (بلاد سومر واكد) منذ مطلع الالف الثالث ق•م ، واكنهاتمتد بأصولها وجذورها الى عصور ما قبل التأريخ فيالعراق نفسه ، ومرت في تطورها بأدوار حضارية كثيرة الى أواخر العهد الما قبل الميلادي ، وسنعدد هذه الادوار بعد قليل • ويشمل مصطلح حضارة وادي الرافدين في كثير من المقومات الحضارية ، بالاضافة الى الحدود الجغرافية الحالية للعراق ، عدة أقطار مجاورة امتدت اليهـا تأثيرات هـذه الحضارة فأقتبست منها عناصر حضارية أساسية ، مثل بلاد عيلام (الاجزاء الجنوبية من ايران مما يعرف الآن بالاهواز أو الاحواز) وشمالي ما بين النهرين وبلاد الشام والاناضول (موطن الحثيين) ، بحيث يمكن اعتبار الثقافات أو الحضارات التي قامت في مثل هذه الاقاليم امتدادا لحضارة وادي الرافدين •

وحضارة وادي الرافدين احدى الحضارات القديمة التي يطلق عليها مصطلحالحضارةالاصيلة أوالاصلية أو(Original) (Unrelated Civilization)

بحسب تعبير المؤرخ الشهير « توينبي » ، وهي الحضارات التي لم تشتق من حضارة سابقة لها بل انها نشأت وتطورت من ثقافات عصور ما قبل التاريخ • والحضارات الاصلية قليلة العدد في تأريخ الانسان ، وفي مقدمتها حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل وحضارة الشرق الاقصى (الحضارة الصينية) وحضارة المايا والازتيك في امريكا الوسطى وحضارة وادي نهر السند (Indus Valley) التي لها صلة بحضارة وادي الرافدين ، كما انه يستبعد ان يتكرر نشوء مثل هذه الحضارات بناء على التعريف الذي اوردناه لها أي نشوئها من الادوار البدائية في عصور ما قبل التأريخ ، أما الحضارات البشرية الاخرى، التأريخيةمنها والمعاصرة، فيطلق عليها مصطلح الحضارات المشتقة •

٢ ـ الكشف عن حضارة وادي الرافدين :

لعل أروع ما اسهمت به الحضارة الحديثة في تقدم المعرفة الكشوف المثيرة التي حققها علم الآثار (اركيولوجيا Archaeology) في اكتشافه حضارات ومدنيات قديمة سبقت حضارتي اليونان والرومان بعشرات القرون ، وان الكثير من هذه الحضارات القديمة لم يكن يعرف عنها شيء حتى مجرد أسمائها • وبدأت التنقيبات والتحريات الاثرية عن بقايا هذه الحضارات القديمة ولاسيما حضارات الشرق الادنى وفي مقدمتها حضارة وادي النيل ووادي الرافدين منذ منتصف القرن التاسع عشر الماضي • وسرعان ما أسفرت جهود الباحثين الاثريين عن الكشف عن هذه الحضارات ، فامتدت آفاق جديدة في نظرة الانسان الحديث الى الحياة وتطورها ، وأصول تطور البشرية الحضاري والمراحل المختلفة التي مرت بها في تفاعلها وصراعها مع البيئة الطبيعية وتدرج هذا الصراع الى بداية السيطرة عليها وتسخيرها والافادة منها ، مما ظهرت ملامحه الاولى منذ ظهور اولى الحضارات البشرية في وادي الرافدين ووادي النيل في مطلع

الالف الثالث ق•م• وقد وضع الكشف عن مثل هذه الحضارات القديمة دراسة التأريخ وتطور الانسان الاجتماعي والتكنولوجي على اسس علمية جـديدة مكنت الباحثين من الكشف عن الكثير من نواميس العمـران والاجتماع وفلسفة التأريخ •

وقد نتج الكشف عن مخلفات حضارة وادي الرافدين المادية وحل رمـوز الخط المسماري منذ منتصف القـرن الماضي معرفة أدوار هـذه الحضارة ومنجزاتها المادية والفكرية ومنهـا نتاجها الادبي الذي نحاول التعريف به في هذا البحث التمهيدي ، والعلوم والمعارف التي وصلت اليها مما ادهش ابناء الحضارة الحديثـة وجعل الباحثين عن أصول العلوم والمعارف والفنون والآداب يؤكدون ان الاسس الاولى لها قد وضعت في حضارة وادي الرافدين ، وسيتضح ذلك مما سنعرضه من نتاجها الادبي • ويجدر ان ننوه في هذا الصدد بالاتجاه الحديث بين الباحثين في المعاهـد والمؤسسات العلمية الغربية في الاستعانة بمصادر حضارة وادي الرافدين المادية ونصوصها المـدونة في درس اسس الاجتماع والنظم الاجتماعيـة والقانونية والاقتصادية وتطورها •

٣ ـ ادوار حضارة وادي الرافدين :

أ ـ عصور ما قبل التاريخ :

ونبدأ في تعداد الادوار الحضارية الرئيسة باقدمها وهي التي يطلق عليها مصطلح عصور ما قبل التأريخ (Pre-history) ، وهي العهـود المتطاولة في القدم حيث لم يصل الانسان الى طور الحضارة • وكان اقدم ظهور لنظام الكتابة في تأريخ الانسان في حضارة وادي الرافدين في حدود ٣٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق•م ويحدد لنا التأريخ الثاني أي مطلع الألف الثـالث بداية العصور التاريخية في العراق وفي مصر • اما بداية عصور ما قبـل التأريخ فلايمكن تحديدها بالسنين على وجه التأكيد لانها بدأت منذ ظهور

الانواع البشرية القديمة البائدة قبل نحو مليوني عام أو يزيد • وبذلك تكون عصور ما قبل التأريخ قد استغرقت القسم الاعظم من حياة الانسان يتعدى نسبة ال ٩٩ بالمائة • ويطلق على اقدم هذه العصور مصطلح العصور الحجـــرية (Stone Ages) التي تنقسم بدورها الى العصر الحجري القـــديم (Palaeolithic) والعصر الحجري الحديث (Neolithic) ويوجد طور حجري ظهر في بعض الاقطار ، ومنها الشرق الادنى ، يفصل ما بين هذين العصرين يسمى العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) وقد استغرق العصر الحجري القديم وحده من حياة الانسان زهاء ٩٨٪ ويرتقي في تأريخه الى أزمان العصور الجليدية والفترات الجليدية في العصر الجيولوجي الاخير المسمى « بلايستوسين » (Pleistocene) ، وعاشـــت في الشطر الاول منه أجناس وأنواع عتيقة من الانسان واشباه الانسان ، ولم تظهر اجـــداد نوع الانسان الحديث المسمى « الانسان العـــاقل » (Homo Sapiens) الا في النصف الثاني من العصر الحجري القديم • وقد عثر على نماذج من الادوات الحجرية القديمة في جملة مواقع وكهوف في شمالي العراق مثل برده بلكا (قرب جمجمال) وكهفي زرزي وهزار مرد (في منطقة السليمانية) وكهف « شانيدر » (في أعالي الزاب الاعلى) حيث وجد فيه (١٩٥١ ــ ١٩٦٠) بقايا العصر الحجري القديم من الدور المسمى « مستيرى » (Mousterian) (في حدود ٦٠٠٠٠ ــ ٧٠٠٠٠ ق•م) ، كما وجدت عدة هياكل عظمية لنوع الانسان القديم الذي سمي بانســـان « نياندرتال » (Neanderthal) نســـبة الى وادي نياندرتال في المانية) • واعقب العصر الحجري القديم العصر الحجري الوسيط الذي ذكرناه وهو بمثابة دور انتقال الى العصر الحجري الحديث التالي • وحدث في هذا العصر (أي الحجري الحديث) اعظم انقلاب في حياة الانسان اذ اهتدى فيه الانسان في منطقة ما في الشرق الادنى (وبضمن ذلك سفوح

الجبال في شمالي العراق) الى انتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان • وكان في العصور الحجرية السابقة يعيش حياة همجية يعتمد فيها على جمع القوت بالصيد والجمع والالتقاط • ووجدت في شمالي العراق جملة قرى فلاحية تعود الى هذا العصر المهم مثل « جرمو » (منطقة جمجمال) •

وتلا العصر الحجري الحديث دور حضاري مهم مهد للانتقال الى طور الحضارة من بعد انقلاب العصر الحجري الحديث ، اطلق عليه مصطلح العصر « الحجري ـ المعدني » (Chalcolithic) (في حدود ٥٥٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق•م) وقد اشتق اسم هذا العصر من حقيقة ان سكان وادي الرافدين ظلوا يعتمدون على الحجارة في صنع أدواتهم وآلاتهم ، ثم تعلموا منذ منتصف هذا العصر استعمال المعادن وفن التعدين ، منذ نحو ٤٠٠٠ ق•م • وقد تحققت في هذا العصر جملة منجزات ومخترعات كانت طلائع لظهور الحضارة الناضجة في مطلع الألف الثالث ق•م ، أهمها : اتساع القرى الفلاحية التي ظهرت في العصر الحجري الحديث وازدياد الانتاج الزراعي وظهور طلائع التخصص والمدن وبداية استيطان السهول الرسوبية التي تعتمد في زراعتها على الري من الانهار ، فنشأ جهاز الري وانظمة الحكم على هيئة دويلات مدن • وظهرت الابنية العامة وفي مقدمتها المعابد • وقد قسم هذا العصر الى عدة أدوار حضارية تميز كل منها بأنواع الاواني الفخارية الملونة الجميلة وبالآثار المادية الاخرى ، وسميت هذه الادوار بأسماء المواضع التي وجدت فيها لاول مرة الآثار الممثلة لكل منها ، واقدمها الدور المسمى « حسونة » (نسبة الى تل حسونة بالقرب من قرية الشورة في منطقة الموصل) ، ثم دور « سامراء » ودور حلف ودور العبيد الذي بدأ فيه استيطان السهول الرسوبية في وسط العراق وجنوبه •

وهناك عصر حضاري يقع ما بين نهاية العصر « الحجري ـ المعدني » السالف الذكر وبداية الحضارة الناضجة في مطلع الالف الثالث ق•م اطلق

عليه مصطلح العصر الشبيه بالتأريخي (Proto-historic) أو الشبيه بالكتابي (Proto-Literate) (في حدود ٣٥٠٠ – ٢٨٠٠ ق٠م) ، وقد سمي كذلك لانه على الرغم من ظهور الكتابة في أوائله (في النصف الثاني من دور الوركاء في حدود ٣٥٠٠ ق٠م) فان هذه الكتابة كانت في طورها البدائي ولم تتطور بعد لاستخدامها في تدوين شؤون الحياة المختلفة • ويشمل هذا العصر النصف الثاني من دور الوركاء والدور المسمى « جمدة نصر » وعصر فجر السلالات الاول ، وتحققت فيه تطورات حضارية مهمة منها ظهور فن النحت والاختام الاسطوانية (Cylinder Seals) التي اختصت بها حضارة وادي الرافدين في جميع عهودها ، كما تطور بناء المعابد وظهرت أوائل ما يسمى بالابراج المدرجة أو الزقورات ، كما تحسن جهاز الري والسيطرة على مياه الري الى غير ذلك من المقومات الحضارية التي اتسعت في العصور التالية بحيث يصح القول ان المعالم الاساسية لحضارة وادي الرافدين قد ظهرت في هذا العصر •

ب – العصور التأريخية :

بدأ العصر التأريخي في حضارة وادي الرافدين كما نوهنا مرارا في مطلع الالف الثالث ق٠م ، حين نضجت الكتابة المسمارية وصارت وسيلة ناجعة لتدوين شؤون الحياة المختلفة ، وظهرت الحضارة الناضجة بمختلف اوجهها ومقوماتها الاساسية مثل نظام الحكم والمدن والمعابد وتنظيم المجتمع بالقوانين • وقد اطلق على أقدم العصور التأريخية في العراق اسم عصر السلالات أو عصر « دول المدن » (Early Dynastic) أو (City-States) (٢٨٠٠ – ٢٣٧٠ ق٠م) ، اذ كان شكل الحكم السائد فيه على هيئة دول مدن ، مركز كل منها مدينة أو مجموعة من المدن ويتبعها عدد من المدن الاخرى والقرى الزراعية • وقد حكمت عدة سلالات من الحكام كانت

في أغلب الاحايين متعاصرة وتتنازع فيما بينها على توسيع السلطة والاراضي الزراعية والمياه ، وكان يتسنى لاحداها ان تبسط نفوذها وسيطرتها على دول المدن الاخرى فتتكون مملكة موحـــدة ، وتمت عملية التوحيـــد السياسي في نهاية هذا العصر عندما استطاع أحد الزعماء السياسيين المسمى « سرجون » الاكدي ان ينتزع السلطة من آخر حكام هذا العصر المسمى « لوكال زاگيزي » • وكان « سرجون » هذا من الساميين الذين استوطنوا العراق جنبا الى جنب مع السومريين منذ اقدم عهود الاستيطان ، ولكن الزعامة السياسية والثقافة كانت بأيدي السومريين • ومما يجدر ذكره عن هذا العصر من ناحية موضوع أدب حضارة وادي الرافدين ان عددا من مشاهير الشخصيات القصصية والاسطورية التي ذكرت في نصوص هـذا الادب ترجع في أزمانهـــا الى عصـــر السلالات وعلى رأسهم جلجامش و « اگا » وبطل الطوفان « اوتو ــ نبشتم » و « زيسودرا » و « اينمركار » و « ايتانا » و « دموزى » كما سيمر بنا ذلك من استعراضنا لهذه النصوص الادبية •

واستطاع سرجون الاكدي السالف الذكر ان يوحد القطر في دولة كبيرة واحدة وسعها هو وخلفاؤه مثل حفيده « نرام ــ سين » الى امبراطورية ضمت عدة أقاليم من الشرق الادنى • ودام حكم السلالة الاكدية زهـاء القرن الواحد (٢٣٧٠ ــ ٢٢٣٠ ق•م) ، واعقبتها فترة مظلمة في تأريخ العراق القديم قضى فيها جماعات من الاقوام الجبلية على السلالة الاكدية وعرفوا باسم الكوتيين (٢٢٣٠ ــ ٢١٢٠ ق•م) ، وحكمت في أثنائها دولة سومرية في منطقةلجش (منطقة تلو في محافظة الناصرية) اشتهر منحكامها « جوديه » الذي خلف عددا من تماثيله الجميلة وكتاباته الادبية باللغـــة السومرية • واعقب ذلك حكم سلالة سومرية أخرى عرفت باسم سلالة اور الثالثة (٢١١٢ ــ ٢٠٠٤ ق•م) ، استطاعت ان تؤسس مملكة قوية امتد سلطانها الى عدة أقطار في الشرق الادنى ، وازدهرت في عهدها الثقافـــة

السومرية. والمرجح ان الكثير من النصوص الادبية السومرية قد وضعت في هـذا العهد . وحدث في زمن آخر ملوكها المسمى « ابّي – سين » ان هجرات كبرى من الساميين الغربيين المعروفين باسم الاموريين قد اندفعت من بوادي الشام ومن الجهـات الشمالية الغربية لوادي الفرات الاعلى وقضت مع العيلاميين على سلالة اور الثالثة . واسس زعماؤها عدة سلالات حكمت القطر كان الكثير منها متعاصرا وتتنازع فيما بينهـا مثل سـلالة « لارسا » (٢٠٢٥ – ١٧٦٣ ق.م) وسلالة « ايسن » (٢٠١٧ – ١٧٩٤ ق.م) ومملكة « اشنونا » (٢٠٠٠ – ١٧٦١ ق.م) ومملكة اشور القديمة (٢٠٠٠ – ١٧٦٠ ق.م) وسـلالة « مارى » (١٨٥٠ – ١٧٦١ ق.م)، واشتهرت من بينها سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ – ١٥٩٥ ق.م) ولا سيمـا ملكها السادس حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) مقنن الشريعة الشهيرة، وقد وحد البلاد بعد ان قضى على آخر السلالات المتعاصرة مثل لارسـا واشنونا وبلاد آشور ومارى فكون مملكة كبرى اتسعت الى امبراطورية شملت معظم أجزاء الشرق الادنى .

وتميز هذا العصر، الذي اطلق عليـه اسم العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٥٠٠ ق.م) والذي ستتكرر اليه الاشارة في كلامنا على النصوص الادبية، بظهور حركة كبرى في التدوين والتأليف، وفي مقدمة ذلـك الشرائع المدونة وتدوين النصوص الادبية المشهورة، السومرية منهـا والبابلية (الاكدية) وترجمة الكثير من القطـع الادبيـة السومرية الى البابلية وسيأتي تفصيل القول في هذه النصوص الادبية . ولاول مرة في تأريخ حضارة وادي الرافـدين دونت النصوص الرياضية حيث انتقلت المعارف الرياضية من مرحلة المعلومات العملية الى طور التدوين والبحث أي انها أصبحت علوما كمـا ظهرت المؤلفات اللغوية وكان بعضهـا أقـدم معاجم في تأريخ الدراسات اللغوية . ومما يقال عن هذا العصر أيضا ان

فيه انتهت حياة السومريين السياسية فلم تقم منهم سلالات حاكمة ، ولكن اللغة السومرية ظلت لغة للتدوين والثقافة جنبا الى جنب مع اللغة البابلية والاشورية .

وبالنسبة الى بلاد آشور في شمالي العراق ظهرت فيها اقدم عصور ما قبل التاريخ ، ولكنها كانت تابعة من الناحيتين السياسية والثقافية الى دول الجنوب الى ما بعد عهد حمورابي حيث استقلت وقامت فيها جملة سلالات حاكمة مستقلة كانت تتدرج في القوة الى ان ظهر فيها منذ القرن العاشر ق.م دول قوية اتسعت بالفتوحات الخارجية الى امبراطوريات معظمة شملت معظم أجزاء الشرق الادنى ، ودخلت بلاد بابل تحت نفوذها منذ القرن الثامن ق.م . واسهم الملوك الآشوريون في تعضيد تدوين النصوص المختلفة كالنصوص التأريخية والدينية واللغوية ، وقد انشأ الملك الشهير « آشور بانيبال » (٦٦٨–٦٢٦ ق.م) في قصره في نينوى مكتبة ضخمة من الواح الطين كان لاكتشافها منذ منتصف القرن الماضي الفضل الاكبر في معرفتنا بآداب حضارة وادي الرافدين وعلومها ومعارفها ، وستتكرر الاشارة الى هذه المكتبة في كلامنا على النصوص الادبية التي ترجع نسخ الكثير منها الى ألواح هذه المكتبة .

واعقب العصر البابلي القديم في بلاد بابل عدة سلالات حاكمة كانت ضعيفة بالمقارنة مع الدولة الآشورية ، اشهرها سلالة بابل الثالثة (١٥٠٠ – ١١٥٦ ق.م) التي تعرف أيضا باسم السلالة الكاشية أو الكشية ، وقد حدث في عهدها من ناحية موضوعنا انتعاش أدبي ملحوظ من حيث التدوين والاستنساخ واحياء التراث القديم ، وتلتها في الحكم سلالات أخرى كان آخرها الدولة الكلدانية التي تعرف باسم الدولة البابلية الحديثة أيضا (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م) . وقد اسهم مؤسسها « نبوبولاصر » في اسقاط الدولة الآشورية مع الماديين (٦١٢ ق.م) ، واشتهرت بحكم احد ملوكها

نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق٠م)، وكانت آخر دولة وطنية تقوم في البلاد حيث اعقبتها عهود صار فيها القطر خاضعا للدول الاجنبية اولاهـا الفرس الاخمينيون (٥٣٩ - ٣٣١ ق٠م) ثم الاسكندر الكبير وخلفاؤه من السلوقيين (٣٣١ - ١٢٦ ق٠م) وقد تأسس العهد السلوقي في العراق في العام ٣١١ ق٠م ، وازدهرت فيه الثقافة البابلية والتدوين بالخط المسماري حيث يعد هذا العهد الدور الثاني المهم الذي جاءتنا منه نصوص رياضية وفلكية وبعض المعارف الاخرى ٠ وحكم العراق من بعد السلوقيين الفرس الفـــرثيون أو الارشـــاقيون (Parthians) (١٢٦ ق٠م - ٢٢٦م) ، وازدهرت في هذا الدور في العراق جملة مدن ومراكز عمرانية مثل مدينة آشور وبابل والوركاء والحضر وأخيرا دخـل القطـر تحت حكم الفرس الساسانيين (٢٢٦ - ٦٣٧م) الذي انتهى حكمهم بالفتح الاسلامي (موقعة القادسية ٦٣٧ ميلادي[+]٠

(+) للاستزادة من التعرف على أدوار حضـــارة وادي الرافدين واحوالها السياسية وخلاصة خصائصها ومنجزاتها الحضارية نحيل القارىء الى كتابنا الموسوم « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الاول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) ٠

ثبت بالأدوار الحضارية

١ ــ عصور ما قبل التاريخ : (Pre-historic Periods)

اولا : العصر الحجري الـ « ايوليثي » (Eolithic)

دور حجري قديم غير واضح ، يقع زمنه في بداية دهر البلايستوسين (Pleistocene) ، وتعزى اليه طائفة من الادوات الحجرية البدائية تسمى الادوات الحصوية (Pebble Tools) لم يعثر عليها في العراق ولكن وجدت نماذج منها في افريقية وأجزاء أخرى قليلة من الارض .

ثانيا : العصر الحجري القديم (Palaeolithic)

زمنه منتصف دهر « البلايستوسين » الى نهاية العصور الجليدية في اوربة ، أي من حدود ٥٠٠٫٠٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ ق.م ، ويقسم الى الادوار التالية :ــ

أ ــ العصر الحجري القديم الادنى (Lower Palaeolithic)

١ ــ الابيفيلي (Abbevillian)

كان يدعى سابقا االدور الشيلي (Chellean) ، وزمنه في اوربة في الفترة الجليدية الاولى(*) (گنز ــ مندل Günz-Mindel) . لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن ، ولكنها وجدت في وادي النيل وشمالي افريقية وأجزاء أخرى من العالم . عاش فيه نوع الانسان البائد « هايدل برج » ، ونوع الانسان الاطلسي (نسبة الى جبال الاطلس في شمالي افريقية) .

(*) اسماء العصور الجليدية في أوربة واطوالها الزمنية التقريبية :

١ ــ گنز (Günz) : ٦٠٠٫٠٠٠ ــ ٥٤٠٫٠٠٠ [=]

٢ ــ الكلاكتوني (Clactonian)

زمنه الفترة الجليدية الثانية (مندل ــ رس) • لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن •

٣ ــ الآشولي (Acheulian)

اطول ادوار العصر الحجري القديم • ابتداؤه في اوربة من الفترة الثانية الى الفترة الثالثة • تسمى أطواره في شمالي افريقية : الآشولي الاول والثاني والثالث • بعض الادوات الحجرية منه وجدت في شمالي العراق (برده بلكا قرب جمجمال) •

٤ ــ اللفالوازي (Levalloisian)

زمنه في أواخر الفترة الجليدية الثالثة ، وله صلة بالدور « الفالوازى ــ المستيرى » التالي •

ب ــ العصر الحجري القديم الاوسط (Middle Palaeolithic)

١ ــ لفالوازي ــ مستيرى

٢ ــ مستيري (Mousterian)

زمنه في الفترة الجليدية واستمر الى العصر الجليدي الرابع • عاش فيه نوع الانسان القديم المسمى « نياندرتال » (Neanderthal) الذي وجدت نماذج كثيرة من هياكله العظمية في أجزاء الكرة ومن بينها شمالي العراق

= فترة الـ « كنز ــ مندل » : ٥٤٠٫٠٠٠ ــ ٤٨٠٫٠٠٠

٢ ــ مندل (Mindel) : ٤٨٠٫٠٠٠ ــ ٤٣٠٫٠٠٠

فترة الـ « مندل ــ رس » : ٤٣٠٫٠٠٠ ــ ٢٤٠٫٠٠٠

٣ ــ رس (Riss) : ٢٤٠٫٠٠٠ ــ ١٨٠٫٠٠٠

فترة الـ « رس ــ ورم » (Riss-Würm) : ١٨٠٫٠٠٠ــ ١٧٠٫٠٠٠

٤ ــ **ورم** (Würm) : ١٢٠٫٠٠٠ــ١٥٫٠٠٠ او ١٠٫٠٠٠ ق٠م٠

ملاحظة : يقابل العصور الجليدية الاوربية عصور ممطرة (Pluvials) في الاجزاء الوسطى والجنوبية من الارض ومنها الشرق الادنى وشمالى افريقية • ويقابل الفترات الجليدية الاوربية عصور جفاف في تلك المناطق •

(كهف شانيدر الطبقة D ، وفيها أدوات الدور المستيرى) . يسمى في شمالي افريقية « المستيري – العتيري » .

ج – العصر الحجري القديم الاعلى (Upper Paleolithic)

شغل في اوربة الجزء الاخير من دهر البلايستوسين (العصر الجليدي الرابع قبل نحو ٥٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠) . ساد فيه نوع الانسان الحديث المسمى « الانسان العاقل » (Homo Sapiens) . اطلق على الادوات الحجرية الممثلة لهذا الدور في شمالي العراق اسم الدور « البرادوستي » (نسبة الى جبال برادوست) ، وتعود اليه الطبقة B في كهف شانيدر ووجدت أدواته أيضا في كهفي « هزار ميرد » و « زرزى » (في منطقة جبال السليمانية) . اطلق عليه في شمالي افريقية الدور « القفصي » (الاجزاء الداخلية) و « الوهراني » (الاجزاء الساحلية) . ويقسم في اوربة الى أربعة أدوار : **(١) الاورغنيشي** Aurignacian (٢٨٠٠٠ – ٢٢٠٠٠ ق.م) والسلوترى (Solutrean) والمكدليني (Magdalenian) الذي اشتهر في اوربة **بفن الرسوم في الكهوف** .

ثالثا : العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)

زمنه بعيد العصر الجليدي الرابع (الاخير) ، ويسمى أيضا دور الادوات الحجرية الدقيقة (Microlithic) ، واطلق عليه في شمالي العراق الدور « الزرزى » (نسبة الى كهف زرزى قرب السليمانية) . وجدت آلاته الحجرية الممثلة في الطبقة C من كهف شانيدار ، كما وجدت آثاره في عدة مواقع أخرى في شمالي العراق اشهرها « زاوى جيمي » (على الزاب الاعلى بالقرب من كهف شانيدر) و « بالى گورا » ، وملفعات وكريم شهر . يسمى في بلاد الشام الدور « النطوفي » . ظهرت فيه في شمالي العراق وبعض أجزاء الشرق الادنى طلائع تدجين الحيوان والزراعة (Incipient food production) .

رابعا : العصر الحجري الحديث :

بدايته في حدود الالف الثامن أو السابع الى ٥٦٠٠ ق٠م٠ يمكن
تقسيمه في شمالي العراق وبعض أجزاء الشرق الادنى الى الادوار التالية :ـ

١ ـ بداية الحجري الحديث أو أواخر الحجري الوسيط (Proto-Neolithic)

حيث وجدت آثاره الممثلة في الطبقات A, B2 من كهف شانيدر وفي زاوى جمي وكريم شهر وملفعات وكرد جاى ٠

٢ ـ دور ما قبل الفخار (Pre-Pottery Neolithic)

لم يظهر الفخار فيه ، وتمثله الطبقات السفلية من « جرمو » **(١٦-٦) حيث الفخار وجد في الطبقات الخمس العليا ، وكذلك في الطبقة** العليا من زاوى جيمي وفي تل شمشارة (الطبقات ١٤ ـ ٦) ٠

٣ ـ دور الفخار (Pottery Neolithic)

في جرمو الطبقات العليا ٥ ـ ١ ٠ والطبقات السفلى من تل حسونة ، والطبقات السفلى من تل « الصوان » وجملة مواقع أخرى ٠

خامسا : العصر الحجري ـ المعدني : (Chalcolithic)

في حدود ٥٦٠٠-٣٥٠٠ ق٠م ويقسم الى الادوار التالية :

أ ـ حجري ـ معدني قديم (Early Chalcolithic)

١ ـ دور حسونة : في تل حسونة وتل الصوان وشمشارة وغيرها ٠

٢ ـ دور سامراء : في المواضع المذكورة في (١) وغيرها ٠

ب ـ حجري ـ معدني وسيط (Middle Chalcolithic) :

١ ـ دور حلف : أ ـ حلف قديم : ما قبل الطبقة العاشرة في تل الاربجية ٠

ب ـ حلف وسيط : الطبقات ١٠-٧ من الاربجية ٠

ج ـ حلف متأخر : الطبقة ٦ من الاربجية ٠

٢ ـ دور العبيد الاول : طور « اريدو » (الطبقات ١٩-١٥ في

اريدو) .

٣ ـ **دور العبيد الثاني:** طور فخار « حاج محمد » وفخار رأس العمية (قرب كيش) .

لم يعثر على آثار دور حلف في الاجزاء الوسطى والجنوبية من العراق ويعاصره دور العبيد الاول في الجنوب .

ج ـ **حجري ـ معدني متاخر** (Late Chalcolithic) :

١ ـ **دور العبيد الثالث** (كان يسمى العبيد القديم سابقا) .

٢ ـ **العبيد الرابع** (العبيد المتأخر سابقا)

٣ ـ **دور الوركاء :** أ ـ الوركاء القديم (الطبقات ١٢-٧ من الوركاء) .

ب ـ **الوركاء الوسيط** (الطبقات ٦-٥ من الوركاء) .

سادسا : العصر الشبيه بالكتابي او الشبيه بالتاريخي ٣٥٠٠-٢٨٠٠ ق.م
(Proto-Literate. Proto-Historic)

١ ـ **دور الوركاء الاخير** (في الوركاء الطبقات ٥ و٤ أ ، ب ، ج)

٢ ـ **دور جمدة نصر** (٣٠٠٠-٢٩٠٠ ق.م.) .

٣ ـ **عصر السلالات الاول** (٢٩٠٠-٢٨٠٠ ق.م.) .

٢ ـ العصور التأريخية

١ ـ **عصر السلالات او عصر دول المدن** (Early Dynastic)
٢٨٠٠-٢٣٧٠ ق.م.

أ ـ **عصر السلالات الثاني** (٢٨٠٠-٢٦٠٠ ق.م.).

ميسلم ـ سلالة كيش الاولى ـ سلالة الوركاء الاولى ـ الواح تل « فاره » .

ب ـ **عصر السلالات الثالث** (٢٦٠٠-٢٣٧٠ ق.م.) .

المقبرة الملكية : مس ـ كلام ـ دوگ ، آ ـ كلام ـ دوگ ، جلجامش ، سلالة لجش الاولى (سلالة أور ـ نانشه) ،

« اوما » وغيرها من المدن السومرية ، سلالة « أور الاولى »
« ميسا نيدا » ، لوگال ـ زاكيزي •

٢ ـ **العصر الاكدي (السلالة الاكدية) (٢٣٧٠-٢٢٣٠ ق٠م)**

سرجون (٢٣٧٠-٢٣١٦) ، « نرام ـ سين » (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق٠م٠) •

٣ ـ **الدور الگوتي وسلالة لجش الثانية (٢٢٣٠-٢١٢٠ ق٠م)**
عصر گوديه •

٤ ـ **سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق٠م)**
اور ـ نمو (٢١١٢-٢٠٩٥ ق٠م٠) شولگي (٢٠٩٤-٢٠٤٧ ق٠م٠)
« امار ـ سين » او « بور ـ سين » (٢٠٤٦-٢٠٣٨ ق٠م) • شو ـ سين (٢٠٣٧-٢٠٢٩ ق٠م٠) • ابّي ـ سين (٢٠٢٨-٢٠٠٤ق٠م)

٥ ـ **العصر البابلي القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق٠م)**

أ ـ **سلالة لارسا (٢٠٢٥-١٧٦٣ ق٠م٠) ، مؤسسها « نبلانم » •**

ب ـ **سلالة ايسن** (٢٠١٧-١٧٩٤ ق٠م) ، مؤسسها « اشبي ـ ايرا » •

ج ـ **سلالة « اشنونا »** (٢٠٠٠-١٧٦١ ق٠م) • من مشاهير ملوكها
« شمسى ـ ادد » الاول ، واباليل الاول ، و « نرام ـ سين » و
« دادوشا » واباليل الثاني (١٧٩٠؟-١٧٦١ ق٠م) •

و ـ **بلاد آشور (٢٠٠٠؟ ـ ١٧٦٠ ق٠م٠)**
« شمسي ـ ادد » الاول (١٨١٣-١٧٨١ ق٠م٠) •

و ـ **سلالة بابل الاولى** (١٨٩٤-١٥٩٥ ق٠م٠) •
مؤسسها « سومو ـ آبم » وسادس ملوكها « حمورابي »
(١٧٩٢-١٧٥٠) وآخر ملوكها « سمسو ـ ديتانا »
(١٦٢٥-١٥٩٥ ق٠م٠) •

- **العصر الكشي (١٧٠٠؟ - ١١٥٧ ق٠م) :**

الكشيون في بلاد بابل باسم سلالة بابل الثالثة (١٥٩٥-١١٥٧ ق٠م٠)

- **سلالة القطر البحري (سلالة بابل الثانية : ١٧٤٢ - ؟) :**
- **العصر البابلي الوسيط (١٥٠٠-٦٢٧ ق٠م) :**

السلالة الكشية السابقة والسلالات البابلية من الرابعة الى العاشرة ٠

- **العصر البابلي - الحديث (Neo-Babylonian) (٦٢٧-٥٣٩ ق٠م)**

سلالة بابل الحادية عشرة : نبوبولاصر (٦٢-٦٠٥ ق٠م٠) وابنه « نبو خذ نصر » (٦٠٥-٥٦٢ ق٠م٠) ونبو نيدس (٥٥٥-٥٣٩ ق٠م٠) ، استيلاء كورش على بلاد بابل (٥٣٩ ق٠م٠) ٠

العصر الفارسي الاخميني (في العراق ٥٣٩-٣٣١ق٠م) :

اشهر ملوكه : كورش الثاني (٥٥٩-٥٣٠ ق٠م٠) ، ودارا الاول ٥٢١-٤٨٦ ق٠م) وآخر ملوكه دارا الثالث (٣٣٥-٣٣١ ق٠م٠) ٠

الاسكندر الكبير والعصر السلوقي (٣٣١-١٣٨/١٢٦ق٠م) :

ولد الاسكندر في ٣٥٦ ق٠م٠ ، وخلف اباه فيلب المكدوني في ٣٣٦ ق٠م٠ ، وبدأ فتوحه للشرق ٣٣٤ ق٠م٠ ، فتح العراق ٣٣١ ق٠م٠ (موقعة اربيلا) وتوفى في بابل في حزيران ٣٢٣ ق٠م٠ بداية العهد السلوقي في العراق في نيسان ٣١١ ق٠م٠

العصر الفرثي : (البارثي ، الارشاقي ، الاشغاني (الاشكاني) ، ملوك الطوائف) ١٣٨/١٢٦ ق٠م - ٢٢٧م :

العصر الساساني (٢٢٧-٦٣٧م) :

أشهر ملوكه : اردشير الاول (٢٢٦-٢٤١م) ، وشابور الاول (٢٤١-٢٧٢م) وشابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩م) واخر ملوكه يزدجرد الثالث (٦٣٣-٦٥١م) ٠

الادوار التاريخية في بلاد آشور

١ ـ **عصور ما قبل التاريخ** : كما مر سابقا :

٢ ـ دور سيطرة دول الجنوب الى نهاية سلالة أور الثالثة (٢٥٠٠؟ـ٢٠٠٠ ق٠م) ٠

٣ ـ **العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠ـ١٥٠٠ق٠م) :**

من مشاهير ملوكه : ايرشم ـ الاول ٠ سرجون الاول (المستعمرة التجارية الاشورية في تركية في كول تبه ، كانيش القديمة ٠ شمسي ـ ادد الاول (١٨١٣ـ١٧٨١ ق٠م٠) ٠

٤ ـ **العصر الآشوري الوسيط (١٥٠٠ـ٩١١ق٠م) :**

من مشاهير ملوكه اشور ـ اوبالط الاول (١٣٦٥ـ١٣٣٠ ق٠م٠) شيلمنصر الاول (١٣٧٤ـ١٣٤٥ ق٠م٠) وتوكلتي ـ ننورتا الاول (١٣٤٤ـ١٢٠٨ ق٠م) ، وآشور ناصربال الاول (١٠٥٠ـ١٠٣٢ ق٠م) ٠

٥ ـ **العصر الآشوري الحديث (٩١١ـ٦١٢ ق٠م) ٠**

أ ـ **الامبراطورية الآشورية الاولى :** (٩١١ـ٧٤٥ ق٠م) ٠

من مشاهير ملوك العصر : ادد ـ نيراري الثاني (٩٩١ـ٨٩١ ق٠م٠) وتوكلتي ـ ننورتا الثاني (٨٩٠ـ٨٨٤ ق٠م) وآشور ناصربال الثاني (٨٨٣ـ٨٥٩ ق٠م) وشيلمنصر الثالث (٨٥٨ـ٨٢٤ ق٠م) وتجلا تبليزر الثالث (٧٤٤ـ٧٢٧ ق٠م) ٠

ب ـ **الامبراطورية الآشورية الثانية :** (٧٤٥ـ٦١٢ ق٠م)

شيلمنصر الخامس (٧٢٦ـ٧٢٢ ق٠م) ٠

السلالة السرجونية : سرجون الثاني (٧٢١ـ٧٠٥ ق٠م) سنحاريب (٧٠٤ـ٦٨١ ق٠م) ، اسرحدون (٦٨٠ـ٦٦٩ ق٠م) ، آشور بانيبال (٦٦٨ـ٦٢٧/٦ ق٠م) ٠ آخر ملوكها « آشور اوبالط » الثاني (٦١١ـ٦٠٩ ق٠م) ، سقوط نينوى : ٦١٢ ق٠م٠

الادوار العربية ـ الاسلامية

١ ـ عهد الرسول والخلفاء الراشدين (٦٠٠ـ٦٦١م) :
٢ ـ الامويون (٤١ـ١٣٢هـ/٦٦١ـ٧٥٠م) :
٣ ـ العباسيون (١٣٢ـ٦٥٦/٧٥٠ـ١٢٥٨م) :

حكم منهم ٣٧ خليفة ، أولهم ابو العباس السفاح وآخرهم المستعصم :

أ ـ الدور العباسي الاول ١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م

دام زهاء ١٠٠ عام وحكم فيه تســعة خلفاء من السفاح الى الواثق . أسس المنصور بغداد (١٤٥-١٤٩هـ/٧٦٢-٧٦٦م). تأسيس سامراء في عهد المعتصم (٢٢١-٢٧٩هـ/٨٣٦-٨٩٢م).

ب ـ الدور الثاني ٢٣٢-٣٣٣هـ/٨٤٧-٩٤٤م

نفوذ القواد الاتراك . بدء انحلال الامبراطورية . حكم في هذا الدور ثلاثة عشرة خليفة . ظهور حركة القرامطة ٢٧٨هـ/٨٩٢/١م ، وحركة الزنج (٢٥٠ـ٢٦١هـ) .

ج ـ الدور الثالث : ٣٣٣-٤٤٧هـ/٩٤٤-١٠٣١م

حكم فيه خمسة خلفاء من المستكفي الى القادر بالله . تسلط البويهيين (من الديلـــم) ، وطردهم من جانب الاتـــراك السلاجقة . الحمدانيون في الموصل وتكريت .

د ـ الدور الرابع : ٤٤٧-٥٤٧هـ/١٠٣١-١١٥٢م

حكم فيه خمسة خلفاء . تسلط الاتراك السلاجقة ، استيلاء طغرل بك عـلى بغـــــداد ٤٦٢هـ/١٠٧١م . بداية الحروب الصليبية ٤٦٦هـ/١٠٧٤م . سلالة الاتابكة في الموصل على يد عمادالدين زنكي احد قواد ملكشاه السلجوقي .

هـ ـ الدور الخامس : ٥٣٠-٦٥٦هـ/١١٣٦-١٢٥٨م

سقوط بغداد على يد المغول (هولاكو) ٦٥٦/١٢٥٨م .

السلالات المغولية والتركمانية والفارسية :

١ ـ الايلخانيون ٦٥٦ـ٧٣٨هـ/١٢٥٨ـ١٣٣٨م .

٢ ـ الجلائريون ٧٣٨ـ٨١٤هـ/١٣٣٨ـ١٤١١م .

٣ ـ القره قوينلو ٩١٤ـ٩٧٤هـ/١٤١١ـ١٤٦٨م .

(الخروف الاسود ، الشاه محمد بن قره يوسف) .

٤ ـ الآق قوينلو ٨٧٤ـ٩١٤هـ/١٤٦٩ـ١٥٠٨م .

(حسن الطويل اوزون) .

٥أ ـ الصفويون ٩١٤ـ٩٣٠هـ/١٥٠٨ـ١٥٢٣م

الشاه اسماعيل ١٥٠٨ـ١٥٢٣ ، الشاه طهماسب .

الصفويون مرة ثانية ٩٣٦ـ٩٤١هـ/١٥٢٩ـ١٥٣٤م .

٦ ـ الاتراك العثمانيون ١٥٣٤ـ١٩١٧م .

الخصائص العامة لأدب العراق القديم

مقدمة في الخصائص العامة

حوار ادبي قبل أكثر من اربعة آلاف عام :

elima ina eli tillani labiruti italak
amur gulgullete arkuti u panuti
ayyu bel limmuti-ma ayyu bel usati

اعل فوق الاطلال القديمة وتمش عليها
وانظر الى جماجم المتأخرين والماضين
فأيهم الاشرار وأيهم الصالحون ؟

هذه الابيات التي اوردنا نصها بلفظها في اللغـــة البابلية بالحروف اللاتينية وترجمتها العربية جزء من قصيدة وضعت عـــلى هيئـة حـوار (dialogue) تهكمي فلسفي بين سيد وعبده عاشا قبل « هوميروس » وغيره من شعراء العالم القديم المشهورين بعشرات القرون ، في احدى تلـــك المدن القديمة التي شيدت في سهول وادي الرافدين وازدهرت في آدابهـا وفنونها ومعارفها قبل ان تظهر الى الوجود أثينه وروما بقرون كثيرة . ومع ان تلك المدن القديمة لم يبق منها الآن سوى رسومها ممثـلة بالالوف الكثيرة من الاطلال الدارسة المنتشرة في ربوع العراق ، بيد انها تحدت فناء الزمن وتسامت على قول الشاعر الامريكي « لونك فيلو » (Longfellow) لانها تركت وراءها اكثر من « آثار اقدام لها على رمال الزمن » . اجل انها خلفت من بعدها تراث « الكلمة المدونة » . والكلمة المدونة كانت ولاتزال جوهر الانسانية وفكرها الذي يميزها عن المملكة الحيوانية . واذا كانت « الكلمة » ، وهي سر الوجود وأصل الوجود ، قد كانت منذالبدء ، وجدت منذ ان وجد الانسان وميزته عن سائر المخلوقات ، فان معجزة « تدوين الكلمة » قد تحققت في وادي الرافدين لاول مرة في مسيرة الانسان المضنية عبر العصور المتطاولة ، وعندئذ انتقلت البشرية من ظلام « أميتها » التي

استغرقت نحو تسعة وتسعين بالمائة من عمر الانسان على هذه الارض قبل زهاء مليوني عام • وسرعان ما تطورت الكلمة المـــدونة في حضارة وادي الرافدين فصارت أدبا وتأريخا وعلما ، فشرعت طاقات الفكر الانسـاني وابداعه تتفتح وتزدهر ، والتجارب والخبرات البشرية تتراكم وتتوارثها الاجيال عن طريق « الكلمة المدونة » التي لولا ظهورها في حضارة وادي الرافدين لما ازدهرت أثينه ورومه وغيرهما من مراكز الحضارات البشرية في علومها وآدابها وفلسفتها •

وشاءت الصدفة الحسنة ان لا يجد كتبة العراق القديم ايسر واسهل من « الطين » يدونون فيه الكلمة اي الفكر • فالطين ، بخلاف سائر مواد الكتابة التي استعملتها الحضارات الاخرى ، لا يفنى • انه « طين العراق الخالد » الذي حفظ لنا اولى تجارب رائـــــدة في تاريخ البشرية حققها العراقيون القدامى يوم انتقلوا الى الحضارة والمدنية ، وهي التجربة المثيرة في تاريخ تطور الانسان المديد ، والتي لاتزال البشرية تعيشها وتعانيهـــا بخيرها وشرها •

ميزات أدب العراق القديم وخصائصه العامة :

قبل أن نتناول بالوصف أشهر القطع الادبية التي وصلت الينا من أدباء العراق القديم ، نمهد لذلك بايراد بعض الملاحظات التوضيحية عن خصائص أدب العراق القديم وميزاته العامة :

١ ـ قدم أدب حضارة وادي الرافدين :

ونبدأ من هذه الخصائص العامة الموضحة بالبرهنة على أن أدب حضارة وادي الرافدين أقدم أدب انتجه الانسان ، على ما اجمع عليـه الباحثون في تاريخ الحضارات القديمة ، فكان بذلك اولى المحاولات في تاريخ الانسانية للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها باسلوب الفن الادبي • ولكي لا يكون

هذا الرأي من قبيل ارسال القول على عواهنـــه ينبغي الا نكتفي بمجرد الاستشهاد باجماع الباحثين ، بل ندلل على ذلك بانتهـــاج اسلوب البحث العلمي بأن نقارن ما بين زمـــن أدب وادي الـرافدين وبـين أزمان آداب الحضارات القديمة الاخرى • وموجز مايقال بهذا الصدد إنه على الرغم من ان الزمن الذي دونت فيه أشـــهر النصوص الادبية في حضـــــارة وادي الرافدين لا يتجاوز اواخر الالف الثالث وأوائل الالف الثاني ق•م الا أن تلك النصوص الادبية قد تم ابداعهـا وانتاجهـا في أزمان أقـدم من عهـــد تدوينها ، وقد تناقلتها الاجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية فوقـــع فيها الكثير من التطور الى ان بدأ القوم يدونونها في الواح الطين باشكالها النهائيـــة الاخيرة التي جاءت فيها الينا منذ مطلع الالف الثاني ق•م•

فاذا قارنا قدم هذا الادب ، سواء كان ذلك من ناحية زمن ابداعــه أم زمن تدوينه ، بأقدم آداب انتجتها الحضارات القديمة وجدناه يسبق جميع ما انتجه الفكر البشري بعشرات القرون • فبالمقارنة مع حضارة مصر القديمة مثلا لما يأتنا شيء من أدبها من عصر ازدهارها في العصر المســمى في تاريخ حضارة وادي النيـل بعصـر الاهـــرام (الالف الثـالث ق•م) • وخلف الكنعانيون الذين كانوا من أشهر واكبر الاقوام الســامية التي استوطنت الاقسام الساحلية من بلاد الشام ، نتاجا أدبيـا مهما يرقى في زمنه الى منتصف الالف الثـاني ق•م ، كما اظهرت ذلك الاكتشـافات الاثاريـة الحديثة في المستوطن الكنعاني القديم المسمى « أوغاريت » (رأس الشمرا الان بالقرب من اللاذقية)(١) ، أي ان زمن هذا الادب الكنعاني متأخر بالنسبة الى أدب

---

(١) حول النتائج الباهرة التي اظهرتها التنقيبات الاثرية الفرنسية في اوغاريت منذ عام ١٩٢٨م ، راجع ايجاز ذلك في كتابي « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » (الجزء الثاني ١٩٥٦) وكذلك :
C. Schaffer, Ugaritica, III, (1956); Acta Orientalia, (1955), Virolleaud, Palais Royale d'Ugarit, (1957),
وعن نصوص الادب الكنعاني :
Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts, (1969).

حضارة وادي الرافدين بما لا يقل عن خمسة قرون • وناخذ الادب العبراني على سبيل المقارنة حيث لا يتعدى زمن اقدم نتاج له ، ممثلا باسفار التوراة ، القرن السادس ق•م ، اي انه متأخر عن عهد أدب العراق القديم بعشرات القرون • ونسوق للمقارنة ايضا اقدم ادب انتجته الحضارة الاغريقية ممثلا بالاوديسة والالياذة المنسوبتين الى هوميروس واللتين لا يتجاوز زمن تدوينهما القرن السابع او الثامن ق•م على اكثر تقدير • ومثل هذا يقال عن أقدم أدب خلفته الهند القديمة • ونعني نصوص الـ « رگ‌فيدا » (Rig vida) وادب ايران القديمة الذي تمثله الافستا (الابستاق Avesta) •

وسيتضح من الامثلة التي سنوردها عن النصوص الادبية في العراق القديم انه على الرغم من سبق هذا الادب جميع الآداب العالمية المشهورة التي عددناها ، فانه لما يثير الدهشة في الباحث الحديث ان يجد ذلك الادب الموغل في القدم يتميز بالمقومات الاساسية التي تميز الآداب العالمية الشهيرة ، سواء كان ذلك من ناحية الاسلوب وطرق التعبير ام من ناحية الموضوع والمحتوي والصور الفنية المعبرة ، والاصالة والجرأة وأهمية الموضوعات التي تناولها •

٢ ـ وبالاضافة الى صفة القدم فان أدب حضارة وادي الرافدين يتميز على الآداب القديمة بخاصية أخرى مهمة ، تلك هي ان معظم تلك الاداب القديمة قد طرأ عليها الكثير من التحوير والتبديل والحذف والاضافة على ايدى النساخ والجامعين والشراح ، في حين ان الادب السومري والبابلي قد جاء بهيئته الاصلية غير محور كما دون باقلام الكتبة على الواح الطين قبل نحو (٤٠٠٠) عام(٢) • وهي الالواح المدونة بالخط الذي أطلق عليه

---

(٢) انظر :

S. N. Kramer, Sumerian Mythology, (1944)

وعن الخط المسماري واصله وحل رموزه راجع كتاب المؤلف « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ •

ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انه مع هذا القدم الموغل في الزمن فأن ادباء العراق القديم عدوا انفسهم حديثي العهد في الحضارة وانهم ورثاء ماض مجيد متقادم العهد ، تخيلوه عـلى هيئة « عصر ذهبي » كان السـلام والخير يسودان الارض فيه ، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء ، وكان « البشر بلسان واحد يمجدون الالـه أنليل » ، كما ورد ذلك في احدى الاساطير السومرية(٣) • ولا يخفى ان هذه الفكرة التي تصور عهدا متخيلا كان البشر فيه اسعد من عصرهم الراهن قد انتشرت الى كثير من الاقوام على هيئة « الماضي الذهبي » ، ولم تتمكن فكرة « التقدم » من الانتشار الا في العصور الحديثة ، ولايزال الكثير من اهل العصر الحاضر من يتصور وجود ذلك « الماضي الذهبي » •

٣ ـ نسبة عدد النصوص الادبية في مجاميع الواح الطين المكتشفة :

اذا كانت مصادرنا عن أدب العراق القديم النصوص الاصلية المدونـة بالخط المسماري في الواح الطين ، فما مقدار الالواح التي تتضمن هـذه النصوص الادبية بالنسبة الى عدد ما جاء الينا من مجموع الواح الطين التي اكتشفت في بقايا المدن القديمة ؟ وما المقصود في مصطلح النصوص او الالواح الادبية ؟ وللاجابة على هذا السؤال بوجه الايجاز نقول ان ما استخرج من الواح الطين المختلفة النصوص الى هذا اليوم يبلغ مئات الالوف ، وقد يناهز المليون لوح مما هو موزع الان في المتاحف العالمية المشهورة • على ان هذا العدد ، على كثرته ، لا يؤلف في الواقع الا نسبة غـير كبيرة ممـا لا يزال مطمورا في الاطلال القديمة المنتشرة في شتى ربوع العراق وفي بعض الاقطار المجاورة التي اقتبست حضاراتها القديمة الخط المسماري من وادي الرافدين في تدوين لغاتها ومعه الكثير من التراث الادبي والفني من

(٣) Kramer, Ibid.

حضارة وادي الرافدين مثل العيلاميين في الاجزاء الجنوبية الغربية من ايران ، والفرس الاخمينيين والحثيين في بلاد الاناضول وبعض الاقوام في بلاد الشام • اما تخمين نسبة عدد الالواح المدونة بالنصوص الادبية الى عدد ما ذكرناه من مجموع ما جاء الينا من الواح الطين المختلفة فهي نسبة قليلة ، لا يتجاوز عددها بضعة الاف ، لعله ما بين ثلاثة الى اربعة الاف لوح • بيد انه لا يمكن التكهن عما سيكشف عنه المستقبل من نصوص ادبية اخرى قد تغير وتضيف الى معرفتنا الراهنة بادب العراق القديم اشياء كثيرة ، ولكن مع ذلك يمكن القول بوجه عام ان ما كشف عنه وتم درسه ونشره من نصوص أدبية لحد الان يعبر عن المعدل أو الصورة العامة لنصوص هذا الادب من حيث المواضيع التي تناولها وخصائصه ومفهوماته العامة المميزة •

ومع انه يمكن اجمال ما نقصده بالالواح الادبية بانها النصوص الكتابية التي لا تتعلق بتدوين شؤون الحياة الاعتيادية كالمعاملات التجارية والقانونية والرسائل والشؤون الادارية ، وان كل ما عدا مثل هذه النصوص الاعتيادية يدخل في صنف النصوص الادبية ـ نقول مع ذلك ان هذا التعريف مبهم أو سالب فينبغي لنا أن نضيف الى ذلك ان اعتبارنا لهذا الصنف من الواح الطين على انه نصوص ادبية يستند الى المفاهيم المتعارف عليها في الادب ، من ناحية اسلوب التأليف اللغوي كوسيلة للتعبير الفني لنقل التجارب والصور والخبرات والاحاسيس الى القارىء أو السامع ، الى غير ذلك من الخصائص التي يتصف بها النتاج الادبي في جميع العصور ، وبالوسع ايجاز ذلك في ثلاثة امور :

أ ـ الموضوع او الفكرة التي تعبر عنها القطعة الادبية •

ب ـ الاسلوب الادبي الفني ، سواء كان شعرا ام نثرا ، المتميز بطراز خاص من النظم والتأليف المؤثر في مشاعر القارىء او السامع •

ج ـ اختيار الحوادث والمواقف المؤثرة بالنسبة الى مفاهيم الحضارة التي انتجت الادب المبحوث فيه • وسيتضح مما سنذكره من القطع الادبية من حضارة وادي الرافدين تحقق هذه المقاييس الادبية المتعارف عليها •

٤ ـ الازدواج اللغوي في أدب حضارة وادي الرافدين :

من الملاحظات المهمة التي يجدر ذكرها في هذه المقدمة لفهم ادب العراق القديم امر يتعلق باللغة التي دون بها هذا الادب • فمن الحقائق التاريخية المعروفة عن حضارة وادي الرافدين انها كانت ، من الناحية اللغوية ، مزدوجة اللغة او ثنائية اللغة (bilingual) (*) حيث اللغتان المشهورتان : اللغة السومرية واللغة الاكدية (أي البابلية والاشورية) ، وهي الفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية(*) فاللغة الاولى ، اي السومرية ، كانت لغة السومريين الذين لا نعرف عن اصلهم ومهدهم اشياء مؤكدة سوى انهم ليسوا ساميين ولغتهم ليست من عائلة اللغات السامية ولا من عائلة اللغات الهندية ـ الاوربية أو أية عائلة لغات أخرى معروفة • وكانت السومرية منذ ظهور التدوين اى الكتابة في حضارة وادي الرافدين في أواخر الالف الرابع ق•م اللغة السائدة في التدوين على الرغم من وجود الساميين في بلاد وادي الرافدين جنبا الى جنب مع السومريين منذ بداية الاستيطان البشري في السهل الرسوبي في مطلع الالف الخامس ق•م• وكان الطابع الثقافي والسياسي المميز في الادوار القديمة من حضارة وادي الرافدين الثقافة السومرية بلغتها وأدبها ومعارفها المختلفة • ولكن سرعان ما برز كيان الساميين السياسى كما برزت لغتهم في التدوين بشكلها الاكدي في عهد

(*) راجع ايجاز هذا الموضوع في كتابي الموسوم : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الاول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) وفيه الاشارات الى الدراسات والبحوث المختلفة في الموضوع •

السلالة الاكدية السامية (٢٣٧٠-٢٢٣٠ ق٠م) التي اسسها سرجون الاكدي الشهير • وتزايد اساع التدوين والتكلم بهـا ايضا حتى طغت على اللغة السومرية منذ مطلع الالف الثاني ق٠م وساد الساميون في الحياة السياسية ايضا • ولكن مع زوال السومريين من الحياة السياسية في الالف الثاني ق٠م ظلت لغتهم ، مثل اللاتينية في أوربة ، لغة ثقافية أساسية ، كما بقيت الثقافة السومرية حية واستمر التدوين بالسومرية جنبا الى جنب مع اللغة الاكدية بفرعيها الاساسيين البابلية والاشورية الى آخر عهود وادي الرافدين تقريبا •

واستتبع عن هذا الازدواج اللغوي في حضارة وادي الرافدين نتائج ثقافية ولغوية وكتابية كثيرة لا مجال لذكرها في هـذا الموضوع ، فيكفي ان نقول من ناحية موضوعنا انه لا يمكن فهم النصوص الادبية في هـذه الحضارة ما لم يؤخذ بنظر الاعتبار هذا الازدواج اللغوي ، سواء كان ذلك من ناحية ترجمة الكثير من القطع الادبية السومرية الى اللغـة البابلية ، أم من ناحية تأثر النتاج الادبي البابلي باصول سومرية ، أم من حيث استعمال الكثير من المصطلحات الكتابية السومرية في القطع الادبية البابلية ، وتأثر هذه القطع بالأساليب اللغوية الأدبية السومرية • وان هذا يصدق بوجه عام على فهم جميع النصوص الكتابيـة الاخرى التي خلفتهـا حضارة وادي الرافدين •

٥ ـ تحملنا هذه الحقيقة على ذكر ملاحـظة اخرى تتعلق بمدى تفهمنا ، نحن ابناء الازمان الحديثة ، للنصوص الادبية التي جاءتنا من حضارة وادي الرافدين عن طريق ترجمتها من جانب المختصين الى اللغات الحديثة • فمما يقال بهذا الصدد انه على الرغـم من ان فهم الباحثين المختصين باللغتين السومرية والبابلية لنصوص هذا الادب مستند الى اسس علمية لا يرقى اليها الشك من بعد حل رموز الخط المسماري منذ منتصف

القرن الماضي(*) ، وان هؤلاء المختصين متفقون على ترجمة القطع الادبية باستثناء اختلافات واجتهادات كثير منها غير جوهري ـ نقول مع كل ذلك ومهما بلغت ترجمة هؤلاء الباحثين من دقة الاداء فانها لا تستطيع ان تنقل لنا الروح الاصلية والمناخ الفكري والعاطفي المميز لتلك النصوص ، شأنها في ذلك شأن الاداب العالمية الاخرى اذا ما نقلت من لغاتها الاصلية الى لغة اخرى ، لاسيما في حالة نتاج أدبي مثل ادب حضارة وادي الرافدين تبعدنا عنه الاف السنين • ولعله يمكن القول بهذا الصدد ان نقل النصوص الادبية الى اللغة العربية يخفف جانبا كبيرا من تلك العقبة ، فاللغة العربية اليق اللغات في التعبير الدقيق عن هذه النصوص لانها أخت اللغة البابلية ، فكلتاهما من عائلة لغوية واحدة ، هي عائلة اللغات السامية المتشابهة افرادها في تراكيبها اللغوية ومعاني مفرداتها ولفظ هذه المفردات ، ناهيك عن التشابه القوي ما بين العرب وبين الاقوام السامية الاخرى ومنهم الاكديون والبابليون والآشوريون •

٦ ـ تراث ادب حضارة وادي الرافدين في الحضارات الاخرى :

بالاضافة الى ميزة القدم التي نوهنا بها عن أدب العراق القديم وانه يسبق أقدم أدب عرفه الانسان ، فان لهذا الادب أهمية خاصة في تأريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الانساني ، تلك هي اجماع مؤرخي الحضارة على عظم التراث الذي خلفه ذلك الادب في الحضارات القديمة الاخرى والثقافات المعاصرة ، فهو على ذلك لا يقتصر على كونه ادبا قديما مثل دوره في تطور الفكر البشري ومات ، بل انه لا يزال حيا عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات الاخرى التالية •

(*) عن ايجاز الطرق التي اتبعت في حل رموز الخط المسماري راجع كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » ، الجزء الاول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) •

واذا كان يتعذر الاستشهاد بالعناصر الحضارية الكثيرة التي انتقلت من حضارة العراق القديم الى الحضارات الاخرى ـ ولعل القارىء سيقف على طائفة من هذه التأثيرات في اثناء تصفحه القطع الادبية التي سنعرضها ـ نقول اذا تعذر ذلك فنكتفي من الموضوع بايراد الاسس المعتمدة في منهج البحث التاريخي فيما يتعلق باقتباسات الحضارات بعضها من بعض ، وقد استطاع الباحثون بانتهاجها البرهنة علـــى الحقيقة التي ذكرناها ، ويمكن ايجازها في الاسس الثلاثة الآتية :

أ ـ اثبات السبق الزمني لادب حضارة وادي الرافدين ، وقد سبق ان برهنا على ذلك •

ب ـ اثبات وجود الاتصالات التاريخية وتحديد الطرق التي انتقل فيها الكثير من العناصر والمقومات من حضارة وادي الرافدين منذ أقـــدم عهودها الى الحضارات الاخرى • وتأتي في مقدمة الاتصال هذه الاتصالات التجارية والحروب والفتوح والاسفار ، فقد ثبتت الاتصالات التأريخية مابين العراق القديم وبين اقطار كثيرة في الشرق الادنى وحتى اقطار نائية مثل سواحل الهند ، وتشير الاخبار التأريخية والادلة الآثارية الى امتداد فتوح سرجون الاكدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ ق•م) وحفيده « نرام ـ سين » (٢٢٩١-٢٢٥٥ ق•م) الى اقاليم نائية مثل الاناضول وكريت وقبرص واقطار اخرى في حوض البحر المتوسط • وازدادت هذه الفتوح اتساعا في العصور التي اعقبت العهد الاكدي ، ولاسيما الفتوحات الاشورية الواسعة التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين اقوام حضارة وادي الرافدين وبين الاقوام القديمــة ومنها بعض القبائل اليونانية في ســواحل الاناضــول الغربية • وكشفت التحريات الآثارية الحديثة عن بقايا مستوطنات واسعة اقامها الاشوريون في عصرهم القديم (مطلع الالف الثاني ق•م•) في الاناضول حيث المركز التجاري الشهير في المدينة القديمة المسماة « كانيش » (وتعرف بقاياها الان

باسم كول تبه باقرب من قيصرية)[٤] ، وقد عثر حديثا في « لارنكا » في قبرص على مواد أثرية من حضارة وادي الرافدين من بينها اختام اسطوانية يرجع عهد بعضها الى العصر الاكدي (اواخر الالف الثالث ق٠م)[٥] ٠

جـ ـ اما الأساس الثالث فهو اثبات مواطن شبه اساسية في الاحداث والافكار والابطال من أدب حضارة وادي الرافدين في أساطير الامم القديمة وآدابها ، ونترك التبسط في هذا الموضوع الى القارىء من بعد وقوفه على النصوص الادبية التي سنعرضها وسيجد فيها الموارد المتعددة من أوجه الشبه هذه ٠

٧ ـ والى هذا فان لأدب العراق القديم اهمية وخطورة خاصتين في فهم مقومات حضارة وادي الرافدين واوجهها المختلفة والطابع المميز لها ٠ فان النصوص الادبية التي وصلت الينا من هذه الحضارة ، مثل ملحمة جلجامش الشهيرة وقصص الخليقة والاساطير الخاصة باصل الوجود والاشياء وغيرها من القطع الادبية التي سنتناولها ، تعد عند الباحثين منجما زاخرا يستقون منه اسس هذه الحضارة واتجاهاتها وعقائدها الاساسية ، فهي اصدق ما ينقل لنا احوال اقدم المجتمعات الانسانية وعقائده ونظرته الى أصل الاشياء والآلهة ونظام الحكم ، كما تصور لنا أحوال البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة ٠ فان الدارس لنتاج العراقيين القدماء الادبي يستطيع ان يقف على طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة ، ذلك التفكير الذي كان نتاجهم الادبي مظهرا من مظاهره ، ووجها من اوجهه ٠ وسنرى ان النزعة الغالبة على ذلك التفكير الاتجاه الاسطوري الشعري (methopoetic) ٠ ومما يقال بوجه عام انه ، باستثناء مواضيع قليلة، لايسعنا

---

(٤) راجع عن تأريخ هذا المستوطن التجاري الاشوري وما وجد فيه من سجلات وشرائع بالخط المسماري واللغة الاشورية القديمة ، الجزء الاول من كتابي السالف الذكر الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ ، الفصل الخاص

(٥) انظر : C. H. Gordon, Before the Bible, (1962).

ان نسمي ما خلفوه فكرا فلسفيا بالمعنى الدقيق لهذا النمط من التفكير الذي يستند الى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الاشياء نظرا موضوعيا • ومع انهم عالجوا في اساطيرهم وانواع كتاباتهم الاخرى قضايا مهمة لا تقل شأنا وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، بيد أن تفكيرهم في مثل هذهالقضايا كان ، كما قلنا ، تفكيرا خياليا و اسطوريا وشعريا• واذا كانت الاساطير والقصص معروفة فيالآداب الحديثةالا أنأدباء واديالرافدينالقدامى لم ينظروا الىاساطيرهم علىأنها متعةأدبية فنية حسب بلكانوايعدون مافيها منآراء حقائق معتبرة فيتفسيرالوجود والاشياء• وعلى هذا ينبغيلنا ان ننظرالىأساطيرهم علىأنها تعبر عن حقائقالكون بحسب معتقداتهم بالاضافة الى كونها نتاجا أدبياً • انها كانت تفسر لهم نفس القضايا الاساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانية بأسلوب أو منهج موضوعي مستند الى الاستدلال المنطقي • واذا ما وجدنا فيما سنذكر من قطع ادبية تناقضا في الآراء والمعتقدات عن أصل الكون والاشياء فان ذلك متوقع في التفكير الاسطوري الشعري لان التناقض لا يبدو الا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد ما بين الاحلام وبين اليقظة مختلطا غير واضح المعالم • والواقع ان الرؤى لم تكن اقل نصيبا من الحقيقة في اليقظة فكان القوم يحصلون على التوجيه والإرشاد الالهي عن طريق اتصالهم بالآلهة في الاحلام • واذا ما حاولنا العثور في اساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون « العلية » (Law of Causality) ، الذي هو اساس منهج العلوم الحديثة ، فاننا لا نجد له آثارا واضحة • انهم كانوا ينظرون الى علل الاشياء والحوادث من وجهة نظر من «يحدثها» وليس «كيف تحدث» أو « لماذا تحدث » ؟ فمثلا اذا لم ترتفع مياه دجلة كان السبب في ذلك ان النهر ابى ان يرتفع لغضبه او لغضب الآلهة التي تحكمه على البشر • وكان حكمهم على الاشياء

والحوادث يستند بالدرجة الاولى الى مبدأ التمثيل والقياس (analogy) اكثر من استناده الى الاستنتاج والاستدلال (inductive and deductive) ويظهر هذا واضحا في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على أساس التشابه الظاهري ، مثل تصورهم للسماء على هيئة الارض ، والارض على هيئة السماء حتى انهم اعتبروا السماء وكأنها دولة او مملكة تحكم فيها الآلهة بمراتب ودرجات متفاوتة ويجتمعون في مجالس للشورى ويتخذون فيها القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري في بلاد وادي الرافدين ، كما ان مبدأ التشبيه (Anthro-pomorphism) (*) الذي تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير .

ومن انماط التفكير الاخرى التي سيستنتجها القارىء من بعض القطع الادبية التي سنوردها ما يصح ان نسميه مبدأ « الاسم » الذي بموجبه لا يمكن لاي شيء أن يوجد مالم يكن له اسم ، فتسمية الشيء مرادفة لوجوده او ايجاده ، ويظهر هذا واضحا في اسطورة الخليقة البابلية التي عبرت عن حالة الكون قبل وجود السماء والارض بالقول ، « لم تسم السماء في العلا وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم » . والجدير بالذكر في هذا الصدد أن حضارة وادي الرافدين لم تنفرد بهذا الامر ، اذ نجد عند العبرانيين في رواية التكوين في التوراة(+) ، وكان الاسم في حضارة وادي النيل جوهر الشيء وسر وجوده وقوته ، فكان للألهة أسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم فلا يبوحون بها ، وامتدت الفكرة عند المصريين القدماء الى أسماء الاشخاص من البشر ، فكانوا يسمون الفرد باسمين ، اسم سري وآخر

(*) تعزى بموجب مبدأ التشبيه الى الآلهة صفات البشر الروحية والمادية .

(+) انظر سفر التكوين ٢ : ٥ــ٥ وانظر أيضا سفر الخروج ٣ : ١٣ــ١٤ حين سأل موسى الله عن اسمه لم يبح به بل قال : « انا من انا » .

هو الذى يدعى به بين الناس • وسنرى من اسطورة الخليقة البابلية كيف ان الآلهة اجتمعت في مجلس الشـــورى وانتخبت الاله « مردوخ » كبير آلهة بابل ، ملكا عليها ليحارب قوى لعماء والدمار الممثلة بالآلهة العتيقـة ، ولكي تمكنه من ذلك تنازلت عن اسمائها ، فصار هذا الاله يحوز عـلى « خمسين اسما » كل منها يمثل سر القوة والقدرة التي يملكها كل منهم • وكان البشر في بعض الحالات يستطيعون ان يستعينوا بما في اسماء الالهه من قوة ومناعة بمجرد كتابة اسم الاله ، واتسعوا في هذا المبدأ بحيث انهم صاروا يرمزون الى الاسماء بالعدد • فمثلا يخبرنا الملك الآشورى سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق•م) عن قصره في المدينة التي ابتناها وسماها باسمه « دور ـ شروكين » (خرسباد الآن) بقوله : « بنيت جدار سورها بمقدار (١٦٢٨٣) ذراعا وهو رقم اسـمي » (*)• ولمـا كان الاسـم جوهر الشيء وسر وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الاشخاص والاشياء المحببة باسماء تنطوي على اليمن والفال الحسن(**) ، ونجـد هذا المبدأ عاما تقريبـا في اسماء الاعلام التي يغلب عليها ان تكون اسماء مركبة تؤلف جملة كاملة ويدخل فيها اسماء الآلهة • وبالنسبة الى اسماء الاشياء مثل المباني نذكر بعض الامثلة من اسماء الكثير من محلات مدينة بابل وشـوارعها ومبانيهـا مثل اسم شارع الموكب الذي ورد اســمه في النصوص المسمارية بهيئـة « أي ـ يعبر ـ شابو » (ai-ibur-shabu) ومعنـاه « عسى الا يعبر العدو » • واسم بوابة عشتار الشـهيرة : « عشتار ـ شاكبة ـ تيشا » (Ishtar-shakibat-Tebisha) اى « عشتار قاهرة اعدائها » •

وخلاصة ما يقال بهذا الصدد ان المعتقدات الدينية قد أثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي انواع الفنون الاخرى بوجه عام ، شأنها في ذلك شـأن الحضارات القديمة الاخرى ، سـواء كان ذلك في اشتراك

(*) لعل هذا اصل المبدأ الخاص باعطاء الحروف قيما عددية •
(**) قارن ذلك بالمثل اللاتيني : « الاسم فال (nomen est omen)

الآلهة باحداث الملاحم البطولية والقصص والاساطير ام في المواضيع والاغراض الدينية المتنوعة كالتراتيل والادعية والابتهالات والصلوات التي كانت تؤلف قسما مهما من النتاج الادبي الشعري ، اذ انها كانت تنظم شعرا • أما النثر ، ولا سيما النثر الادبي ، فقد استخدموه في أغراض أدبية اخرى مثل تدوين الحوادث التاريخية والرسائل الملكية وتدوين اعمال الملوك وحملاتهم الحربية والشرائع والحكم والامثال والمواعظ •

٨ ـ الاعادة والتكرار واستباق نتائج الاحداث :

ومن الميزات العامة التي سيلاحظها القارىء لاشهر النصوص الادبية مثل ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة ظاهرة التكرار والاعادة مما يبعث السأم والملل عند القارىء الحديث ، فمثلا اذا ارسل احد الآلهة رسولا ليبلغ أمرا ما الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التي قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها • والطريف ذكره بصدد هذه الظاهرة ان الباحثين المحدثين قد افادوا منها كثيرا في الاستعانة بها لاكمال مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت من النصوص الاصلية في الواح الطين • ومهما كان الامر فان ادب العراق القديم لا يتفرد بهذه الظاهرة بل يضاهيه فيها الكثير من آداب الأمم القديمة مثل الالياذة والاوديسة • وقد استند بعض الباحثين الى هذه الظاهرة في مثل هذه الآداب العالمية فارجع اصلها الى الانشاد والرواية الشفوية ، حيث كان المنشد يستعين بالتكرار والاعادة ليستعيد الى ذاكرته ما سينشده من أبيات تالية •

ومن الخصائص الاخرى التي يلاحظها الفاحص لنصوص أدب وادي الرافدين ـ والمثال على ذلك واضح في ملحمة جلجامش ـ ما يصح ان نطلق عليه « اسبباق الاحداث » او « استباق النتائج » (Anticipation) اي استباق ما ستتمخض عنه الرواية او القصة والتنويه بالحل والنهاية • ففي ملحمة جلجامش مثلا تبدأ الرواية بديباجة في التعريف ببطل الرواية

والتغني بامجاده وتنوه ايضا بمجمل موضوع الرواية وخاتمتها • ونجد ما يضاهي هذا في الملاحم العالمية المشهورة مثل الالياذة والاوديسة والملحمة الجرمانية المسماة « اغاني النيبلونك »(*) ، والمرجح ان يكون تفسير هذا في تحريك السامع وتشويقه الى احداث الرواية ، ولعله يمكن تشبيه هذا الاسلوب من الفن القصصي القديم باساليب العرض السينمائي الحديثة ، حيث يبدأ بعض الافلام بلقطة من خاتمة الرواية او من اهم احداثها ، ثم تبدأ حوادث الرواية بالتسلسل ، وتنتهي بالمشهد الذي بدأت به • واستنادا الى هذه الظاهرة فان حقيقة كون بداية ملحمة جلجامش او ديباجتها مضاهية لخاتمتها دليل على ان النصوص التي وصلت الينا منها تمثل الملحمة كاملة تقريبا •

٩ ــ الفهارس والسجلات والمكتبات :

لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان حضارة وادي الرافدين فاقت معظم الحضارات القديمة في كثرة التدوين الذي شمل جميع شؤون الحياة الخاصة والعامة • وتميز بعض عصورها بوفرة ما جاء الينا منه من الواح الطين التي لعلها تجاوز المليون لوح مما كشف عنه لحد الان من العهود المختلفة مثل عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٢–٢٠٠٤ ق•م) ، لعله في حدود ٣٠،٠٠٠ الى ٤٠،٠٠٠ لوح ، والعصر البابلي القديم (٢٠٠٠–١٥٠٠ ق•م) في حدود ٥٠،٠٠٠ الى ٧٠،٠٠٠ لوح والعصر الآشوري الحديث ما يناهز ٨٠،٠٠٠ لوح ثم العصور المتأخرة مثل العصر البابلي الحديث (منتصف القرن السادس ق•م) والعصر الفارسي الاخميني (٥٣٩–٣٣١ ق•م) والعصر السلوقي والفرثي (٣١١ ق•م – ٢٢٦م) •

(*) اغاني النيبيلونك (Niebelunglied) ملحمة جرمانية مشهورة في آداب القرون الوسطى ، وتدور احداثها ، مثل ملحمة جلجامش ، على مغامرات البطل « سيغفريد » في « أرض الظلام » مع ملوكها البورغنديين وقتلهم له ثم ثأر زوجته له الخ •

وبالنسبة الى التدوين بدأت غزارة النصوص الادبية منذ العصر البابلي القديم وسنرى من تلخيص القطع الادبية كثرة النسخ التي خلفها كتبة العراق القديم في الازمان المختلفة ابتداء من العصر البابلي القديم المار الذكر • ولعل ابلغ مثال نسوقه في تاريخ التدوين والولع بجمع النصوص المختلفة لشتى صنوف المعارف التي اشتهرت بها حضارة وادي الرافدين خزانة كتب الملك الآشوري الشهير « اشور بانيبال » (٦٦٨-٦٢٦ ق•م) في نينوى حيث كشفت التنقيبات القديمة فيها (منتصف القرن التاسع عشر) عن مجاميع ضخمة من الواح الطين التى حوى الكثير منها كنوزا من ادب حضارة وادي الرافدين ، وهي نسخ من نصوص اقدم عهدا ، وقد نظمت المكتبة الملكية في مجموعات حسب موضوعاتها كما سنوضح ذلك بعد قليل •

ويجدر ان نشير بهذا الصدد الى ان احد الباحثين اكتشف في السنوات القليلة الماضية بعض النصوص التي تدل على وعي ادبي في فهرسة القطع الادبية ، فقد وجد من بين الواح الطين التي عثر عليها في مدينة « نفر » في أثناء التحريات القديمة فيها لوحين أحدهما موجود الآن في متحف اللوفر (في باريس) والاخر في متحف جامعة فيلادلفيا وهما يتضمنان عناوين من مؤلفات ادبية سومرية • ويحتوى لوح فيلادلفيا على ٦٢ عنوانا ولوح اللوفر على ٦٨ عنوانا ، واذا اخرجنا ٤٣ عنوانا مشتركا في اللوحين فيكون عدد العناوين المسجلة فيهما ٨٧ عنوانا لنصوص ادبية امكن تعيين ٢٨ تأليفا منها حيث وجد اصله الكامل في الالواح المكتشفة سابقا(٦) •

---

(٦) درس هذين اللوحين ونشرهما الاستاذ « كرامر » • انظر :
S. N. Kramer. "The Oldest Literary Catalogue" in Bulletin of the American Oriental Society, No. 88, (1942); Sumerian Mythology, (1944), p. 14.

١٠ـ أثر مادة الكتابة في اساليب التدوين :

وكان لمادة الكتابة ، وهي الطين الذي كان المادة الرئيسية في التدوين ، اثر كبير في اشكال المدونات المختلفة وفي مقدمتها النصوص الادبية وطريقة جمعها وفهرستها وتسلسلها • فعلى ما هو معرو فلا يمكن تدوين نصوص مطولة على لوح واحد من الطين مهما بلغ كبره حيث لا يمكن استعمال لوح يتجاوز حجم الآجرة (نحو ٥٠ × ٥٠ سم) على اكثر تقدير • اما في حالة الوثائق والعقود التجارية والرسائل وغيرها من شؤون الحياة الاعتيادية فكان يكفي لوح واحد لاستيعابها • وحلت مشكلة تدوين النصوص الادبية والتاريخية المطولة بأحدى طريقتين : (١) تدوين النص المطول في عدة الواح ترتب على هيئة سلسلة متتابعة ويذيل كل لوح منها بعنوان السلسلة العام مع رقم تسلسله وبداية السطر الذي يبدأ به اللوح التالي • وكانت كل مجموعه من هذه السلاسل من النصوص الادبية تحفظ في رفوف او اوعية (جرار) من الفخار او في سلال يعلق فيها عنوان المجموعة الذي يسجل على بطاقة او لوح صغير من الطين • وهكذا وصلت الينا ملحمة جلجامش الشهيرة مدونة على اثني عشر لوحا ، واسطورة الخليقة على سبعة الواح • وجرت عادتهم في عناوين مثل هذه المجاميع الادبية ان تعنون كل مجموعة باول عبارة او شطر من الشعر فيها • فمثلا عنونوا ملحمة جلجامش : « شانقبا امورو » (sha naqba imuru) اي : « هو الذي رأى كل شيء » ويضيفون الى ذلك من « سلسلة جلجامش » (اشگار جلجامش esh gar gilgamesh) • وعنوان اسطورة الخليقة : « اينمّا ايليش » (enuma elish) اي « حينما في العلا » ، وعنوان شريعة حمورابي : « اينو آنم صيرم » (inu Anum Serum) اي « حينما آنو المبجل » •

ولعله من المفيد ان نتمم هذه الملاحظات عن عناوين المؤلفات الادبية بذكر ما جاء الينا من عناوين بعض القطع الادبية السومرية المشهورة حيث

درج المؤلفون والنساخ كما ذكرنا على تذييل مثل هذه القطع بعناوينها الخاصة ، فصنف من أدب المناظرة او المفاخرة الذي سنذكر نماذج منه عنوانه بالسومرية « أدمن — دوكا » (ADAMAN-DU-GA) ، وصنف من المؤلفات الادبية اطلق عليه عنوان « أندولوكال » (ANDULUGAL)

وهو ضرب من التراتيل والمدائح التي كانت تنظم لمدح الملوك والحكام .
وهناك صنف من الأشعار الغنائية والترانيم اطلق عليها بالسومرية مصطلح سر — نام — سبادا — (SIR) المضاهية للكلمة السامية « شير » و « شيرو » والعربية « شعر » ، ولكن لا يعلم بوجه التأكيد ايهما اصل للاخرى .
وذكرت جملة انواع من هذه التراتيل المصدرة بكلمة « سر » ولكن لا تعرف ماهيتها مثل « سر نمنار » (SIR-NAMNAR) و « سر — خامن » (SIR-HAMUN) و « سر — نام — كالا » (SIR-NAM-GALA) اي اغاني كهنة الـ « كالا » . ونوع من الاغاني يعني حرفيا « ترانيم الرعاة للالهة انانا » سر — نام — سباد — انانا (SIR-NAM-SIPADA-INANNA) وهناك انواع اخرى من الاغاني والترانيم تصدر بالكلمة السومرية « أدب » (ADAB) والكلمة « تيكي » (TIGI) ، ولا يعرف معناها بوجه التأكيد ولعل أساس تصنيفها انها كانت تنشد على الآت موسيقية ذات عدد خاص من الاوتار .
وصنف اخر يسمى بالسومرية « بلباله » (BALBALE) وهو نوع خاص من الاغاني أيضا ، وقد ذيلت بهذه الكلمة بعض القطع الادبية من نوع الحوار (dialogue) . وصنف اخر يرجح أن يكون أدب الرثاء والندب(٧) (Lamentation) اطلق عليه بالسومرية « بلاك » (BALAG) . وقد جاءت الينا قصائد سومرية قليلة في موضوع الرثاء ، وبوجه خاص رثاء تدمير

(٧) بالاضافة الى المراجع السابقة التي استشهدنا بها انظر المصدرين الاتيين :

1. Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete, (1956), 20 ff.

المدن ومراكز العمران ، مثل رثاء سقوط « أور » • وهناك نوع من التراتيل الشعرية خصص لمدح الملوك والحكام واستعطافهم ظهر في العصر البابلي القديم تحت العنوان السومري « أدب » (ADAB) (*) ، وذكرت تحت هذا المصطلح ثلاثة أنواع من الاشعار هي بالسومرية : « سأكدا » (SAGIDDA) (ومعناه الحرفي الخيط الطويل) و « سكرا » (SAGARRA)[2] (اي الخيط الموضوع او المقرر) و « أورو - إينبي » (URU-ENBI) (سيد المدينة) •

ان هذا الاسلوب الذي أشرنا اليه في طريقة حفظ النصوص الادبية له صلة وثيقة باصل نظام المكتبات وحفظ السجلات والوثائق (الارشيفات) حيث كانت المجاميع المختلفة من الواح الطين والمفهرسة على الوجه الذي ذكرناه تودع في حجرات خاصة من المعابد والقصور والبيوت ، وكان بعضهامؤلفا من عشرات الالوف من الوثائق والسجلات مثل مكتبة «آشور-بانيبال» في نينوى التي أشرنا اليها مرارا ، وغيرها من دور الالواح أو دور الكتب البابلية والآشورية في كبريات المدن القديمة • وكان يطلق عليها بالسومرية « بيت الالواح » « اى - دبا » (E-DUBBA) • وكان بعض المدن مثل « نفر » مركزا كبيرا للتعليم والاستنساخ والجمع حيث مدارس الكتبة المتمرسين في مختلف صنوف المعرفة •

٢ - اما الاسلوب الثاني في تدوين النصوص المطولة على الطين ولاسيما النصوص التأريخية مثل حوليات الملوك واعمالهم العمرانية والعسكرية فكان يتم باستعمال ما يسمى بالمناشير (Prisms) والاساطين (Cylinders)

---

2. Hallow, "The Cultic Setting of Sumerian Poetry" in Rencontre Assyriologique Internationale, XVIII, (1969), 1971, 116 ff.

(*) هنا يتوارد الى الذهن السؤال الطريف عن علاقة كلمة أدب السومرية بأدب العربية •

وهي من الطين المشوى وكبيرة الحجوم نوعا ما • ومـــع ان استعمال الاساطين بوجه خاص كان معروفا في بلاد بابل في العهد السومري المتأخر (منذ عصر جودية في اواخر الالف الثالث ق•م) الا ان استعمال المناشير واستعمال الاساطين بكثرة ظهـــــر عند البابليين والأشوريين في أدوارهـم الاخيرة ، منذ القرن الثاني عشر ق•م ، بوجه التقريب • وكان مثل هذه المناشير والاساطين يستوعب نصوصا مطولة بحيث انها تضاهي حجم كتاب صغير او كراس كبير •

وبمناسبة ذكرنا للكتاب يجدر ان نلاحظ ان اصله لا يمكن ان يرجع الى هذه الطرق من التدوين التي اتبعت في حضارة وادي الرافدين ، فان مادة الكتابة فيها ، اي الطين ، لا يمكن ان يؤلف منها كتاب • ولعله يمكن حصر أصل الكتاب في تأريخ الحضارات البشرية في احتمالين : الاحتمال الاول ان الكتاب نشأ من استعمال لفات ورق البردى الذى اختصت في استعماله حضارة وادي النيل • اذ المعروف مما جاء الينا من هذا النـوع من الورق ان لفات البردى كانت تستوعب نصوصا مطـولة من الكتابة • ولعل مما يؤيد هذا الاحتمال اصل تسـمية « كتـاب » في اللغات الاوربية وهي التسمية المشتقة من الاغريقية « ببليون » (biblion) ومنها تسـمية المكتبة « ببليوتيك » (bibleotheca) وهي كلمة مأخوذة من اسم المدينة الفينيقية « ببلوس » (جبيل) لان الاغريق كانوا يستوردون ورق البردى المصري عن طريق هذه المدينة • اما الاحتمال الثاني عن اصل نشوء الكتاب فانه يرجع ، بالاضافة الى ورق البردى ، الى ما كان يستعمله الاشوريون من الواح الخشب او العاج الرقيقة والكتابة عليها بعد طلي سطوحها بالشمع ، وكانوا يوصلون جملة الواح منها بمفاصل من اسلاك النحاس ، فيكون كل لوح بمثابة صفحة كتاب ومجموع الالواح بين دفتين يؤلف كتابا • وقد وجد حديثا في اثناء التنقيبات البريطانية في مدينة نمرود (كالح القديمة

بالقرب من الموصل) نماذج من هذه الالواح • ومما لا شك فيه ان كثيرا من هذه الالواح قد بليت بمرور الزمن فلم تصل الينا[٨] • والمعروف ايضا ان الكتبة الآشوريين استخدموا بالاضافة الى الواح الطين وهذه الصفائح العاجية الرقوق الجلدية (Parchment) كما تدل على ذلك الصور الممثله في المنحوتات الآشورية •

١١ـ اسماء المؤلفين والادباء والشعراء :

ننهي هذه الملاحظات العامة عن أدب حضارة وادي الرافدين باثارة تساؤل مهم كثيرا ما يتوارد الى اذهان قراء النصوص الادبية المشهورة التي وصلت الينا من هذه الحضارة ، الا وهو : من كان اولئك الادباء والشعراء الذين خلفوا لنا تلك الروائع الادبية ؟ والاجابة على هذا التساؤل بوجه الايجاز انه اذا استثنينا بعض الحضارات القديمة وبوجه خاص الحضارتين اليونانية والرومانية ، فان القاعدة العامة في تلك الحضارات ، ومنها حضارة وادي الرافدين ، ان يندر ذكر اسماء المؤلفين بوجه عام ومنها اسماء مبدعي القطع الادبية[٩] • وانه اذا جاء الينا بعض النصوص الادبية وهي مذيلة باسماء اشخاص فالغالب فيهم ان يكونوا نساخا او جامعين ، وقد يكون البعض منهم ، ولا سيما في حالة النسخ القديمة ، مؤلفي تلك القطع الادبية أو واضعيها أو منقحيها باشكالا النهائية • ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة من اغفال اسماء المؤلفين والادباء في العراق القديم بان القسم الاعظم من النتاج الادبي في حضارة وادي الرافدين نشا ونما على هيئة تراث قومي شاركت في انتاجه اجيال كثيرة من الشعراء ولم

---

(٨) راجع عن هذه الالواح العاجية :
Wiseman, "Assyrian Writing Boards", in IRAQ, 17 (1955), 3 ff.
(٩) انظر حول الموضوع :
Lambert, "Ancestors, Authors and Canonicity" in Journal of Cuneiform Studies, XI, (1957), 1 ff.

يتفرد باتناجه اديب واحد على غرار ما نعرفه في الآداب الحديثة ، وان شأنه في ذلك شأن الملاحم القومية المشهورة والقصص الشعبية مثل الف ليلة وليلة والالياذة والأوديسة اللتين تنسبهما المآثر اليونانية الى هوميروس (في حدود القرن الثامن ق٠م) ٠

وهناك بعض الحالات القليلة التي يرجح فيها ان يكون الاشخاص المذكورة اسماؤهم في ذيل بعض القطع الادبية مؤلفي هذه القطع ، نذكر منهم الاسماء التالية :

١ ــ احد جامعي ملحمة جلجامش الذي ورد اسمه في احدى نسخ الملحمة على هيئة « سين-ليقي-اونني » (Sin-Leqe-Uninni)[١٠] ، والمرجح ان الصيغة النهاية التي جاءت فيها الينا الملحمة تعزى الى هذا الكاتب من حدود ١٢٥٠ ق٠م٠

٢ ــ مؤلف اسطورة اله الطاعون « ايرا » وقد جاء اسمه بهيئة « كبتي ــ ايلاني ــ مردوخ » ، ويذكر هذا الشخص ان الاله « مردوخ » نفسه ظهر له في الحلم وأملى عليه القصيدة ، ولما استيقظ دونها بدون ان يضيف اليها او ينقص منها شيئا ٠

٣ ــ مؤلف ثالث يقترن اسمه بقطعة أدبية مشهورة سيأتي ايجازها ، وهي تصنف بما يصطلح عليه « العدل الالهي » (Theodicy) وقد جاءت بهيئة حوار طريف ما بين متشكك في العدالة الالهية وبين عبد صالح ، وقد ذكر اسمه بطريقة من الصناعة الادبية اللفظية التي يطلق عليها مصطلح (acrostic) او alleteration) وفحواها اننا اذا اخذنا المقاطع الاولى من كل بيت من ابيات القصيدة وجمعناها بعضها الى بعض فانها تؤلف اسم

(١٠) انظر المصدر السابق اي (JCS. XI. (1957), pl. 11, 1.10 حيث جاء اسمه في نسخة من لوح من العهد السلوقي وجد في الوركاء (انظر تقرير التنقيبات عام ١٩٦٢ ص ٤٣) وعبارة : « طبق سين ــ ليقي ــ اونني » ، الكاهن من صنف « مشمشو » (ماش ــ ماش) ٠

منشىء القصيدة مع مهنته ودعاء الى احد الالهة نصها : « انا ساكل - كينام - اوبب » (Saggil-Kinam-ubbib) الكاهن المعوذ ، خادم الاله والملك » •

٤ - ناسخ او مؤلف احد قصص الطوفان البابلية المعنـــونة « اترا حاسس » الذى ذكر بهيئة « كو - آى » من زمن احد ملوك سلالة بابل الاولى المسمى « عمي - صادوقا » •

الشعر والنثر الأدبي

على ضوء ما اوردناه من ملاحظات تمهيدية عن أدب حضارة وادي الرافدين نتناول الآن الوضوعات الاساسية عن هذا الادب فنتكلم عن : (١) الشعر والنثر الادبي (٢) المواضيع التي تناولها ذلك الادب سواء كان شعرا أم نثرا وتعداد أشهر النصوص الادبية التي وصلت الينا •

١ - الشعر :

ستكون ملاحظاتنا عن الشعر في حضارة وادي الرافدين[١١] منصبة

(١١) لا يسعنا الخوض في ما قيل من نظريات واراء عن الشعر عند الانسان ، فيكفى التنويه بان الشعر كان على ما يرجح اول ما زاولـــه الانســـان من الفنون الادبيـــة وان منشأه من الانشاد والغنـــاء الشعبي • فالغناء ، على ما يذهب اليه معظم الباحثين ، اصل الشعر في جميع الاداب العالمية • ولعل مما يؤيد ذلك بالنسبة الى اللغات السامية ان كلمة « شعر » المستعملة فيها بما يطابق اللفظ العربي تقريبا ، تعني في اصل ما وضعت له الغناء والانشاد مثل « شيرو » البابلية و « شير » « العبرانية » و « شور » الارامية ، وكلها فقدت حرف العين • ومن ذلك المصطلح العبراني « شير هشريم » (نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان في التوراة) • ومن قبيل هذا ايضا ما جاء في المآثر العربية عن اصل الوزن اي العروض في الشعر العربي انه من الغناء وحداء الابل ، والمصطلح الادبي المألوف في رواية الشعر : « وانشد فلان » • هذا ولا يعلم بوجه التأكيد علاقة الكلمة البابلية « شيرو » بالكلمة السومرية التي مرت بنا آى « سر » (SIR) او « شر » التي تعني الغناء ، وقد سبق ان ذكرنا ان جملة قصائد شعرية سومرية قد صدرت بها وهي من نوع الاغـــاني والترانيم • فهل هي اصل الـــكلمة البابلية « شيرو » والكلمات المضاهية لها في اللغات السامية ومنها كلمــة « شعر » العربية او انها مأخوذة من الكلمة البابلية (السامية) التي هي الاصـــل ؟

بالدرجة الاولى على الشعر البابلي ، اي الشعر الذي نظمه شعراء العراق القديم باللغة البابلية (السامية) لان معرفتنا باللغة البابلية وشعرها اكمل واوفى من معرفتنا بالشعر السومري ، ذلك لان الباحثين المختصين ما زالوا غير متأكدين من لفظ الكثير من الكلمات السومرية على الرغم من معرفتنا بمعانيها ، ولذلك فلا يمكن الوقوف على أوزان الشعر السومري بحسب معرفتنا الراهنة • ويختلف الحال بالنسبة الى اللغة البابلية وشعرها بسبب ما نوهنا به سابقا من وشائج القربى القوية ما بين اللغة البابلية وبين لغات أخرى معروفة ومحكية في عصرنا الراهن ، وفي مقدمتها العربية والارامية والعبرانية • وسنقف على أوجه الشبه الكثيرة بين مبادىء الشعر البابلي والشعر العربي مثل الوزن وفن النظم والتأليف •

واذا تجاوزنا مناقشة ما هو الشعر وما هي أسسه ومقوماته ولاسيما في الاتجاهات الادبية الحديثة ، فاننا نسير في تحديد مفهوم الشعر في النصوص الأدبية التي جاءت الينا من حضارة وادي الرافدين على الاسس والمبادىء المأثورة (الكلاسيكية) المتبعة في دراسة الاداب العالمية وتصنيفها الى شعر ونثر أدبي ، ولاسيما الاسس الآتية :

١ ــ وجود الايقاع الخاص أي الوزن أو العروض

• (Meter. Rhythm)

٢ ــ اتباع نظام خاص في تأليف هذا الكلام الموزون من حيث تقسيمه الى وحدات صغيرة وضم هذه الوحدات في مجموعات اكبر منها كالبيت والبيتين والاربعة ابيات والقصيدة •

٣ ــ انتقاء مفردات لغوية خاصة بلاغية ، اي ما يسمى بالالفاظ الشعرية من حيث الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة الى مقاييس اللغة التي ينظم فيها الشعر • ويدخل في هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر •

٤ ـ الموضوع والمحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعابير مؤثرة في السامع او القارىء •

٥ ـ اما المبدأ الخامس وهو القافية (rhyme) **فلم يلتزم به في شعر** حضارة وادي الرافدين ، فكان هذا الشعر ، سواء كان سومريا أم بابليا ، موزونا ولكنه غير مقفى • والقافية ، على ما هو معروف ، ليست من الشروط الاساسية في الشعر ، فهناك انماط من الاشعار العالمية القديمة والحديثة لم تلتزم بالقافية ، مثل الشعر اليوناني والعبراني واللاتيني ، وما يسمى في الادب الانجليزي بالشعر المرسل (Blank verse) مثل الكثير من شعر شكسبير •

العروض في الشعر البابلي :

يعتمد الوزن ، اى العروض ، في الشعر البابلي ، مثل اشعار بعض الأمم الاخرى كالشعر العربي واليوناني واللاتيني وغيرها ، على مبدأ تجزئة الكلمات الى مقاطع (Syllables) التي تتناوب ما بـين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة ، اي بحسب مصطلحات العروض العربي « الاوتاد » و « الاسباب » ، التي أساسها الحركة والسكون(*) ، وفي بعض الاشعار الاخرى النبرات اي التشديد او التخفيف (accented unaccented) وبجمع عدة مقاطع يتألف ما يصطلح عليه في الشعر العربي « التفعيلات » أي ما يضاهي (foot) في الشعر الانجليزي • ثم بجمع عدة تفعيلات يتكون شطرا البيت • وعلى هذا الشكل جاء الينا الشعر البابلي مدونا على الواح

(*) يعرف العروضيون « السبب » بان قوامه حرفان ويقسمونه الى :
(أ) السبب الخفيف ، وهو من حرفين متحرك وساكن مثل « من » ، « عن » •
(ب) السبب الثقيل ، من حرفين متحركين مثل « بك » ، « لك » الخ •
اما الوتد فقوامه ثلاثة احرف ، ويقسم الى أ ـ وتد مفروق ، من حرف ساكن بين حرفين متحركين مثل « اين » ، « كيف » • ب ـ وتد مجموع ، من حرفين متحركين يليهما ساكن مثل « الى » ، « على » ، الخ •

الطين • وقد يترك الكتبة فواصل ما بين شطري البيت اي ما بين الصدر والعجز ، وما بين الوحدات الشعرية الاكبر في بعض الاحايين •

اما عدد بحور الشعر البابلي (١٢) ومضاهاة هذه البحور لاوزان الشعر العربي فانه موضوع بحث خاص وطريف وجدير بالدرس من جانب العروضيين العرب • ويكفي في هذه المقدمة التمهيدية ان نورد بعض الابيات من القصائد البابلية الشهيرة • وقد سبق ان بدأنا هذه المقدمة بثلاثة أبيات من قصيدة المحاورة ما بين السيد وعبده ، ونضيف الى ذلك نماذج أخرى نثبتها بلفظها البابلي بالحروف اللاتينية والعربية وترجمتها الى العربية :

١ ـ البيتان الاولان من قصيدة اسطورة الخليقة :

enûma elish la nabu shamamu
shaplish ammatum shûma la zakrat

وبالحروف العربية مع محاولة ارجاع الاصوات المفقودة من البابلية والمرادفة للعربية :

حِينَمَّا عيليشْ لا نَبُو شَمَامُو
شَاپليش أَمَتَّمْ شُومَا لا زَكْرَة

(١٢) عن اوزان الشعر البابلي ولا سيما في ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة راجع البحوث الآتية :

De Liage Böhl, "La metrique de l'Epopée babyloniene" in Rencontre Assyriologique Internationale, VII, (1958).

وعن الشعر السومري والبابلي بوجه عام :

Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete, (1956).

Hallow, "The Cultic Setting of Sumerian Poetry," in Rencontre Assyriologique ..., XVIII, (1969), 116 ff.

Hallow, "On the Antiquity of Sumerian Literature", in JAOS, (1963), 167 ff.

وترجمتها : « حينما في العلى لم ينبأ عن السماء (لم تُسمَّ باسم)
« وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم » .

٢ ـ ونأخذ مثالا آخر من ملحمة جلجامش ، وهي الابيات المتضمنة خطاب صاحبة الحانة الى جلجامش مبينة له عبث ما يسعى اليه من نيـــل الخلود :

Sâbitum ana shashum izakkara ana Gilgamesh
Gilgamesh êsh Tadâl
baltam sha Tasahhura la tutta
înûma ilani ibnu awilitam
matam ishkunu ana awilitim
baltam ina qâtishunu issabtu
atta Gilgamesh lû mali' karashka
urri û mushi hiddadu atta

ونأدية اصواتها بالحروف العربية :

سَابِتُم أنَا شَاشُم ازكَّرا . أنا جلجامش
جلجامش ايشْ تَدَال
بَلْطَمْ شَا تَسَحُّورا لا تُتَّا
حِنُمَّا ايلاني ابْنُو أويليتَمْ
ماتَم اشْكُونُو أنا أويليتِمْ
بَلْطَمْ انا قاتيشونو اصبطو
أتَّا جلجامش لُو مَلِئِيْ كَرَشْكا
اورّي و موشي خِدَّادو أتَّا

وترجمتها :

(*) ملاحظة : النقطة تحت حرف T اى T لتأديـة صوت الطاء والقوس المعقوف تحت حرف H اى H لتأدية صوت الخاء . والنقطة تحت S اى S لتأدية صوت الصاد والضاد والظاء .

قالت الـ « سابيتم »(*) (صاحبة الحانة) لجلجامش :

يا جلجامش اي شيء تسعى اليه ؟
الحياة التي تنشد لن تجدها
حينما خلقت الآلهة البشرية
قدرت الموت على البشرية
وضبطت الحياة بايديها
وانت يا جلجامش ليكن كرشك مملوءا
وافرح ليل نهار

٣ – ونورد نموذجا ثالثا من خطاب جلجامش الى الصياد حين أمره ان ينطلق الى « انكيدو » ويصطحب معه بغيا لاغرائه واستدراجه من البادية الى مدينة الوركاء حيث يحكم جلجامش :

alik sayyadi itti-ka harimtum shamhat urûma
ênûma bûlam ishaqû ana mashqê.
shî lishhut lubushi-shama lipta quzubsha
immarshima itihha ana shashi
inakkirshu bûlshu shâ irbû êli sêrishu

وفي الحروف العربية :

اِلِكْ صيَّادي اتِّيكا خارِمْتُمْ شَمخة أوروما
حينُما بُولَمْ اشاقو أنا مشقى
شي لِشْخُطْ لبو شيشاما لِفْتَحْ قُضُبْشا
امَّار شيما اطيخَّا أنَا شاشي
انكرْشُو بُولشو شا ارْبُو علي صيرشو (صَحْرِيشُو)

(*) سابتم (سابيتو) بالبابلية بائعة الخمر ، من مادة « سبأ » ، و « سباء » في العربية بائع الخمر .

وترجمتها :

انطلق يا صيادي واصطحب معك بغيا مومسا
حينما يأتي ليسقي الحيوانات من المسقى (مورد الماء)
لتخلع لباسها وتكشف (تفتح) عن عورتها
فاذا ما رآها وقع عليها (طاح عليها)
وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت في صحرائه

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الشعر البابلي بذكر بعض الامور الاخرى الموضحة مما يتعلق باسلوب تأليف الشعر واجزائه . فبعد تأليف البيت الواحد بجمع عدة « تفعيلات » ، كما ذكرنا ، كان الناظمون يجمعون عدة أبيات لتأليف وحدات شعرية اكبر ، بعضها من بيتين (دوبيت (Couplet)) أو اربعة أبيات (الرباعيات quartet) وبعضها من اكثر من اربعة ابيات مثل الدور او الموشح (stanza) .

والغالب انهم كانوا يراعون في هذا التأليف والجمع وحدة المعنى ، مثل توضيح فكرة خاصة أو تكميلها أو توكيدها . فقد يكون معنى البيت الثاني في « الدوبيت » مكملا او موضحا لمعنى البيت الاول او رجعا وصدى لمعناه كما في البيتين التاليين من ملحمة جلجامش .

« صرخت عشتار كالمرأة في الولادة »
« انتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي »

وقد يكون من المفيد ان نورد هذين البيتين بلفظهما البابلي في الحروف اللاتينية والعربية :

Isishshi Ishtar kima aliddi
unamba bêlit ilani tabat rigma

وبالحروف العربية :

« اشتي عشتار كما آليدّي
أونمبا بعلة ايلاني طابت ركْمَا »

أو ان يكون البيت الثاني مغايرا أو مفارقا لمعنى البيت الاول تمهيدا لتدرج موضوع القصيدة العام ، والمثال على ذلك البيتان الاولان من اسطورة الخليقة اللذان استشهدنا بهما في شرح عروض الشعر البابلي اي :

« حينما في العُلى لم يُنْبَأ عن السماء
« وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم » .

وللمثال على وحدة المعنى في الابيات الاربعة اي الرباعيات ، تقتبس الرباعية التالية من اسطورة الخليقة ، وهي الابيات التي جاءت على لسان الاله « أبسو » ، زوج الالهة « تيامة » في تبرير عزمه على القضاء على ابنائه من جيل الآلهة الحديثة ، اذ يقول :

« لامرضتني اعمالهم (ثقلت اعمالهم علي)
« فلا استريح نهارا ولا استطيع النوم في المساء
« لاقضين عليهم واضع حدا لاعمالهم
« لكي يعم السكون فنستطيع النوم

ويلفظها البابلي بالحروف العربية :

« إمترِض ألكاُت ـ سونو عليا
أورّا لا شِبْشُوخَاك موُشي لا صَلاّك
لُشْخَالِق ـ ما ألكات ـ سونو لو شيّك
قولو لِشتّاكِن اى نِصْلاَلْ نِينْو (نحنُ)

وبالاضافة الى ما سبق ان اوجزناه من الخصائص الاساسية التي تميز الشعر البابلي كالعروض وطريقة التأليف والجمع والتعبير اللغوي الخاص ، فان هذا الشعر يشارك الاشعار العالمية الاخرى في الخاصية الاخيرة اي

اختيار الالفاظ الشعرية المعبرة • ولكل لغة ، على ما هو معروف ، مفرداتها والفاظها واستعمالاتها الشعرية المتعارف عليها بين ابناء تلك اللغة • وعلى ما هو معروف ايضا في الشعر العربي يتميز الكلام في الشعر في نمط تركيبه عن الاسلوب المتبع في النثر ، ومن ذلك التحرر قليلا او كثيرا من الالتزام بقواعد التركيب في لغة النثر والتحلل من الكثير من قيـوده ، كالتقديم والتأخير في اجزاء الكلام لاحداث الانطباع او التأثير الشعري الخاص ، ولضرورة الوزن ، وقد قيل « يجوز في الشعر ما لا يجوز في النثر » •

وهنا قد يتساءل القارىء كيف نستطيع ان نميز التراكيب والمفردات الشعرية في أدب العراق القديم وقد مضى على النتاج الادبي الذى جاء الينا من القوم قرون كثيرة من السنين تبعدنا عن تفهم اذواق ذلك العصر اللغوية الادبية ؟ ان هذا التساؤل يمكن ان يثار ايضا بالنسبة الى اشعار الكثير من الامم القديمة الاخرى ، والاجابة عليه بوجه الايجاز ان التعرف التام على لغة تلك الحضارة والالمام باسرار اساليبها اللغوية واتباع منهج المقارنة بـين الاساليب النثرية وبين الاساليب الشعرية فيها ، كل هـذا يمكن الباحث المختص ان يميز ما بين الاسـلوبين الشعري والاسلوب النثري الاعتيـادي المستخدم في النصوص الكتابية الاخرى مما جاء الينا من مدونات حضـارة وادي الرافدين •

ولعل اوضح مثال نختاره لتوضيح هذا الامر الاستشهاد بنصوص وثيقة تأريخية مشهورة في تاريخ العالم ، هي شريعة حمورابي (١٧٩٢ــ ١٧٥٠ ق•م)• والسبب في هذا الاختيار اننا نجد في الوثيقة نفسها الاسلوبين الشعرى والنثري وهما مستعملان فيها • فكما هو معروف تنقسـم هـذه الشريعة الى ثلاثة اقسام متميزة هى : (١) مقدمة الشريعة (Prologue) (٢) مواد الاحكام القانونية (٣) خاتمة الشريعة (Epilogue) • ففي القسـم الثاني ، أي القسم المخصص لمواد الاحكام ، نقف عـلى اسلوب الصياغة

النثرية ، من حيث الالتزام بمبادىء تأليف الكلام وفق قواعد اللغة الاكدية في عصرها البابلي القديم (الالف الثاني ق٠م) • ويجدر ان نذكر بهذه المناسبة ان العرف الجامعي جرى على تدريس مبادىء اللغة البابلية للمبتدئين بتدريسهم هذه الشريعة من الناحية اللغـوية حيث الانتظام والاطراد في التزام قواعد هذه اللغة • وبالمقابلة مع الاسلوب اللغوي الخاص بقسم مواد الاحكام من الشريعة نجد لغة القسمين الاخرين ، أي المقدمة والخاتمة ،

العـام والتعـابير الشعرية المؤثرة • وبعبارة أخرى دونت مقـدمة شريعة سواء كان ذلك في انتقاء الالفاظ الشعرية ، وبعضها الفاظ قديمة ، ام في فن التأليف والتركيب وتركيب الجمل من تقديم وتأخير ، ام من ناحية المعنى العام والتعابير الشـعرية المؤثرة • وبعبارة اخرى دونت مقـدمة شـريعة حمورابي وخاتمتها باسلوب النثر الادبي أو الشعري الذي لا يلتزم بالوزن والعروض ، كما لا يتقيد بما ذكرناه من اساليب النظم الشعرى من حيث الجمع في وحدات كالبيت والبيتين والاربعة أبيات •

وبالاضافة الى ما استشهدنا به من مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها بكونهما نثرا شعريا ، خلف لنا أدباء العراق القديم نصوصا أخرى في النثر الشعري أو النثر الادبي تفوق في روعة اسلوبها وتعبيراتها المؤثرة ووصفها التصويرى الكثير من القطع الشعرية الصرفة ، ومن قبيل هذه النصوص ما يسمى بالنصوص الملكية (Royal Inscriptions) ولاسيما حوليـات الملوك واخبار حملاتهم الحربية ، فقد حوى الكثير منها قطعا ادبية اجمع النقاد على أنها . كما بينا ، من أروع ما خلفته الآداب القديمـة في براعـة الوصف والتصوير ، مثل وصف الاماكن والمشـاهد الطبيعية كالجبال والغابات والاهوار والبوادي والصحارى ، والتصوير البارع لاحتدام القتال والمعارك واشتراك الآلهة في القتـال في بعض تلك المعارك على غرار ما نقرؤه في الملاحم البطولية في الادب اليوناني •

ولا يسعنا في هذه المقدمة الموجزة ايراد تراجم لبعض القطع الادبية في النصوص التي أشرنا اليها فنكتفي على سبيل الاستشهاد بذكر وصف احدى المعارك الواردة في كتابات الملك الآشوري « سنحاريب » (٧٠٤ – ٦٨١ ق.م) وهو وصف يفوق في روعته وبراعته شعر اسطورة الخليقة في وصف النزال ما بين الاله « مردوخ » والالهة « تيامة » . ونستشهد ايضا بالوصف المؤثر الوارد في اخبار ما يسمى بالحملة الثامنة للملك الآشوري سرجون (٧٢١ – ٧٠٥ ق.م) على بلاد ارمينية واذربيجان ، ووصف البوادي والصحارى ورهبتها وحيواناتها الغريبة الوارد في اخبار حملات الملك الآشوري « اسرحدون » (٦٨٠–٦٦٩ ق.م) على بعض القبائل العربية في بادية الشام[١٣] .

وقد اعتاد الملوك الآشوريون ان يصطحبوا في حملاتهم الحربية بالاضافة الى المهندسين وآلات الحرب والعربات الحربية الضخمة ، عددا من الكتاب لتسجيل سير المعارك . وان اولئك الكتاب الادباء المجهولة اسماؤهم هم الذين خلفوا لنا تلك القطع الادبية الرائعة في النثر الادبي أو الشعري . وقد صور بعض اولئك الكتاب ، في المنحوتات الآشورية المشهورة التي مثلت الحملات الحربية وانتصارات الجيوش الآشوريه .

---

(١٣) عن ترجمة نصوص الحوليات والحملات الحربية الآشورية راجع المصادر الاساسية التالية :

1. Pritchard (ed.), The Ancient Near Eastern Texts, (3rd. ed. 1969).
2. **Thureau-Dangin, Une relation de la huitieme Campagne de Sargon.**
3. Lukenbill, The Annals of Sennacherib.
4. ———, Ancient Records of Assyria and Babylonia.
5. C. Thompson, The Annals of Easarhaddon and Ashurbanipal.

هذا ولم يتفرد الكتبة الآشوريون في براعة وصف المعارك والقتال فان زملاءهم من الكتبة البابليين خلفوا لنا ايضا نماذج من النثر الشعري في تصوير زحف الجيوش وأهوال السير واحتدام المعارك ، نذكر على سبيل المثال الحملة الحربية التي دونها الملك البابلي « نبوخذنصر » الاول (١١٢٤-١١٠٣ ق.م) في غزوه بلاد عيلام . وقد دونت احداثها في ما يسمى احجار الحدود (كُدُرّو) (kudurru) [١٤]، وقد تضمن النص بالاضافة الى القطائع والامتيازات التي منحها هذا الملك الى أحد قواده المسمى « رتي – مردوخ » ، وصفا أدبيا ممتعا نقتبس منه العبارات التالية :

« من دير[*] مدينة الاله « آنو » المقدسة ، قفز مسافة ثلاثين « بيرو » (ساعة مضاعفة) ، وسار في الطريق في شهر تموز . لقد احترقت النصال وتوهجت كأنها النار . وتوهجت احجار الطريق كأنها الافران الحامية . جفت الآبار وترنح حتى الابطال الشباب . ورغم ذلك سار في الطريق قدما الملك المختار ، المصطفى والمسند من الآلهة . اجل ، حث الخطى نبوخذنصر الذي لا يضارعه احد ... الخ » .

(١٤) انظر :
King, Babylonian Boundary Stones, 1912, No. IV, p. 29.

(*) مدينة « دير » ، وتدعى ايضا « دور – ايلو » ، مدينة مشهورة في تاريخ العراق القديم ، تقع بقاياها الان بالقرب من بدرة على الحدود العراقية – الايرانية (الحدود البابلية – الغيلامية القديمة) . وتعرف خرائبها الان باسم « تلول العقر » ، في ضواحي بدرة .

الفصل الثاني

الموضوعات التي تناولها أدب العراق القديم
وأشهر نصوص هذا الأدب

سبق ان نوهنا بان أدب حضـــارة وادي الرافدين ، السومري والبابلي ، وبكلا نوعيه الشعر والنثر الادبي او الشعري ، قد تناول مواضيع عديدة كانت تشغل بال القوم في حياتهم العامة والخاصة مثل نظرتهـم الى الكون والحياة واصل الوجود والاشـيـاء ، والمجتمع الانساني ومشاكله وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية ، وحياتهم الروحية والعاطفية ، ومشكلة الموت وعالم ما بعد الموت والخلود وقضية الخير والشر وما يسمى بالعدل الالهـي (Theodicy) مع وجود الشر •• الى غير ذلك من الموضوعات التي لا تقتصر على انها خير ما يصور لنا حضارة وادي الرافـدين بجميـع اوجهها ومقوماتها وفي أدوار ازدهارها وحيويتها وركودها وأزماتها ، بل هي كذلك على قدر كبير من الاهمية في تأريخ تطور الانسان ، لانهـا كانت كما ذكرنا أولى واقدم محاولات من نوعها في تاريخ النوع الانساني عبرت عن الخبرات الانسانية الاولى من بعـد انتقال الانسان الى طور الحضارة والمدنية في وادي الرافدين ووادي النيل في مطلع الالف الثالث ق•م•

ولكن رغم ان هذا النتاج الادبي كان ، كما قلنا ، اقدم واولى محاولة في تاريخ الاداب العالمية ، فان مما يعجب له بل تبعث الدهشة في القـارىء الحديث ان يجد هذا الادب قد انتج قطعا ادبية تتسم بالصفات المميزة للادب الاصيل المبدع مهما كانت المعايير التي تقاس بها • وسيقف القارىء بنفسه على هذه الميزات من النصوص الادبية التي سنعددها ونوجزها • ولكن قبل ان نبدأ بهذا الوصف والايجاز ولكي يدرك القارىء المدى الواسع الذى تناولته تلك الموضوعات نصنفها بحسب الابواب الرئيسة الاتية :

١ ــ **الخليقة واصل الوجود والاشـيـاء** : ويأتي في مقدمة هذا الموضوع أصل الالهة والاشياء وخلق الانسان واصل العمران • ويدخل معظم هذه الموضوعات في علم الاساطير (Mythology) تحت المصطلحين :

أ ـ أصل الكون والوجود (Cosmogony) :

ب ـ اصل الالهة (Theogony) •

٢ ـ الملاحم وأعمال الابطال والآلهة واشباه الآلهة ، أي ما يصطلح عليه « أدب البطولة والملاحم » (Epic) •

٣ ـ قصص الطوفان (Flood. Deluge) •

٤ ـ اساطير ما بعد الموت او عالم الارواح والعالم الاسفل (Nether World. Eschatology)

٥ ـ أدب الحكمة (Wisdom Literature) • ويدخل في هذا الباب الحكم والوصايا والامثال وموضوع الخير والشر والعدل الالهي(Theodicy)

٦ ـ أدب المفاخرة والمناظرة (Disputation) ، والحوار (Dialogue) •

٧ ـ أدب السخرية والفكاهة (Satire) ، وقصص الحيوان (Fables) •

٨ ـ أدب الرثاء (Lamentation) ، ولاسيما رثاء وندب تدمير المدن ومراكز العمران •

٩ ـ أدب الحب والغزل (Love Literature) •

١٠ ـ الصلوات والتراتيل والابتهالات والترانيم والادعية الخ (Prayers. Hymns. etc.) •

١١ ـ بعض الرقى والتعاويذ (Incantation) •

اساطير الخليقة وأصل الأشياء

١ ـ اسطورة الخليقة البابلية :

جاءنا عن موضوع الخليقة واصل الوجود والاشياء وخلق الانسان نصوص ادبية متنوعة ومتعددة ، بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكدية ومن أدوار مختلفة في حضارة وادي الرافدين ، ولاسيما منذ مطلع الالف الثاني ق٠م ، من العهد الذى اطلقنا عليه اسم العصر البابلي القديم والذى نميز بما ظهر فيه من نشاط أدبي واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية الى البابلية(*) ٠ وكان موضوع الخليقة واصل الاشياء على رأس القضايا التي شغلت تفكير القوم فعالجوها بالاسلوب « الاسطوري ـ الشعرى » (Methopoetic) ، ونشأ عن ذلك آراء وعقائد متعددة ومختلفة ٠

ومما يقال عن اساطير الخليقة المدونة باللغة السومرية انها قصيرة وكثير منها ناقص غير كامل ٠ ولكن البابليين (الساميين) الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين **وأخذوا الشيء** الكثير من التراث السومري خلفوا لنا اطول وأشهر قطعة أدبية عن هذا الموضوع ،

(*) عن خصائص هذا العصر الحضارية المهمة راجع ايجاز ذلك في كتابي « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية (١٩٧٣) ٠

سيرد ذكر المصادر الاساسية عن ترجمات هذه النصوص في اثناء كلامنا على النصوص المختلفة ، ويجدر ان نشير الى الترجمات العربية في مجلة « سومر » ، المجلد الخامس (١٩٤٩) ، والسادس (١٩٥٠) ، والسابع (١٩٥١) ٠

وهي الاسطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصة او اسطورة الخليقة البابلية ، وتعرف ايضا بعنوانها البابلي « حينما في العلى » ، وباللغة البابلية « اينما ايلش » او « حينما عيلش » (enûma-êlish) • وقد سماها بعض الباحثين « رقم الخليقة السبعة » (The Seven Tablets of Creation) لانها جاءت الينا مدونة بالشعر البابلي على سبعة الواح من الطين ، يحتوى كل لوح منها ما بين ١١٥ و١٧٠ سطرا او بيتا من الشعر ، ومجموع ابياتها زهاء ألف بيت • وقد عثر على معظم الواحها في مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » في نينوى ، كما وجدت اجزاء منها في مدينة « آشور » ، ووجد لها نسخ اخرى في المدن القديمة من بلاد بابل ، من العصر البابلي القديم والبابلي الحديث • ويرقى زمن آخر جمع وتدوين لها الى أواخر العصر البابلي القديم واوائل العصر الكشي ، لعله ما بين ١٤٠٠ و١٥٠٠ ق•م• وتستند الاسطورة البابلية الى اصول سومرية اقدم عهدا • اما موضوعها الاساسي فانه يدور على تمجيد الاله « مردوخ » ، آله بابل وتبرير تعاظم : أنه منذ أن صارت مدينة بابل عاصمة امبراطورية حمورابي الواسعة (١٧٩٢-١٧٥٠ ق•م) • وتجدر الاشارة هنا الى ان الآشوريين جعلوا الاله آشور في النسخ الآشورية للاسطورة بطل الملحمة بدلا من الاله « مردوخ » •

نظمت الاسطورة شعرا كما بينا ولكنها من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش ، بل ان بعض القطع من النثر الادبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير • وقد ضربنا مثلا لذلك بوصف بعض المعارك في اخبار الحملات الحربية الآشورية • ويرجح أن القصيدة كانت تتلى او ترتل بالحان خاصة ابان عيد رأس السنة البابلية « اكيتو » (Akitu) الذي كان يحتفل به في اوائل شهر نيسان ، كما يحتمل انها كلها او بعض مشاهدها كانت تمثل على هيئة مسرحية او « دراما » ،

ولاسما الاحداث التي تدور على تغلب الاله « مردوخ » على قوى الشر والعماء الممثلة بالآلهة العتيقة واحلال النظام في الكون ثم خلق الانسان ونشوء العمران •

وستتضح من الملخص الذى سنورده عنها اهميتها البالغة في تاريخ حضارة وادي الرافدين من حيث عقائد القوم في أصل الوجود والآلهة وخلق الانسان ، بالاضافة الى انها تصور جوانب مهمة عن احوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في أصل نظام الحكم والملوكية ، وأحوال البيئة الجغرافية • وفوق هذا فللاسطورة اوجه أخرى من الاهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة وأصل الاشياء في الحضارات القديمة الاخرى • فقد اجمع الباحثون على وجود اوجه شبه اساسية واقتباسات كثيرة منها في عقائد الامم الاخرى ولاسيما العبرانيين كما جاء في التوراة ، وهناك مواطن شبه لا يشك فيها في اساطير اليونان المتعلقة بأصل الاشياء والآلهة •

ملخص الاسطورة :

لما كان يتعذر ايراد ترجمة كاملة للاسطورة في هذه الدراسة التمهيدية العامة عن أدب العراق القديم ، ولاننا سنوالى تقديم دراسات أخرى تتضمن ترجمات كاملة لاشهر النصوص الادبية ، كما فعلنا في ملحمة جلجامش ، فاننا سنقتصر فيما يلي على ترجمة اجزاء مختارة وعرض الاجزاء الاخرى تلخيصا[1] :

---

(١) أول من ترجم بعض اجزائها الباحث القديم « جورج سمث » في عام ١٨٧٦م بعنوان : « رواية التكوين الكلدانية » :
G. Smith, The Chaldean Account of Genesis (1876)
واعقب ذلك ترجمة الباحث الالماني « بيتر ينسن » :
Peter Jensen, Die Kosmologie der Babylonier
ثم تعاقبت الدراسات والترجمات الاخرى نذكر من اشهرها :
Delitszch, Das Babylonische Weltschöfungs Epos (1869)

« حينما في العُلى لم ينبأ عن السماء (لم تُسمَّ باسم)
« وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم
« وحين كانت مياه « أبسو » ، الموجود الاول ، والدهم
« والام « تيامة » ، والدة جميعهم ، واحدة مختلطة
« ولم يكن قد وجد اى مرعى ولا يرى اى شيء حتى هور قصب
« حينما لم يظهر الى الوجود أي من الآلهة
« ولم تذكر اسماؤهم ، ولا خصصت وظائفهم واقدارهم
« ثم وجد الآلهة في وسطهما (وسط أبسو وتيامة)(*) :
« جاء الى الوجود « لخمو » و « لخامو » ، ودعيا باسميهما
« وقبل ان يبلغا أشدهما ويطولا قامة
« جاء الى الوجود « انشار » و « كيشار » ، وفاقاهما بسطة في الجسم
« ثم تعاقبت السنون وتلتها الايام

= ثم ترجمة انجليزية مع الفاظها البابلية ونصوصها المسمارية المنشورة
في : CT, XIII, (1901)

L. W. King, The Seven Tablets of Creation, (1902).
S. Langdon, The Babylonian Epic of Creation, (1923).
Deimel, Enûma Elish, (1936).
Labat, La Poem Babylonienne de la Creation, (1936)
A. Heidel, The Babylonian Genesis, (1942, 1951).
Speiser, in Ancient Near Eastern Texts, (1950, 1955, 1969).
والى العربية في مجلة « سومر » (١٩٥٠) .

(*) اعتقد العراقيون في « أبسو » انه كان الها وفي الوقت نفسه « المياه الاولى » ومياه العمق ، ولذلك سمي معبد الاله « ايا » بيت العمق او « اى ـ أبسو » .

« فجاء الى الوجود « آنو » بكرهم ووريثهم ومنافسهم
« أجل صار « آنو » بكر « أنشار » ، يضارع اباه
« ثم ولد « آنو » « نودِمُد » (ايا) ، شبيهه
« صار « نودِمُد » سيد آبائه
« كان واسع الفهم ، شديد الحول والقوة
« أجل ، اصبح أشد حولاً من جده « أنشار »
« ولم يكن له مثيل بين اخوته الآلهة
« كان الاخوة الأقداس يتجمعون معا
« ويقلقون « تيامة » ، ويهاجمون حاميهم « أبسو »
« اجل ، صاروا يعكرون بطن « تيامة » ، وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس
« لم يستطع « أبسو » ان يقلل من ضجيجهم وصخبهم
« اما « تيامة » فانها سكتت ولم تضع حدا لصنيعهم
« مع ان اعمالهم كانت مؤلمة ، وصنيعهم شائنا
« وعندئذ استدعى « أبسو » ، ابو الالهة ، وزيره « ممو » وقال له :
« يا « ممو » ، يا وزيرى المطيب كبدي ، هلم نذهب الى « تيامة »
« فذهبا الى « تيامة » ، وقعدا قدامها ، وتشاوروا في أمر أبنائهما الآلهة
« فتح « أبسو » فاه وقال « لتيامة » بصوت عال :
« لقد امرضتني (ثقلت علي) أعمالهم
« فلا استطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء
« لافضين عليهم واضع حدا لاعمالهم
« لكي يعم السكون فنستطيع النوم »
« ولما ان سمعت « تيامة » ذلك غضبت وصرخت بزوجها :
« أدركت في قلبها ما يبيت « أبسو » من شر وخاطبته :

« علام ندمر ما اوجدنا بانفسنا
« حقا ان سنيعهم يسبب الالم والمرض
« ولكن لنصبر على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر »(*) ٠

بيد ان « ابسو » ، وقد سانده وزيره « ممو » ، لم ينثن عن عزمه في القضاء على أبنائه من جيل الآلهة الحديثة ٠ ولما علم هؤلاء بما يبيته لهم أبوهم من شر ودمار ، اضطربوا وجزعوا ، وصاروا يتحركون على غير هدى ، ثم هدأوا أخيرا واستكانوا وجلسوا صامتين يائسين لا يدرون ما يفعلون للنجاة من الهلاك المحدق بهم ٠ واخيرا انبرى من بينهم الاله « ايا » ، المتبحر في المعرفة والحكمة ، فخط دائرة سحرية حول اخوته الالهة ليحميهم من الهجوم والفتك ٠ وألف تعويذة سحرية قوية التأثير تلاها على « أبسو » فحل به سبات عميق وشل عن الحركة ، فانتزع منه « ايا » تاج الالوهية وجلالها ومجدها ، ثم قتله وسجن وزيره « ممو » وابتنى في ال « أبسو » بيتا له وسكن فيه هو وزوجه « دام ـ كِنّا » ، وفي حجرة « الاقدار والمصائر » ولد ابنهما « مردوخ » وربي على الرضاعة من اثداء الآلهات ٠ وسرعان ما شب واكتسب « جـلال » الالوهية المخيف الصاعق ، وصار ثاقب النظر براق العينين حديدهما ، هـائل الاعضاء والجوارح ، لا يمكن النظر اليه ويعسر على البشر ادراكه ٠ له اربع عيون واربع اذان ، وحين تتحرك شفتاه ينبعث منهما اللهب ٠ واستطالت آذانه واتسعت عيونه الاربع ، فصار يرى كل شيء ٠ اكتسى بنور الالوهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب » ٠

اما تيامة فانها لم تنس مقتل زوجها « أبسو » ، وحرضها على الثأر له الآلهة العتيقة ، يتزعمهم « كنكو » ، واستجابت تيامة للتحريض وعبأت

(*) تنتهي هنا الترجمة سطرا بسطر ، ويبدأ من بعد هذا السطر التلخيص والايجاز ٠

جموعها ، وأعلت من منزلة « كنگو » ، وجعلته زوجها وولدت مخلوقات مخيفة من الافاعي والتنانين الهائلة ، وعهدت الى « كنگو » قيادة جموعها وزودته بالواح المصائر والاقدار • ولم يفطن الآلهة الحديثة الى ما بيتته لهم امهم تيامة من شر وهلاك الا حين اوشكت على الهجوم • ولما أدرك الآله « ايا » الهلاك المحدق باخوته من جيل الآلهة الحديثة تملكه اليأس والرعب ، ولما ان زال اضطرابه قصد جده « أنشار » وابلغه ما عزمت عليه « تيامة » ، فحرض « أنشار » حفيده « ايا » على ان يتصدى لقتالها ، ولكن البطل « ايا » الذي قضى على « أبسو » ، جبن واحجم عن التقدم • ثم طلب « أنشار » الى الآله « آنو » ان يكون رسول مصالحة وسلام الى « تيامة » ، فذهب اليها وعرض عليها الصلح ، ولكن لم تنجح محاولته السلمية فرجع خائفا مضطربا • وعندئذ عم الخوف والوجوم جميع الآلهة ، وعقد الصمت لسان « أنشار » وجلس معه الآلهة وهم خائفون صامتون •

وبينما كان الآلهة في هذه الأزمة العصيبة عنت لانشار فكرة سعيدة ، اذ تذكر ما يتصف به احد احفاده ، وهو « مردوخ » من مهارة وبسالة ، فاستدعى « ايا » ابنه « مردوخ » واعلمه بعزم الالهة على ان يعهدوا اليه بمنازلة « تيامة » ، فقبل « مردوخ » الاضطلاع بهذا العمل الجسيم ، ولكنه طلب جزاء ذلك ان يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة ، فوافق على ذلك ابو الآلهة « أنشار » ، ولكن لما كان منح « مردوخ » تلك السلطة خارج صلاحياته الالهية ، اقتضى الامر دعوة الآلهة الى عقد « مجلس الشورى » ، ولما انتظم عقدهم قبل احدهم الآخر ، وقبل ان يتشاوروا في الامر جلسوا الى وليمة عامرة ، أكلوا فيها وشربوا ، فذهب عنهم خوفهم وانشرحت صدورهم بتأثير ما احتسوه من خمر جيد • وبعد ان فرغوا من الوليمة اقاموا منصة لمردوخ ، فجلس عليها هذا الآله الشاب قدام آبائه واجداده ليتسلم منهم السلطة ، فقد انعقد اجماعهم على نقل

سلطاتهم وزعامتهم اليه ، وفوضوه تقدير المصائر والاقدار ، واعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان « آنو » ، وصارت ارادته لا ترد ولا تبـــدل ، وتوجوه ملكا عليهم وعلى جميع الكون • ولكي يطمـــأن الآلهة من ان « مردوخ » حصل على هذه السلطة المطلقة وضعوا في وسطهم رداء ، ولما ان فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء ، وبكلمة أخرى نطق بها عـــاد الرداء(*) • ولما ان تحقق الآلهة من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا له قائلين : « حقا ان مردوخ ملك ! » ، وقدموا له الخضـــوع والولاء بصفتـه ملكهـم وقلدوه شـارات « الملوكية » وهـي الصولجان والتـــاج والجلباب ، وقلدوه السلاح الذي لا يقهر ، وحرضوه على قتال « تيامة » ، فأخذ الاهبة للنزال الرهيب وصنع لذلك قوسا وسهما وكنانة ، وامسك هراوة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق أمامه ، واحاط جسـمه بنــور وهاج ، وهيأ شبكة فحملتها له الرياح الاربعـة ، واهاج عواصف الامطار وركب مركبته « العاصفة الرهيبة » التي تجرها اربعـــة مخلوقات مخيفة هي : « المدمر » و « القاسي » و « المحطم » و « الطائر » وكان يلبس درعا من الزرد • ولما ان اقترب من جموع « تيـامة » بقيادة « كنگو » صعقت من جلال الوهيته المرعب واسلحته الفتاكة فهربت ، ولكن « تيامة » ثبتت امامه واخذت تقذفه بالسباب والشتائم • ولما ان تقدمت لمبارزته نشر شبكته فاصطادها بها ، ولما فتحت فاها لابتلاعه ساق في فمها الريح الشريرة

(*) من الباحثين من يرى ان وضع الرداء كان امتحانا للقوة السحرية التي اكتسبها مردوخ ، ولكن هنـاك اعتبارات فنية ادبيـــة بالاضافة الى الناحية السحرية ، فقد ادخل ناظم القصيدة نوعا من الصناعة اللفظيـة ولاسيما الجناس اللفظي المشتمل عليه اسم « مردوخ » الذي يكتب بمقطعين من العلامات المسمارية ، يعني المقطع الاول وهو « مـــار » او « أمار » بالاضافة الى « ابن » ، وضع ، خلق ، ، الفنى • ويعنى المقطـــع الثاني « دوكك » ، رداء او لباس ، او لبس رداء •

فمنعها من اطباق شفتيها ، وسلط عليها الرياح فانتفخ جسمها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاغر فأصاب قلبها(٢) ، وقضى عليها ووقف على جثتها منتصرا • ولما ان رأى بقية اتباعها من الآلهة نتيجةالنزال هموا بالهرب ولكن « مردوخ » لم يدع أحدا منهم يفلت حيث أسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها « كنگو » « لوح الاقدار» وختمه بختمه وعلقه في صدره ، ثم رجع الى جثة « تيامة » ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع أوردة دمها وجعل الريح الشمالية تحمل دمها الى الجهات الجنوبية النائية ، ثم شطر جثتها الضخمة شطرين خلق منهما الكون ، اذ جعل من نصفها الاعلى السماء ومن نصفها الاسفل خلق الارض ، وعين للالهة العظام وعلى رأسهم « آنو » و « انليل » و « ايا » الاجزاء التي يحكمونها من الكون •

ولما ا ن تم ذلك لمردوخ ارتأى ان يوجد مخلوقا سمي بالانسان « من أجل أن يخدم الآلهة » ، وأعلن عن عزمه الى ابيه « ايا » فحبذ له ذلك واشار عليه ان يضحى احد الالهة لذلك الغرض • فقرر الالهة في مجمعهم ان يكون الاله المضحى « كنگو » لانه هو الذي حرض « تيامة » على محاربة الآلهة ، فامسك به « مردوخ » وجاء به الى « ايا » فذبحه وخلق من دمه الانسان(*) وفرض « ايا » على هذا الانسان خدمة الآلهة ليريحها من العناء والتعب ، وقسم مردوخ من بعد ذلك مجموعة الآلهة المائة الى مجموعتين ، مجموعة للسماء وأخرى للارض • وعرفانا بفضل مردوخ وبطولته في انقاذ الآلهة من

(٢) حول اوجه الشبه ما بين قتال مردوخ لتيامة وبين ما ورد في التوراة (سفر حبقوق ، الاصحاح الثالث) انظر البحث الاتي :
W. A. Irwin, "The Mythological Background of Habakkuk chap. 3" in Journal of Near Eastern Studies, XV, (1956), 47 ff.

(*) في اساطير أخرى عن خلق الانسان في حضارة وادي الرافدين ان ذلك تم من « الطين ومن دم احد الالهة » لكي تدب في الطين الحياة ، وسيأتي الكلام على مثل هذه الاساطير •

الهلاك ، عمل آلهة « الانوناكي » طوال عام واحد في تشييد بيت يليــق بمقامه ، فاقاموا معبده العظيم « اى ــ ساكلا » مع برجه في مدينة بابل بعد ان أسسوها • وخصصوا في هذا المعبد مزارات لانليل وايا • وبعد ان تم ذلك اجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعـة ورتل الآلهة بمديح « مردوخ » وتمجيده ، وتنــازلوا له عن اسـمائهم وصفاتهم ، فصار له « خمسون اسما » • وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا انه كان يرتل تمجيدا لمردوخ في عيد رأس السنة •

ويجدر ان نذكر في ختام هذا الملخص لاسطورة الخليقة البابليـة ان روايتين موجزتين وردت عنها في الكتابات اليونانية ، احداهما للفيلسوف « السوري ــ اليوناني » الملقب بالدمشـقي (Damacius) (المولود في دمشق في حـــدود ٤٨٠م) وكان آخر فلاســفة الافلاطــونية الحــديثة (Neo-Platonism) • وان روايتـــه خلاصة موجزة للاسطورة البابلية وقد عنونها « مشاكل المبادىء او العناصر الاولى وحلهــا »(*) • والرواية الاخرى للمؤرخ البابلي « بيروسس » (Berossus) ، كاهــن الاله « مردوخ » في بابل الذي دون تأريخا لبلاد بابل باليونانية في حدود ٢٧٥ ق٠م (في العهد السلوقي) ، وقد ضاع مؤلفه ولكن مقتبسات مهمة منه وردت في كتابات بعض الكتاب الكلاسيكيين (اليونان والرومان) ، ومنها موجز لاسطورة الخليقة البــابلية وردت في كتابات الراهب اليوناني في القسطنطينية « سنكيلوس » (Syncellus) او Synkelos (من اهــل القرن الثامن الميلادي) ، وقـد اقتبسها بدوره من كتاب يونان سابقين لاسيما من كتاب تأريخ الكنيسة للمؤرخ « يوسيبيوس » (Eusebius) (من اهــل قيصرية ، ما بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين) ، وقد اقتبسها هذا عن المؤرخ « الاسكندر بوليهستر » (Alexander Polyhistor) (القرن الاخير

(*) Difficulties and Solution of First Principles.

ق٠م)[٣] ٠

بعض الملاحظات والاستنتاجات :

نترك الى القارىء ما قد يستنتجه من آراء عن اسطورة الخليقة البابلية التي لخصناها ، فهناك مجالات للوصول الى آراء مختلفة تنطوى عليها هذه الاسطورة وما قد يطبقونه من نظريات وتفسيرات تختلف باختلاف المدارس المتنوعة في تفسير الاساطير مما لا يتسع المجال لايرادها ، فنكتفي بالملاحظات التالية :

١ – يوجد تشابه وتناظر واضحان ما بين الاسطورة وبين رواية التوراة عن الخلق والتكوين (سفر التكوين ، الاصحاح الاول : ١–٢ ، والاصحاح الثالث) ، فكلا المصدرين يشير الى ان الكون لم يكن فيه في البدء شيء سوى العماء (Chaos) المؤلف من « المياه الاولى » ٠ وتتشابه الكلمتان المستعملتان لهذه « المياه الاولى » في كلا المصدرين : في الاسطورة البابلية « تيامة » (ومنها تهامة) و « تيهوم » في التوراة ٠ وكانت المادة الاولى (المياه الاولى) في الاسطورة البابلية مؤلفة من عنصرين : (١) الماء العذب ، « أبسو » ، وهو العنصر المذكر (٢) والماء المالح ، « تيامه » ، العنصر المؤنث ٠ وقد جسم العراقيون القدماء هذين العنصرين وجعلوهما الهاً (أبسو) والهة (تيامة) ٠ وكما ان الاله مردوخ خلق من جسم « تيامة » (اى مياه البحر الاولى) السماء من نصفه الاعلى والارض من النصف الاسفل ، كذلك خلق الله في رواية التوراة السماء بفصل المياه الاولى ٠ وبحسب الاسطورة البابلية تكون المادة الاولى عند العراقيين القدماء ذات طبيعة ثنائية ، اذ كانت مادة وآلها في الوقت نفسه ، اى ان المادة ازلية وجدت منذ البدء ولم تخلق ٠ وهنا نجد اختلافا جوهريا ما بين العقيدة

---

(٣) انظر :

A. Heidel, The Babylonian Genesis, (1942), 75 ff.

البابلية وبين عقائد الاديان السماوية ، ولا سيما ما جاء في التوراة والقرآن ، حيث وجود الخالق أزلي سبق وجوده المادة وهو الذى اوجد المادة .

٢ - في وسعنا ان نستشف من وراء الغلاف الاسطورى لرواية الخلق البابلية احوال العراق القديم الجغرافية في بداية ظهور اولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها . فالمياه الاولى والصراع والاحتراب ما بين جيل الآلهة الحديثة بزعامة « مردوخ » وبين جيل الآلهــة العتيقة الممثلة بابوي الآلهــة الاولين ، « أبســو » و « تيامة » (اللذين تلذا انهما المياه الاولى) ، وتغلب مردوخ عليهما ثم احلال النظـام في الكون بدلا من « العماء » ، وخلق الكون والانسان واقامة العمران - كل هذا وغيره يصور لنا صراع العراقيين الاوائل مـــع بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها وبناء الحضارة . فان السهول الرسوبية التي نشات فيها اول الحضارات اذ لم تكن مغمورة بمياه البحر ، بحسب النظرية القديمة ، والا فبمياه الاهوار والاحراش الناجمة عن فيضانات الانهار ، ثم استطاع الانسان بمرور الازمان ان يسيطر على تلك الاحوال الطبيعية العنيفة بما اقامه من سدود ونظام للري .

٣ - وعلى ضوء المبدأ السائد في العقائد الدينية عند العراقيين القدماء من ان مجتمع الآلهة صورة للمجتمع البشري حسب المبــدأ المعروف بالتشـــبيه (Anthropomorphism) في عزو صفات البشر المادية والروحية الى الآلهة ، يستطيع القارىء ان يصل الى استنتاجات مهمة اخرى ، منها ان هذه الاسطورة تصور لنا ايضا بالاسلوب الاسطوري الاحوال السياسية والاجتماعية في العراق القديم في أولى مراحل تكوينه الحضارى ، حيث كان نوع من اسلوب الحكم يصح أن نطلق عليه مصطلح « الديمقراطيــة البدائية » ، اذ تصور الاسطورة الكون على هيئة دولة يحكم فيها الآلهــة حكما شـــوريا كانت القـرارات فيه تتخذ في مجالس شورى بطـــريق

الافتراع ، كما حدث في تنصيب « مردوخ » ملكا على الآلهة عن طريق انتخاب الآلهة له • ولعل هذا اصل الحكم ونظام الملوكية • ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الالهات ، مثل عشتار ، كن يصوتن في مجالس شورى الآلهة • ومن الاستنتاجات المهمة ان نظام الحكم لم يكن من أصل النظام الكوني بل ظهر بصورة طارئة ابان تلك الازمة التي حلت بمجمع الآلهة ، وهي الحرب بين الآلهة الحديثة وبين الآلهة العتيقة ، وضرورة نشوء قيادة في تلك الحرب •

وثمة أمر آخر مهم نستنتجه من الاسطورة ، ذلك هو العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين ، وما هذا الا صورة عن العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها حضارة وادي الرافدين • على ان المتتبع لاساطير الخليقة في حضارة وادي النيل يقف على عكس هذه الصورة حيث تمت عملية الخلق بسلام وهدوء •

٤ ــ هذا ولا يسعنا الاسترسال في ذكر التفسيرات الاخرى المحتملة التي ارتآها الباحثون المختلفون ، فنكتفي في ختام هذه الملاحظات بالتنويه بان احد هذه التفاسير يستند الى المذهب « الفرويدى » في التحليل النفسي بتعليل النزاع والاقتتال ما بين جيل الابناء وجيل الآباء من الآلهة بالعقدة التي يطلق عليها « فرويد » عقدة « أوديب » • ومع اننا لسنا من المتحمسين لهذا التفسير الا ان موضوع قضاء الآلهة الابناء على آبائهم يتكرر وروده في أساطير كثير من الحضارات القديمة ، ففي الحضارة اليونانية مثلا قضى الاله « كرونوس » (Cronus) على ابيه « أورانوس » (Uranus) وتغلب « زوس » على أبيه « كرونوس » ، على ما هو معروف في الاساطير اليونانية •

٢ ــ أساطير اخرى قصيرة عن الخليقة وأصل الاشياء :

بعد ان اوجزنا اسطورة الخليقة البابلية التي تعد اطول رواية عن عقائد القوم في الخلق واصل الاشياء بالمقارنة مع اساطير الخليقة الاخرى

التي جاءتنا من العراق القديم سواء كانت باللغة البابلية أم اللغة السومرية ، ندرج فيما يلي أشهر هذه الروايات ، مقتصرين في ذلك على ايجازها والتنويه بفكرتها الاساسية والبحوث التي تمت عنها :

أ ـ تعويذة خاصة بوجع الاسنان :

من النصوص الادبية القصيرة التي تتضمن طرفا من عقائدهم في اصل الانسياء تعويذة خاصة بعلاج وجع الاسنان ترجع في تاريخها الى العصر البابلي الحديث ما بين القرن السابع والسادس ق٠م(٤) ٠ وقد جاء فيها : « من بعد أن خلق الاله « آنو » السماء خلقت السماء الارض ، وخلقت الارض الانهار ، وخلقت الانهار الجداول والقنوات وخلقت الجداول الاهوار ، وخلقت الاهوار الدودة ٠ وذهبت الدودة الى الاله « شمش » و « ايا » وبكت وذرفت الدموع وقالت : « ماذا تعطيني لطعامي ؟ وما تعطيني لامتصه ؟ فاجابها ايا : ساعطيك التين الناضج والمشمش ٠ فقالت : « وما جدوى التين الناضج والمشمش لي ؟ ضعني في الاسنان ، واجعل مسكني في اللثة ، لكي امتص دم الاسنان واقرض اللثة وآكل جذورها » ٠

ويعقب ذلك توجيه التعويذة على الدودة : لانك قلت هكذا يا دودة فليحطمنك الاله ايا ٠

---

(٤) انظر ترجمتها :

Speiser, in Ancient Near Eastern Texts, (1955), 100.

ونصها المسماري في مجموعة النصوص المسمارية في المتحف البريطاني

(CT. XVII, 1902, pl. 50).

ووجدت نسخة منها في بقايا مدينة « مارى » (تل الحريري عند الحدود السورية العراقية) ، انظر :

Thureau-Dangin, in Revue d'Assyriologie, XXV, (1939), 3-4.

ب ـ تعويذة للولادة ـ خلق الانسان :

وهناك تعويذة ثانية في اللغة البابلية خاصة بالولادة وهي تتضمن كذلك جوانب من آرائهم في خلق الانسان من جانب الالهة الخالقة المسماة « مامي » (Mami) ، وترقى في زمنها الى العصر البابلي القديم (الالف الثاني ق•م)[٥]• وقد اضطلعت هذه الالهة بخلق الانسان بطلب من الاله « انكي » (ايا) والآلهة الاخرى • وتم خلق الانسان بموجب هذه الاسطورة من الطين (التراب) بعد خلطه بدم اله من الآلهة ضحي لهذا الغرض[*] •

تبدأ الاسطورة بخطاب موجه الى الآلهة الخالقة « مامي » جاء فيه : « انت الرحم الاول الازلي • انت خالقة البشرية ، فاخلقي « للو » (الانسان) ليحمل النير • ففتحت « ننتو »[**] فاها وخاطبت الآلهة العظام قائلة : « الي يرجع صنع كل شيء لائق متقن • فليكن الانسان • ليكن من الطين ، ولتدب فيه الحياة بالدم » • فخاطب الاله « ايا » الآلهة العظام . ليضح أحد الآلهة ولتمزج الآلهة « ننخرساك » الطين بدمه ، فيمتزج الآلهة بالانسان » •

وفي رواية اخرى للاسطورة من العصر الاشوري الحديث (القرن السابع ق•م) ، ذكرت كيفية خلق الآلهة « مامي » للانسان بانها جمعت أربع عشرة قطعة من الطين ، وضعت سبعا منها الى اليمين وسبعا الى اليسار

---

(٥) انظر ترجمتها ونصها الاصلي في :
A. Heidel, The Babylonian Genesis, (1942, 1951), 66 ff.
Ancient Near Eastern Texts, (1969).

(*) في اسطورة الخليقة البابلية التي ذكرنا موجزها ، تم خلق الانسان من دم الاله « كنكو » ، زوج « تيامة » وقائد جموعها في الحرب مع الاله « مردوخ » •

(**) ننتو (Nintu) من اسماء الاله الخالقة « مامى » وكذلك « ننخرساك » • (Ninkhursag)

وفصلت ما بين المجموعتين بآجر « اللبن » ، فخلق من مجموعة الذكور ومن المجموعة الثانية الاناث وصاروا بشرا تدب فيهم الحياة •

جـ ـ خلق الاله « مردوخ » للعالم :

ومن الاساطير القصيرة التي تتعلق بالخليقة قطعة أدبية دونت باللغتين السومرية والبابلية اي انها مزدوجة اللغة (bilingual) يرجع تأريخها الى العصر البابلي الحديث (القرن السادس ق•م) ، وقد وجدها المنقب القديم « هرمز رسام » (١٨٨٣) في انقاض مدينة « سبار » (أبو حبه الان بالقرب من اليوسفية) • والمرجح ان هـذه الاسطورة مقدمة لتعويذة كانت تتلى في اثناء اقامة شعائر التطهير في معبد « اى ـ زيدا » (معبد الاله « نبو » في بورسبا ـ برس نمرود الان على بعد نحو ٢٢ كم جنوب بابل) ، وقد خصصت الاسطورة ، مثل اسطورة الخليقة المطولة التي مرت بنا ، لتمجيد الاله « مردوخ » وكيف انه صار ملكا على الآلهة[٦] ، وخلاصتها انه :

« في البدء لم يكن موجودا أي كائن ، فلا بيوت مقدسة للآلهة ، ولا احراش قصب واشجار ، ولم تصنع آجرة ولم يبن بيت ولم تشيد مدينة • فلم تكن « نفر » قد وجدت ولا معبد « اى ـ كور »[*] ، ولم تؤسس « اوروك » ولم يشيد « اى ـ أنا » ، ولم تقم « اريدو » ، ولا معبدها «اى ـ أبسو »• كانت الارض اليابسة بحرا • ثم شيدت « اريدو » ، واقيم معبد « اى ـ ساكلا » ، وشيدت بابل من جانب « لوكال دوكوكا » (مردوخ) • واقام

(٦) نصها المسماري منشور ضمن مجموعة النصوص المسمارية في المتحف البريطاني المدونة(CT., XIII, (1901), pls. 35-38)وترجمتها في :
King. The Seven Tablets of Creation, (1902), I, 30 ff.
A. Heidel, The Babylonian Genesis, 61 ff.

(*) « اى ـ كور » معبد الإله « انليل » في نفر و « اى ـ أنا » حارة المعابد المقدسة في الوركاء المخصصة لعبادة آنو وعشتار (انانا) ، و « اى ـ ساكلا » ، معبد الاله « مردوخ » في بابل •

الاله « مردوخ » قاعدة (ارضية) من القصب وصنع ترابا نثره على قاعدة القصب ، وخلق البشر لكي يريح الآلهة في معابدها ، وخلق الحيوانات وجميع الاحياء في البرية ، وخلق دجلة والفرات ودعـاهما باسميهما ، وأوجد الحشائش واحراش الاهوار وغابات الشجر ••• أقام مردوخ سدا في سيف البحر وحول الاهوار ارضا يابسة •

د ـ خلق الانسان :

من اساطير الخليقة التي تروى خلق الانسان قطعة أدبية مدونة باللغة البابلية في لوح وجد في مدينة « آشور » (قلعة الشرقاط) وتؤرخ في حدود ٨٠٠ ق•م[٧] ، وموجزها انه « حينما فصلت السماء عن الارض ، وخلقت الارض ، وعينت مصائر السماء والارض ، وحين حددت ضفاف دجلـة والفرات ، ووجهت الجداول والانهار في مجاريها الصحيحة ـ حينذاك اجتمع الآلهة العظام في المزار المقدس : آنو وانليل وشمش وايا وجميع آلهة الانوناكي ، ونظروا فيما سبق ان خلقوه وتساءلوا فيما بينهم قائلين : « والآن بعد أن قدرت مصائر السماء والارض وحـددت ضفاف دجـلة والفرات ومجارى الانهار والجداول فما عسانا ان نخلق غير ذلك ؟ فاجاب آلهة الانوناكي الاله انليل قائلين : في حارة « اوزوموا »[*] ، رباط السماء والارض ، لنذبح الهين من آلهة الـ « لمكا » (Lamga)[**] ونخلق من

---

(٧) وجد النص الذي يرجع عهده الى العصر البابلي القديم في مدينة « نفر » في اثناء التنقيبات الامريكية القديمة فيها ، اواخر القرن التاسع عشر • انظر :

S. H. Langdon, The Sumerian Epic of Paradise, The Flood and the Fall of Man, (1915).

S. N. Kramer, in ANET, (1955), 37 ff.

———, From the Tablets of Sumer

(*) « أوزوموآ » اسم الحارة المقدسة في مدينة « نفر » التي توصف بانها رباط او واسطة الاتصال ما بين الارض والسماء •

(**) آلهة الـ « لمكا » ، مجموعة من الآلهة الصغرى المخصصة للصناعات والحرف وقد ذكر اسما اول بشرين في الاسطورة بصفة « سيد الخير » و « سيدة الخير » •

دمهما البشر ولنفرض عليهم خدمة الآلهة في جميع الازمان ، وليعملوا في جداول الحدود وحرث الارض وزرعها واقامة بيوت الآلهة ، ويقيموا شعائرها واعيادها على الدوام ، وسيكون اسما اول بشرين ، اوليكرا (Ulligarra) و « زلكرا » (Zalagarra) وسيعملان على تكثير البقر والضأن والماشية والسمك والطير ... »

٥ ـ اسطورة « انكي » و « ننخرساك » ـ ارض دلمون :

ومن القطع الادبية التي يمكن تصنيف مادتها ضمن موضوع الخليقة واصل الاشياء اسطورة سومرية طريفة جاء نصها سالما تقريبا ولكن مغزى الاسطورة الحضاري غير واضح تماما ، على ان لها شبها واضحا باسطورة الفردوس والجنة الواردة في الفصلين الثاني والثالث من سفر التكوين :

تبدأ القصيدة في وصف أرض « دلمون »(*) وخيراتها وانها بلد الطهر والصفاء ورغد العيش ، ارض لا مرض ولا موت ولا شر فيها . لقد جعلها الاله « انكي » (ايا) ارضا غزيرة المياه العذبة ، كثيرة الخصب والخيرات ، ذات زرع وحقول وبساتين : « دلمون ارض طاهرة .. في دلمون لا ينعق الغراب ولا يصيح طائر الموت والخراب . لم يكن فيها الاسد المفترس ولا الذئب الذي يفترس الحمل ، ولا الكلب الوحشي الذي يأكل التيس ... ليس فيها ارملة ولا مرض ولا علة تصيب الراس والعين ، وليس فيها شيخ ولا عجوز ولا ندب ولا رثاء وعزاء ... » وبعد مواطن غامضة في نص الأسطورة نذكر ان الاله انكي جامع الالهة « ننخرساك » فحبلت منه ، وولدت بعد تسعة أيام الهة اسمها « ننمو » (Ninmu) ، فاتصل

(٨) نشر نصها المسماري في سلسلة النصوص المسمارية المكتشفة في آشور (١٩٠٤–١٩١٢) المرموز لها بـ KAR, No. 4 ونرجمتها في :
A. Heidel, Op. Cit., p. 68 ff.; ANET.

(*) حول الاحتمال القوي في تعيين « دلمون » بالبحرين انظر :
Cornwall, in BASOR, 103, (1946, 63 ff.

انكي بابنته هذه فولدت آلهة اسمها « نن ــ كورا » (Ninkurra) • ثم اتصل انكي بحفيدته وولدت بدورها الهة اسمها « اتو » (Uttu) • ولما اراد مضاجعتها ، منعته « ننخرساك » ان يفعل ذلك الا بعد ان قدم لها هدايا من الخيار والتفاح والعنب ، ولكن اتصاله بـ « أتو » لم يثمر نسلا ، فلجأت ننخرساك الى ان تأخذ « ماء » الاله واستطاعت بواسطته ، بطريقة لم تذكر ، ان تولد منه ثمانية انواع من النباتات والاشجار ، ولما ان شاهدها انكي أراد معرفة ماهيتها عن طريق أكلها فأمر رسوله ذا الوجهين « اسـيمود » (Isimud) ان يقتطعها ويأكلها ، وعندئذ غضبت ننخرساك ولعنت « انكي » واحلت به الامراض • فحزن الآلهة لمرضه وصاروا يبحثون عن علاج يشفيه • وهنا انبرى الثعلب وعرض على الاله المبل مسعاه في احضار ننخرساك الى مجمع الآلهة في دلمون لتشفي « انكي » من علله • ونجح الثعلب في وساطته ولما ان حضرت الاله شعرت بالاله « انكي » اساءته واخذته واجلسته على فرجها ! وصارت تسأله عن علله فذكر لها ثمانية أنواع من المرض خلقت ننخرساك لكل واحد منها الها خاصا لشفائه • ولما ان شفي انكي من مرضه عاد الى تبوأ مركزه السامي بين الآلهة ، وقرر مصير كل آله منهم ، وخصص لارض دلمون آلها خاصا بها اسمه « اينشاك » (Enshag) •

والطريف ذكره بصدد التعليق على هذه الاسطورة ما ارتآه مترجم الاسطورة الاستاذ « كرامر »[٩] في تفسيره لاسطورة خلق حواء من ضلع آدم بحسب رواية التوراة احتمال أن اصلها من اسطورة « دلمون » • فان احدى الآلهات التي خلقتها « ننخرساك » لشفاء امراض الآله « انكي » آلهة اسمها « نن ــ تي » (Nin-Ti) ، ويعني المقطع الاول من الاسم اي « نن » سيدة ، ومعنى المقطع الثاني اي « تي » اما حياة او « ضلع » ، فيكون

(٩) راجع :
S. N. Kramer, From the Tablets of Sumer,, (1956).
وقد ترجمت هذا الكتاب بعنوان « من الواح سومر » (١٩٥٨) •

معنى اسم الآلهة التي تم على يدها شفاء العلة التي اصابت ضلع « انكي » اما « سيدة الحياة » او « سيدة الضلع » ، ومعنى اسم حـواء في العبرانية « المحيية » اي التي « تحي » •

و ـ تقرير الاله « انكي » لنظام الكون :

خص الآله الشهير « انكي » (ايا) في حضـــارة وادي الرافدين بمنزلة رفيعة بين الآلهة العظام ، وافردوه بصفات مميزة منهـــا الحكمة والمعرفة وعطفه وحدبه على البشر والتزام جانب الانسان في كثير من المحن والشدائد التي احاقت به كما في كارثة الطوفان ، وانه هو الذي علم البشـــر فنون الحضارة ونشـــر عناصر العمران ، واضطلع بنصيب كبير في تدبيره لشؤون الكون وتنظيمه للمجتمع البشري وانه كان يحوز عـلى النواميس الآلهية التي تسير بموجبها العناصر المختلفة للعمران والحضارة • وقد اطلق السومريون على هـذه العناصـــر والنواميس مصطلح « مي » (ME) الـذي ترجمـــه البابليون بكلمة « برصو » او « برضو » (parsu) (التي تضاهي كلمة فرض العربية) وسنوجز الاسطورة الطريفة التـي تروي كيفية حصول الالهة « انانا » (عشتار) على هذه الفروض أوالنواميس من الاله « انكي » في أريدو ونقلها الى مدينتها الوركاء •

وجاءتنا قطعة أدبية باللغة السومرية تصف تنظيـــم الاله « انكي » للكون سماها الباحثون المختصون بعنوان : « انكي وتنظيم الكون »(١٠) ، وخلاصة الاسطورة ان الاله « انكي » قام برحلة في اقاليم الارض المعروفة آنذاك ابتداء ببلاد سومر ليسبغ عليها بركاته وينشـــر عناصـر العمران والحضارة فيها ، واضطلع من بعد ذلك بتنظيم احوال الارض وانهارها وبحارها ، فملأ نهرى دجلة والفرات بالمياه العذبة وبالاسماك ، واوجـــد

(١٠) راجع النص السومري وترجمته وشرحه في البحث الاتي :
Bernhardt and Kramer, Enki und Weltordung; ANET, (1969);
Th. Jacobsen, in Before Philosophy, 174 f.

احراش القصب والآجر وكثر الحيوانات • ومن اجل تنظيم شؤون المجتمع الانساني عين آلهة يتولى كل منها ناحية معينة من النشاط الحضاري • فمثلا خصص للاشراف على الانهار وشؤون الري آلها اسمه « انيلولو » والاله « اينكمدو » (Enkimdu) **للفلاحة والزراعة والالهة « أشنان »** (Ashnan) للخضار والغلال ، والاله « دموزي » (تموز) للماشية والرعي وغيرهم •

ز ـ نقل النواميس الالهية الى الوركاء :

سبق ان تطرقنا في كلامنا عن الاسطورة السابقة الى ما يسمى بالنواميس الالهية « مي » (ME) المختص بحيازتها الاله «انكي» • وخلف لنا أدباء العراق القديم قصيدة سومرية تروى حدثا اسطوريا طريفا يدور على تحايل الالهة الشهيرة « انانا » (عشتار) لحيازة تلك النواميس من الاله « انكي » ونقلها الى مدينتها « اوروك » (الوركاء) التي كانت مركزا عبادتها وعبادة الاله آنو منذ فجر الحضارة في وادي الرافدين •

موجز الاسطورة(١١) ان الالهة « انانا » شدت الرحال من مدينتها « اوروك » الى حيث يقيم الاله « انكي » (ايا) في مدينة « اريدو »(*) ، لكي تحصل منه على النواميس الالهية المارة الذكر وتنقلها الى الوركاء • ولما ان بلغ « انكي » نبأ مقدم « انانا » تهيأ لاستقبالها بما يليق بها من تكريم ، وكلف رسوله وتابعه المسمى « ايسومد » (Isimud) ان يرحب بمقدمها

(١١) راجع الترجمة والتعليق والاشارات الى الدراسات السابقة في :
Kramer, From the Tablets of Sumer, (1956).
———, The Sumerians, (1963)

(*) مدينة « اريدو » الشهيرة في تأريخ حضارة وادي الرافدين تسمى بقاياها الان « ابو شهرين » على بعد نحو ٢٥كم الى الجنوب الغربي من مدينة « أور » ، وسيرد في الاسطورة ذكر اتصال أريدو بالوركاء عن طريق النهر (الفرات) ، حيث كان النهر يمر من هاتين المدينتين ولكنه غير مجراه في العصور التأريخية المتأخرة •

ولما ان وصلت الالهة بقاربها الى اريدو اعد لها « انكي » مائدة عامرة حوت الاشربة الفاخرة والمآكل الشهية ، وجلس مع ضيفته الى المائدة وأخذا يتناولان الطعام والشراب ، وصارت « انانا » تكثر من تقديم الخمرة لمضيفها « انكي » حتى غلبه السكر وثمل وصار يبالغ في التودد الى « انانا » ولما ان طلبت منه ان يهديها النواميس الالهية قدمها اليها عن طيب خاطر • فأسرعت « انانا » قبل ان يستفيق « انكي » من خماره في الصباح الى العودة بقاربها المحمل بالنواميس الالهية الى مدينتها الوركاء • ولما ان زال اثر الخمرة من « انكي » ادرك فداحة تهوره فامر رسوله « ايسومد » ان يسرع في اللحاق بقاربها ويعيده اليه مع ما يحمله من النواميس الالهية ، ويترك « انانا » تسير ماشية الى مدينتها • فادرك رسول « انكي » القارب وامسك به ، واجتهدت الالهة ان تقنع هذا الرسول ان يدعها تستمر في رحلتها ولكنه لم يستجب لتوسلاتها فاستنجدت بوزيرها المسمى « ننشوبر » (Ninshubur) الذي استطاع ان يسعفها فاستمرت في رحلتها ، ولكن رسول انكي استمر في ملاحقتها ، بيد أنه كلما امسك بقاربها خف وزيرها الى تخليص القارب الى ان استطاعت أن تصل الى مدينتها الوركاء في قاربها الذي يحمل تلك الكنوز من النواميس التي تؤلف العناصر الاساسية للحضارة والمدنية من بينها السيادة والالوهية ونظام الحكم والتاج والصولجان ووظيفة الكهانة والصدق والخداع والتزوير والفن الموسيقي والعداوة والبغضاء والاستقامة والصلاح والعدل والطوفان والجماع والبغاء ، وطائفة من الحرف والصناعات المختلفة مثل النجارة والحدادة والبناء والحياكة الخ •

ح ـ اسطورة عن أصل الآلهة :

نشر أحد الباحثين حديثا[١٢] نصا بابليا قصيرا يحتوي على نحو ٢٧

(١٢) نشر النص المسماري ضمن مجموعة النصوص المسمارية في المتحف البريطاني : A. R. Millard in CT., XLVI, No. 43. والترجمة في =

سطرا يكاد ان يكون فريدا من نوعه . فانه على قصره يتضمن موضوع اصل الآلهة (Theogony) وهو نسخة من العصـــر البابلي الحديث (القرن السادس ق.م) ، ومن مدينة لم تكن معروفة سوى ورود اسمها في النص بهيئة « دنو » (Dunnu) . اما منشأ تفرد هذا النص باهميته فلانه القطعة الادبية الوحيدة التي تتناول هذا الموضوع ، اى اصل بعض الآلهة بصورة مســتقلة ، فان النصوص الاخـرى التي عالجت الموضوع ، مثل اسطورة الخليقة المطولة ، عبارة عن مجرد جمع بين جملة مواضيع تتعلق بمعتقدات وآراء متنوعة ومن عصور ومصادر مختلفة ، بخلاف هذا النص الجديد الذى قلنا انه يتميز بوحدة موضوعه وانه يمثل عقائد مدينة معينة هي مدينة « دنو » السالفة الذكر . والى هذا ورغم قصر النص ايضا والخروم الموجودة فيه فسيلاحظ القارىء تناظرا واضحا بين كيفية مجيء الآلهة بموجب هذا النص وبين الاســاطير اليونانية الخاصة باصل الآلهــة وانسابها والعلاقات فيما بينها ، مثل قصيدة الشاعر اليوناني الشهير « هزيود » المعنــونة (Theogony) من القرن الثامن او السابع .ق.م.

لقد رتب مجيء الآلهة في هذه الاسطورة البابلية الجديدة على هيئة زوجين ، ذكرا وانثى والاتصال ما بينهم بزواج الولد من امه وقتل ابيه أو الزواج من اختـه(*)، فكان أول زوجين آلهـا لم يكن معروفا اســمه

(=) Lambert and Walcot in Kadmos, IV, (1965), 64 ff.
A. K. Grayson in ANET, (1969), 517-8.

(*) قارن الشبه الواضح في اصل الآلهة اليونانية ومجيئها زوجين زوجين ايضا واتصال الاله الابن بأمه الالهة والقضاء على أبيه . فكان أول زوجين من الالهة الارض « جيــا » (Gae) والاله السماء « اورانوس » (Uranus) ، وكيف ان كرونوس ، ابن اورانوس ، قتل أباه وتزوج من أمه ، ثم قضى زيوس بدوره على ابيه كرونوس وتزوج من اخته « هيرا .. الخ » .

« خاين » او « هاين » والالهة الارض ، وقد ولدا زوجين من الآلهة هما الاله المسمى « أماكندو » (Amakandu) (*) والالهة البحـر • وتزوجت الآلهة الارض من ابنها « اماكندو » الذى قتل أباه « خاين » ، وكذلك ولادة ازواج أخرى من الآلهة لم يبق من اسمائها محفوظا في النص سوى الاله « لخار » (اله الماشية) والآلهة « النهر » ، واسمين من الالهات همـا « كاتُتـم » (Ga'tum) و « نن ـ كشتنا » (Nin-Geshtinna) ، ونـورد فيما يلي ترجمة الاسطر الكاملة الواضحة :

« قالت (الالهة) الارض لابنها « اماكندو » هلم اجامعك

فاقترن اماكندو بامه الارض وقتل أباه « خاين »

واضجعه في « دنو » ، المدينة التي يحبها •

واستحوذ « اماكندو » على سيادة أبيه ، وتزوج اخته الالهة « البحر »

ثم جاء « لخار » ، ابن « اماكندو » وقتل اباه وجعله يستريح (دفنه) في « دنو »

وتزوج « لخار » أمه الآلهة البحر

وقضت الالهة البحر على أمها الارض

وتزوج الاله •••• اخته الالهة « النهر » . (يعقب ذلـك اسطر مخرومة غير واضحة) •

ط ـ اسطورة انليل ونتليل ـ ولادة الاله القمر :

اسطورة سومرية[١٤] تدور على ولادة الاله القمر « ننا » (ننار)

(*) « اماكندو » أيضا اسم الاله الخاص بالحيوانات الوحشية •

(١٤) راجع :

Kramer, Mythology (1944); ANET. (3, 1969); Th. Jacobsen, in Before Philosophy (1951), 165 ff.

أو « سين » وولادة اخوته الثلاثة ، وقد وقعت احداث الاسطورة في مدينة « نمر » وفي العالم الاسفل ، ودعيت المدينة في الاسطورة بنعتها المقدس « دور آنكي » (Duranki) (قلعة او حصن الكون) وباسم (Durgishmmar) وتذكر نهرها ورصيفها وميناءها وكان فيها الاله الشاب انليل والآلهة العذراء « ننليل » وامها (Ninshebargunu) ، وقد حذرت هذه ابنتها ان تحافظ على نفسها عندما تغتسل في مياه نهر المدينة العذب من الشبان ، ولكن لم يجد ذلك التحذير نفعا فقد حدث مرة ان شاهد الشاب انليل العذراء ننليل تستحم في النهر ، فحاول اغواءها ولما مانعت اغتصبها وحملت منه وولدت الاله القمر « ننا » (سين) . وهنا لم تترك سلطات الآلهة الجريمة بدون عقاب فقد قبض على انليل واحضر أمام مجمع الآلهة الخمسين ويترأسهم السبعة الكبار الذين يصدرون الاحكام فقرروا نفي انليل جزاء اغتصابه الالهة « ننليل » الى العالم الاسفل ، وعندما اخذ طريقه الى ذلك العالم قررت « ننليل » ان تتبعه ، ولكن انليل لم يكن راغبا في اصطحابها معه فعمد على تضليلها بأن اتخذ هيئات شخصيات مختلفة ، منها شخصية حارس بوابة المدينة ولما بلغت ننليل البوابة وجدت انليل متخفيا بزي البواب فلم تعرفه واخبرها بان ملكه « انليل » قد أوصاه بها فقالت له انها هي ايضا ملكته وانها تحمل في احشائها طفل » انليل (سين) فاظهر انليل المتخفي بشخصية البواب الجزع في ان تأخذ ننليل معها نسل سيده الى العالم الاسفل ، فاقترح عليها ان يجامعها ليكون الابن الذي ستحمل به بديلا عن ابن سيده في العالم الاسفل ، فاقترن بها وحملت بابن آخر هو الاله المسمى (Meslamtaea) (*) . ثم سار من بعد ذلك الاله انليل في طريقه الى العالم الاسفل ، ولكن ننليل تستمر في متابعته ، وقد توقف في طريقه مرتين ، الاولى عند مروره بالرجل الموكل بنهر العالم

(*) ميسلام تاي ، اخو الاله القمر « سين » ومن القاب اله العالم الاسفل نرجال ، ويعني اسمه : « الذي يخرج من العالم الاسفل » .

الاسفل حيث يتخذ هيئته ويتخفى عن ننليل فيجامعهـا وتلد الهـا ثالثا من آلهة العالم الاسفل هو « ننازو » ، والمرة الثانية عند ملاح العالم الاسفل الـذي تختبي بهيئته أيضا ويجعل الاله ننليل تلد اله آخر لـم يبق اسمه محفوظا في النص ، وهنا تنتهي الاسطورة نهاية مقتضبة بازجاء التمجيـد للالهين انليل وزوجه ننليـل ، وهكذا يبـــدو ان الغرض الرئيسي من الاسطورة بيـان اصل بعض الآلهـة وفي مقدمتهم الاله القمر « سـين »، وكيف صار له ثلاثة أخوة من آلهة العالم الاسفل •

الفصل الثالث

الملاحم وقصص البطولة والأبطال

الصنف الثاني من النصوص الادبية ، وهي القصص والملاحم الخاصة بالبطولة والابطال ، يؤلف موضوعا بارزا في أدب حضارة وادي الرافدين • وقد بلغ بعض هذه القصص من التأثير والجاذبية في حوادثه درجة تؤهله لان يوضع في مصاف الملاحم العالمية الشهيرة ، ونعني بذلك ملحمة جلجامش التي هي أقدم نموذج لادب الملاحم في تاريخ الآداب العالمية وتركت آثارا واضحة في هذه الاداب • اما البعض الاخر فهو من نوع القصص القصيرة ومنها قصص تدور على أعمال جلجامش وصديقه « انكيدو » ومغامراتهما وتضاهي ما ورد في الملحمة المطولة • ومما يقال عن هذه القصص بوجه عام انها تستند في اسسها الى احداث تاريخية واقعية ، ولكنها رويت بالاسلوب الروائي الادبي الشعري ، كما ان ابطالها وشخوصها من البشر بالدرجة الاولى بخلاف ما سميناه بمصطلح الاساطير (Myths) **التي هي** مجرد نتاج الخيال الاسطوري الشاعري ، وقد وضعت لتفسير اصول الاشياء ومظاهر الكون والحياة الاجتماعية • ونعدد فيما يلي أشهر هذه القطع الادبية الخاصة بالملاحم البطولية :

١ ـ القصص الخاصة بجلجامش :

أ ـ ملحمة جلجامش المطولة ب ـ جلجامش و « أكا » ج ـ جلجامش وارض الحياة د ـ مغامرات جلجامش وانكيدو هـ ـ موت جلجامش •

٢ ـ قصة الطائر « زو »

٣ ـ صعود « ايتانا » الى السماء

٥ ـ قصة « ايرا » ، اله الطاعون

٤ ـ قصة « ادابا »

٦ ـ اينمركار (حاكم الوركاء) وحاكم اقليم « اراتا »

٧ ـ قصة سرجون الاكدي

٨ ـ قصة « نرام ـ سين »

٩ ـ قصة « نرجال » و « ايريشكيكال » (ستدرج ضمن اساطير عالم ما بعد الموت)

الملاحم والقصص الخاصة بجلجامش

مَلحَمة جلجامِش

مقدمة في التعريف بالملحمة وبطلها(*) :

ملحمة جلجامش ، التي يحق ان نسميها « اوديسة » العراق الخالدة ، يضعها الباحثون ومؤرخو الادب بين شوامخ الادب العالمي ، وانها من حيث سبقها في الزمن لجميع ما يضاهيها من الملاحم العالمية المشهورة ، اقدم نوع من ادب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات • والى هذا فانها اطول واكمل ملحمة عرفتها حضارات العالم القديم ، فليس ما يضاهيها ويقرن بها في آداب الحضارات القديمة قبل الالياذة والاوديسة في الادب اليوناني[١] • ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين شيء من فنونها وعلومها ومعارفها سوى هذه الملحمة لكفاها ان تبوأها مكانة مرموقة بين حضارات العالم القديم •

ومع ان الملحمة دونت قبل نحو ٤٠٠٠ عام وترجع في حوادثها الى عهود اقدم فانها ، شأنها شأن الآداب العالمية الشهيرة ، ما تزال خالدة في جاذبيتها الانسانية ، لان القضايا التي عالجتها قضايا انسانية عامة لاتزال تشغل بال الانسان وتفكيره وتؤثر في حياته العقلية والعاطفية • وفي مقدمة ذلك لغز الحياة والموت وما بعد الموت والخلود • وهي تمثل تمثيلا

(*) لما كنت قد نشرت الملحمة كاملة مع الشروح والتعليقات الوافية (الطبعة الاولى ١٩٦٢ والثانية ١٩٧١ والثالثة ١٩٧٥) فنكتفي في هذه المقدمة بموجز تعريفها وتلخيصها محيلين القارىء الى ترجمتها التي نوهنا بها •

(١) انظر البحث المهم للاستاذ « لاندزبيركر » (Landsberger) المنشور في :
Rencontre Assyriologique Internationale, VII, (1958), 1960

مؤثرا بارعا الصراع الازلي ما بين ارادة الانسان في تشبثها بالوجود والبقاء وبين حقيقة الموت البديهية وهي التراجيدية الانسانية العامة • وسيتضح للقاريء من عرض الملحمة الذي سنورده ان موضوعها الاساسي التدليل باسلوب مؤثر على حتمية الموت وتعذر الخلود ، ذلك الموت المقدر على البشر حتى بالنسبة الى بطل مثل جلجامش : ثلثاه من مادة الآلهة الخالدة وثلثه الباقي من مادة البشر الفانية • لان الآلهة ، كما تؤكد الملحمة ، قد « استأثرت بالحياة وقدرت الموت من نصيب البشرية » • ومع ان هذا الامر من البديهيات وان حقيقة الموت لاتزال تتكرر ليل نهار في حياة الانسان منذ ان وجد على الارض ، بيد ان ظاهرة الموت المتكررة رغم كونها من البديهيات لدى العقل الواعي ، لغز محير بالنسبة الى الجوانب العاطفية في الانسان ، فهي موضع حيرة مؤلمة في قرارة النفس البشرية • وتزداد الحاحا ومرارة حين يقترب الفرد من الشيخوخة ويشارف على نهاية رحلة الحياة • وبعد البرهنة على حتمية الموت وتعذر الخلود للانسان تثير الملحمة مسألة اخلاقية كبرى لاتزال تشغل تفكير الانسان منذ أقدم الازمان • فاذا كان الموت محتما ، واذا تعذر على الانسان نيل الخلود ، سواء كان بالتغلب على الموت ام عن طريق حياة اخرى بعد الموت (وهو امر لم يكن واضحا لدى العراقيين القدماء) • فماذا ينبغي على الفرد ان يسلك في هذه الحياة ؟ اينبذها ويفر من هذا العالم عن طريق الفناء « النرفاني » أم انه يقبل على الحياة فيغترف من نعيمها ولذاتها ، كما جاء على لسان صاحبة الحانة في الملحمة ؟ أم انه يرضخ لقانون الحياة والموت ويقبل التحدي فيقوم بما يخلده بعد الموت عن طريق الذكر والاحدوثة الحسنة كما فعل بطل الملحمة من بعد عودته يائسا من مغامراته في سبيل الحصول على الخلود ؟ ان هذه القضايا الكبرى وغيرها وضعت لها في الملحمة الحلول المنسجمة مع العقائد الدينية والاحوال الاجتماعية السائدة في مجتمع العراق القديم

قبل نحو ٤٠٠٠ عام • وسيجد القارئ بالاضافة الى مثـــل هذه القضايا الانسانية العامة ان الملحمة تزخر بصــور معبرة عن مواضيع انسانية حساسة أخرى كالحب والصداقة والكره والحنين الى ذكريات الماضي • ولعل ابلغ رثاء في تاريخ الحب والصداقة رثاء جلجامش المؤثر لموت صديقه « انكيدو » وبكائه عليه • والى هذا كله فان الملحمة أصدق ما يصــور لنا نواحي مهمة وكثيرة من حضارة وادي الرافدين وفي مقدمتهـا عقـائد القوم وآراؤهم الدينية وآلهتهم واحوالهم الاجتماعية •

أما بطل الملحمة جلجامش فانه اشتهر في أدب وادي الرافدين بكونه من ابطال الملاحم حيث صارت اعماله ومغامراته مادة للملاحم وقصص سومرية وبابلية متعددة • وعلاوة على ذلك كان شخصية تاريخية واقعية ، ولكن ما نعرفه عن هذه الشخصية من الناحية التاريخية امور قليلة منهـــا انه كان خامس ملوك سلالة مدينة الوركاء الاولى في العصر المسمى في تاريخ العراق القديم « عصر دول المدن » او « عصر السلالات » (Early Dynastic) والمرجح انه حكم في حدود ٢٦٠٠ او ٢٥٠٠ ق•م ، وقد خصصت له اثبات الملوك السومرية[٢] حكم ١٢٦ عاما ، كما يرجح انه كان يعاصر مؤسس سلالة أور الاولى المسمى « ميس – آنيبدا » (Mesannepadda) ، وذكرتـه اخبار بعض الملوك المتأخرين ومنهم احد ملوك الوركاء المسمى « أنـام » (Annam) (مطلع الالف الثاني ق•م) حيث ورد في احدى كتاباتـه ان جلجامش هو الذي شـيد اسوار الوركاء ، وذكر هـذا الحدث أيضا في الملحمة • وذكر الملك السومري « أور – نمو » (Ur-Nammu) ، مؤسس سلالة أور الثالثة (٢٢٠٠–٢٠٠٤ ق•م) أن جلجامش صار أحد قضاة عالم ما بعد الموت • وورد اسم جلجامش مكتوبا بعدة اشكال في نظام الكتـابة المسمارية منها : « گش – بل – گامش » (Gish-bil-ga-mesh) ، وبالطريقة

(٢) انظر :
Th. Jacobsen, The Sumerian King-List (1939) ANET, (1969).

الرمزية « گش – تو – بار » (Gish-tu-bar) ، ويرادف ذلك في القراءة الصـــوتية « گي – ال – گا – مش » (Gi-il-ga-mesh) كما كتب الاسم مختصرا بالعلامة « گش » (gish) مســـبوقة بالعلامة الدالة على الالوهية •

نظمت الملحمة شعرا باللغة البابلية والمرجح ان زمن تدوينها يرقى الى اواخر الالف الثالث أو اوائل الالف الثاني ق٠م ، وان آخر جمـع لهـا يرجع الى منتصف الالف الثاني ٠ق٠م على يد أحد جامعيها المسمى « سين – ليقي – اونني » (Sin-Leqe-Unnini) (انظر موضوع اسماء المؤلفين في مقدمة هذا البحث) • ومع ان الملحمة ترجع في مادتها الاساسية الى أصول سومرية الا انها في شكلها البابلي الذي جاءتنا فيه تعتبر نتاجا أدبيا بابليا صرفا • ولكن رغم انها جاءت على هيئة وحدة فنية قصصية متكاملة فانهـــا أقرب ما تكون الى الجمع الادبي بين قطع ادبية مختلفة ، فقسم كبير مـــن حوادثها يتضمن اعمال جلجامش وصديقه « انكيدو » ومغامراتهما وموت انكيدو (من اللوح الاول الى قسم من اللوح العاشر) ، وقسم ثان يروي قصة الطوفان (اللوح الحادي عشر) ، وقسم ثالث وهو اللوح الثاني عشر لا علاقة لمادته بموضوع الملحمة العام ، فهو يصف عالم ما بعد الموت أي العالم الاسفل كما شاهده انكيدو • وان أحدث نســـخ لنصوص الملحمة ترجع الى القرن السابع ق٠م ، حيث وجـد القسم الاكبر من الواحهـا في مكتبة الملك الآشوري « آشوربانيبال » في نينوى (٦٦٨–٦٢٦ ق٠م) ، وعدد الواحها كما نوهنا اثنا عشر لوحا كل منها تقريبا مقسم الى ستة حقول (خانات) ، ومعدل ما يحتوى عليه كل لوح زهاء ٣٠٠ ســـطر او بيت باستثناء اللوح الثاني عشر الذى يبلغ عدد اسطره نصف هذا العدد • والسلسلة كما ذكرنا معنونة بأول عبارة فيها اى : « هو الذي رأى كل شيء » وبالنص البابلي « شا نقبا امورو » (Sha-naqba imuru) ، وينتهي كل

لوح بتذييله بهذا العنوان ورقمه في السلسلة • فاللوح التاسع مثلا مذيل على الوجه الآتي : « اللوح التاسع من هو الذي رأى كل شيء ، سلسلة جلجامش (اش ـ گار ـ جلجامش esh-gar gilgamesh ، قصر آشور بانيبال ، ملك العالم ملك بلاد آشور » •

يرجع زمن اكتشاف القسم الاكبر من الواح الملحمة الى دور الاكتشافات الاثرية القديمة في العراق في منتصف القرن التاسع عشر ، واكتشفت اجزاء أخرى منها فيما بعد • وتناولتها بحوث الباحثين المختصين منذ اكتشافها الى يومنا هذا وترجمت عدة ترجمات الى معظم اللغات العالمية • ولا يسعنا في هذا البحث الموجز ان نعدد جميع هذه الترجمات والبحوث الكثيرة ، وقد ذكرناها في الترجمة الكاملة للملحمة (١٩٦٢ ، ١٩٧١) ، فنكتفي هنا بايراد اهمها ويجد القارىء فيها اشارات وافية الى البحوث والدراسات السابقة :

1. C. Thompson, The Epic of Gilgamesh (1931)

وتتضمن هذه النشرة نصوص الملحمة المسمارية ونقل أصواتها البابلية بالحروف اللاتينية •

2. A. Schott, Das Gilgamesh Epos, (1934, 1958).
3. Speiser, in Pritchard (ed.,) Ancient Near Eastern Texts (3rd. ed. 1969).
4. Heidel, The Gilgamesh Epic, (1949).
5. J.M. Diakanoff, Epos O Gilgamese
6. Garelli, (ed.), Rencontre Assyriologique Internationale, (VII, 1958), 1960.

مُلخص الملحمه

جلجامش وأنكيدو :

تبدأ الملحمة في وصف بطل الرواية جلجامش فتذكر خبـــرته وحكمته بخفايا الامور واخبار أزمان ما قبل الطوفان ، وانه سافر أسفارا بعيدة « أحلت به الضنى والتعب فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره » وانه بنى أسوار الوركاء ومعبدها المقدس « اي ــ أنّا » ، وهو عمل لم يضارعه فيه أحد من الملوك .

« وكان جلجامش على أتم ما يكــون من الخلق وكمال الصورة فقد حباه شمش السماوي بالحسن ، وخصه الاله « أدد » بالبطولة ، طـوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار ، ثلثاه اله وثلثه الباقي من مادة البشر » . ولكن البطل جلجامش كان يضطهد رعيته في الوركاء فلم « يترك ابنا طليقا لابيه ، ولم يدع عذراء طليقة لحبيبها والا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل » . فاستغاث الناس بالالهة ، واستمع الالـــــه « آنو » لشكواهم فدعا الالهة الخالقة « اورورو » وقال لها : « يا اورورو انت التي خلقت هذا الرجل بأمر انليل ، فاخلقي الآن غريمـــا لــه يضـارعه في قوة العزم وليكونا في صراع دائم حتى تنال « اوروك » السلام والراحة . فأمتثلت « اورورو » لامر آنو وغسلت يديها وتناولت قبضة من الطـــين ورمتها في البرية ، فخلق منها « انكيدو » الصنديد ، نسل الاله « ننورتا » القوى . ونشأ انكيدو متوحشا ماردا يجلل الشعر جسمه ، وشعر رأسه كشعر المرأة ... لا يعرف الناس ولا العمران ، يرعى الكلأ مع الظبـاء ويرتاد الماء مع وحوش البرية ».

وحدث يوما أن صيادا رآه عند مورد الماء فذعر ، وقد قطع انكيدو شباك صيده وجعل الحيوانات تفر منه • قص الصياد على أبيه ما شاهده ، فنصحه أبوه أن يذهب الى الوركاء حيث يحكم البطل جلجامش ويخبره بأمر الوحش الذي رآه ويبين له الطريقة التي ينبغي لجلجامش أن يعمل بموجبها في احضار انكيدو الى الوركاء بأن يصطحب معه بغيا مومسا • وبعد أن قص الصياد على جلجامش خبر انكيدو قال له جلجامش : « انطلق أيها الصياد واصطحب معك بغيا مومسا(*) ، وحينما يأتي الى مورد الماء لسقي الحيوان دعها تخلع ثيابها وتكشف عن مفاتن جسمها ، فاذا ما رآها انجذب اليها ، وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية » • فعمل الصياد وفق ذلك وسار مصطحبا معه البغي حتى وصلا الى المواضع التي يتردد عليها « انكيدو » ، ولما شاهده الصياد قال للبغي : « هذا هو أيتها البغي فاكشفي عن نهديك ومفاتن جسمك ليتمتع بها ••• فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها ، فوقع عليها وتمتع بمفاتن جسمها ••• ولبث انكيدو يضاجع البغي ستة أيام وسبع ليال ، وبعد أن قضى وطره منها وأراد اللحاق بالفه من حيوان البرية انكرته وهربت منه ، وخذلته رجلاه لما هم ان يطاردها ويلحق بها » • وهكذا زالت القوة الوحشية عن « انكيدو » ولكنه أصبح « فطنا واسع الحس والفهم » ، فرجع الى البغي وارتمى عند قدميها فقالت له : « أصبحت الآن يا انكيدو عارفا حكيما مثل اله ، فعلام تجول مع الحيوان في البرية ؟ تعال أقدك الى « اوروك » ، ذات الاسوار ، الى بيت آنو وعشتار ، حيث يعيش

(*) في الطبعة الثانية من ترجمة الملحمة (١٩٧١) جعل اسم البغي « شمخة » بناء على اعتبارات لغوية كما ارتأى احد الباحثين (Gordon, Before The Bible, 1962). ولكن هذا احتمال ضعيف لم يأخذ به معظم الباحثين فعدلت عنه في هذه الدراسة وفي ترجمة الملحمة في طبعتها الثالثة التي ارسلت للطبع •

جلجامش المكتمل القوة ، والمتسلط على الناس كالثور الوحشي » • فأسلم « انكيدو » قياده الى البغي وقال لها : « هلمي أيتها البغي ، خذيني الى البيت المشرق ، مسكن آنو وعشتار ، الى حيث يحكم جلجامش وسأتحداه وأنادي في وسط اوروك : أنا الاقوى ! أنا الذي سأبدل المصائر ! » • وبينما كانت البغي وانكيدو في طريقهما الى الوركاء ، رأى جلجامش بعض الرؤى فقصها على أمه الالهة « ننسون » الخبيرة بتعبير الرؤيا • ففي الحلم الاول رأى جلجامش « وهو سائر في دروب الوركاء بين الابطال أحد كواكب السماء وقد سقط اليه ، فلم يستطع أن يحركه ويرفعه ، وانحنى عليه كما ينحني على امرأة ، وبعد جهد جلبه الى الالهة ، فجعلته نظيرا له • عبرت الالهة عن هذه الرؤيا ان معنى ذلك انه سيحصل على صديق وصاحب أمين يلازمه • وفي الحلم الثاني رأى جلجامش فأسا مطروحة وهي ذات شكل عجيب ، فأحبها وانحنى عليها وجلبها الى أمه الالهة ننسون فجعلتها نظيرا له ، وكان تعبيرها عن هذه الرؤيا مثل الاولى أن جلجامش سيحصل على خل قوي يعينه عند الضيق • وقبل أن يصل انكيدو والبغي الى الوركاء شاهدا رجلا مقبلا من المدينة يبدو أن أهلها أرسلوه ليبلغ « انكيدو » اضطهاد جلجامش لهم ويحرضوه على قتاله ، فقد قال الرجل لانكيدو : « لقد أحل جلجامش في المدينة العار والمنكرات وفرض على أهلها أعمال السخرة ••• وانه يختار العرائس قبل أزواجهن فيكون هو العريس الاول(*) ، وهم يقولون عن ذلك : « لقد أراد الآلهة هذا الامر وقدروه له منذ أن قطع حبل سرته »• وعندما اقترب « انكيدو » والبغي من أبواب الوركاء تجمع الناس ليشاهدوا

(*) لا يعلم مغزى هذه العبارة بوجه التأكيد ، ولكنها يرجح ان تشير الى عادة قديمة تضاهي امتياز الحكام والنبلاء في اوروبة في العصور الوسطى مما كان يعرف بمصطلح « حق الليلة الاولى » ، وبالمصطلح اللاتيني (JUS Primae noctus)

القـادم الغريب ، وصاروا يقارنون ما بينـه وبين جلجامش . و « لما هيىء الفراش للآلهة » اشخارا[*] . اقترب جلجامش ليتصل بها في المساء فوقف « انكيدو » في الدرب وسد الطريق بوجهه ، فنشب الصراع بين البطلين ، « وخارا خوار ثورين وحشيين وحطما عمـود الباب وارتج الجـدار » وحينما انثنى جلجامش وقدمه ثابتة في الارض ليرفع « انكيدو » هـدأت سورة غضبه ، واقر « انكيدو » بتفوق غريمه عليه ، واعجب البطـلان أحدهما بالآخر وصارا صديقين حميمين يلازم أحدهما الآخر .

سفر جلجامش وانكيدو الى جبال الارز :

وبعـد أن انعقدت أواصر الصداقة ما بين جلجامش وانكيدو عـزم جلجامش عـلى القيـام بسـفر بعيد في مغامرة الى غابات الارز المسـحورة ليخلد له اسـما في سـجل الخالدين ، ولعله كـذلك من اجـل أن يرفه عن صديقه الذي يبدو انه سئم حياة الحضارة وصار يحن الى حياتـه الاولى يوم كان حرا طليقا في البوادي . وبعد حوار بين الصديقين ابدى فيه « انكيدو » مخاوفه من تلك المخاطرة التي تنطوي عليها الرحلة، لاسيما ان الغابة وكل الإله « انليل » على حراسـتها العفريت المـارد « خمبابا » أو (خواوا) الذي تبعث هيئته الرعب وان نفسه الموت الزؤام . وبعد ان

(*) « إشخارا » احدى الهات الحب وشكل من إشكال الالهة عشتار وقد فسر هذا المشهد بانه يشير الى الشعائر الدينية الخاصة بما يسمى « الزواج الالهـي او الزواج المقدس » (Sacred marriage) (Hioros gamus) الذى كان يمارس في العراق القديم رمـزا لاتصال الملك باحدى الهات الخصب والحب ولاسـيما عشتار ، وكانت كاهنة عليا تقوم بدور الالهة للاتصال الجنسي بالملك ضمانا لاحلال الرخاء والخصب في البلاد . وكان هذا يتم في الغالب في مطلع الربيع ضمن شعائر عيد السنة الجديدة (انظر موضوع أدب الحب والغزل في هذا البحث) .

اقنع جلجامش صديقه اصدر اوامره الى صانعي الاسلحة فصنعوا لـــه سيوفا واسلحة هائلة فتاكة • وقد حاول شيوخ الوركاء أن يثنوا جلجامش عن ركوب تلك المخاطر ، فقالوا له من بين ما قالوا : « يا جلجامش انت فتى وقد حملك قلبك مدى بعيدا ، وانت لا تعلم عاقبة ما انت مقدم عليه • اننا سمعنا عن خمبابا أن بنيته مخيفة ، ولا شيء يصمد أمامه ، والغــابة تمتد مسافة عشر ساعات مضاعفة في كل الجهات » • ولكن جلجامش لم يسمع نصح شيوخ مدينتــه ، وعنــدئذ دعــوا له بســلامة العودة وزودوه بالنصائح • وقبيل أن يشرع بالسـفر زار مــع « انكيدو » معبـد الالهـة « ننسون » ، أم جلجامش ليســأل منهـا البركة والنجاح ، فصــلى لهــا و خاطبها : « يا ننسون ، ائذني لي أن أخبرك بأنني اعتزمت سفرا بعيدا ، الى موطن خمبابا • وانني مقــدم عــلى نزال لا أعرف عاقبته ، والســير في طرق لا أعرف مسالكها • فحتى اليوم الذي أذهب فيه وأعــــود والى أن أبلغ غابة الارز واذبح خمبابا المارد وأمحو من على وجه الارض كل شر يمقته شمش ، تشفعي لي عند شمش » • فأستجابت الألهة « ننسون » الى موطن خمبابا • وانني مقــدم عــلى نزال لا أعرف عاقبته ، والســير في تاجها على رأسها وصعدت على السطح واحرقت البخور الى شمش ورفعت يديها اليه وخاطبته : « علام اعطيـــت ولدي جلجامش قلبا مضـــطربا لا يستقر ؟ والآن حثثته فاعتزم سفرا بعيدا الى موطن خمبابا •• فالى أن يذهب ويعود ويبلغ غابة الارز ويقتل خمبابا ويمحـــو من الارض كل شـر تمقتــه ، عســى أن تذكرك عروســك « آى »[*] باليوم الذي ترجعه فيه ، ولتوكل به حراس الليل والكواكب واباك « سين »[**] حين تحتجب

(*) « آى » او « آية » ، زوجة الاله شمش ، وهي تمثل الفجر مثل الالهة اليونانية « ايوس » (Eos) والرومانية « ازورا » (Aurora)

(**) الاله « سين » الاله القمر وبالسومرية « نانا » او « ننار » عده العراقيون القدماء أبا للاله الشمس « شمش » ، لأن النهار يتولد من الليل حسب تصورهم •

انت في المساء ... » ثم اطفأت البخور وعوذت وأحضرت اليها الكاهنات والبغايا والمتبتلات ودعت اليها « أنكيدو » واوصته قائلة : « يا أنكيـدو القوي الذي ليس من رحمي قد اتخذتك منذ الآن ولدا » ثـم قلدت عنقه بقـلادة جواهر لتكون منه موثقا واردفت قولها : ها انني أئتمنك على ولدي فأرجعه الي سالما » .

وبعد سفر شاق طويل شارفا على مدخل الغابة ، وكان مدخلا عجيبا حيث أشجار الارز العالية ووجدا عنـد المدخل عفريتـا عينـه « خمبابا » لحراسته ، فقتله الصديقان . وبعد مصاعب استطاعا أن يوغلا في الغابة ، وشاهدا من عجائبها جبـل أرز خاص أقيـم فوقه عرش الالهـة « ارنيني » (عشتار) . ولما شرع جلجامش في قطع أشجار الارز عند الصباح سمع العفريت الصوت فهجم عليهما ، فحل بهما الرعب وجبنا عن ملاقاته ، ولكن الاله « شمش » بادر الى نجدتهما بأن أهاج الرياح العاتية التي أمسكت بخمبابا وشلته عن الحركة فاستسلم لهما وتضرع أن يبقيا عليه ويأسـراه فيكون خادما لهما ، فكاد جلجامش أن يعفو عنه ولكن « انكيدو » حرضه على قتله فقتلاه وقطعا رأسه » .

وهكذا انتهت مغامرة غابة الارز بنجاح البطلين وعودتهما سـالمين منتصرين . ولما عاد البطلان تهيآ للاحتفـال بالنصر فارتـدى جلجامش الحلل الزاهية ولبس تاجه وصقل سلاحه ، ولما ان رأته الالهة عشـتار اسرها جماله وتعلق قلبها بحبه فنادته وخاطبته قائلة : « تعـا ل يا جلجامش وكن عريسي المختار ، وامنحني ثمرتك اتمتع بها ... ساعد لك مركبات مـن حجر اللازورد والذهب ... وستربط لجرها شـياطين الصاعقـة بدلا من البغـال . وفي بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه اذا ما دخلتـه . وستقبل قدميك العتبة والدكة . سينحني لك الملوك والحكام والامراء ، وسيقدمون لك الأتاوة من نتاج السهل والجبل ، وستلد عنزاتك ثلاثـا

ثلاثا ، وتلد نعاجك التوائم ...» ولكن جلجامش رفض عرض عشتار ولم يقتصر على رد طلبها بل انه أهانها وعدد مثالبها وهناتها وما احلته من الويلات والهلاك بعشاقها السابقين فكان من جملة ما قال لها :

« ماذا علي أن أعطيك لو اخذتك زوجة ؟

هل سأعطيك السمن والكساء ؟

وأي اكل وشراب سأعطيك مما يليق بالالوهية ؟...

أي خير سأناله لو تزوجتك ؟

أنت ! ما أنت الا الموقد الذي تخمد ناره في البرد .

أنت كالباب الخلفي لا يصد ريحا ولا عاصفة !

أنت قصر يتحطم في داخله الابطال .

أنت فيل يمزق رحله .

أنت قير يلوث من يحمله .

أنت قربة تبلل حاملها ...

أنت نعل يقرص قدم منتعله ...

أى من العشاق الذين اخترتهم من أحببته على الدوام ؟

تعالي أقص عليك مآسي عشاقك :

من أجل تموز(*) . حبيب صباك فرضت البكاء والنوح عليه سنة بعد سنة(*) وأحببت طير الشقراق ولكنك ضربته وكسرت جناحيه ، وها هو ذا حاط في البساتين يصرخ نادبا : جناحي ! جناحي ! »

(*) سيمر بنا في الاقسام الاتية من هذا البحث علاقة « تموز » بعشتار . اما هذه الاشارة الى النواح على تموز فناشئة من عادة ممارسة الندب والبكاء عليه ، حين يبقى رهينة في العالم الاسفل طوال نصف عام ليكون بديلا عن عشتار في ذلك العالم مقابل اطلاق سراحها من بعد نزولها اليه (راجع الاسطورة الخاصة بنزول عشتار الى عالم ما بعد الموت في الاقسام الاتية) . ويخرج تموز في النصف الثاني من العام بعد ان تطوعت اخته «كتشن ـ أنا» ان تكون رهينة بدلا عنه في الفترة التي يخرج فيهاالى =

« وأحببت الاسد الكامل القوة ، ولكنك حفرت له سبع وسبع
وبرات ، وأحببت الحصان المجلّى في السباق والبراز ، ولكنك سلطت
عليه السوط والمهماز والسير ، وحكمت عليه بالعدو سبع ساعات مضاعفة
وقضيت عليه أن لا يرد الماء الا بعد أن يعكره(*) ، وأن تواصل أمه
« سليلي » البكاء عليه » .

وهكذا يستمر جلجامش في تعداد عشاق عشتار السابقين الذين
غدرت بهم ، ويمعن في اهانتها(**) ، وعندها استشاطت غيظا وعرجت
الى سماء أبيها « آنو » ، وبكت أمامه وشكت له ما اصابها من جلجامش
وطلبت منه أن يخلق لها ثورا سماويا ليهلك جلجامش ، وانها ان لم يفعل
ذلك فستحطم باب العالم الاسفل وتدع الموتى يقومون منه ويأكلون
كالاحياء ، ويصبحون أكثر عددا منهم . وبعد ممانعة من « آنو » رضي
لطلبها وخلق « الثور السماوي » ، وسلمه الى عشتار فأنزلته الى بلاد

= عالم الاحياء . وقد شاعت ممارسة النوح والبكاء على تموز بين الامم القديمة مثل العبرانيين (سفر حزقيال ٨ : ١٥) ، وظلت العادة تمارس بين بعض الاقوام الى العصور المتأخرة (راجع فهرست ابن النديم عن عادة البكاء على تموز) (تاوز عند اهل حران) . اما في العراق القديم فكانت تقام المآتم ومواكب العزاء في شهر تموز (الذى سمي باسم الاله) ، كما كان يحتفل بقيامته من عالم الاموات في بداية الربيع . ولا تخفى اوجه الشبه الواضحة بين هذه الشعائر الخاصة بتموز وبين فكرة الاله الذى يموت ويقوم في المسيحية وشعائر اقامة مواكب العزاء عند الشيعة .

(+) الملاحظ ان الحصان لما يرد الماء يضربه بقائمتيه الاماميتين فيعكره .

(+ +) الواقع ان هذا الموطن من الملحمة يصعب تفسيره اذ ان امعان جلجامش باهانة « عشتار » التي احتلت اسمى مركز من التقديس بين الالهة في حضارة وادي الرافدين في جميع ادوارها أمر لا ينسجم مع العقائد الدينية ، وقد ارتأى بعض الباحثين ان تفسير ذلك انه كان ثورة على شعائر ما سبق ان سميناه بالزواج الالهي وما كان يتفرع عنه من ممارسة البغاء المقدس المرتبط ببعض المعابد وعبادة الالهة عشتار .

« اوروك » وأخذ يفتك بأهلها وسقط المئآت من رجال الملك • وعند ذلك انبرى البطلان جلجامش و « انكيدو » لمصارعته حيث تصف لنا الملحمة مشهدا أشبه ما يكون بمصارعة الثيران في اسبانية • واستطاع البطلان أن يقضيا عليه ويقتلعا قلبه ويقرباه الى الاله « شمش » • أما عشتار فانها اعتلت أسوار المدينة وصارت تقذف البطلين بلعناتها ، فلم يكن من « انكيدو » الا أن قطع فخذ الثور وقذفه بوجه عشتار ، فجمعت بغايا المعبد وأقامت النواح على فخذ « الثور السماوي » • وكان هذا الثور مخلوقا عجيبا ، قرناه من حجر اللازورد ، وزن كل منهما ثلاثون «منا» • وسار البطلان في دروب الوركاء مختالين محتفلين بنصرهما ، وتجمع حولهما الناس ، وصار جلجامش يخاطب وصيفات قصره وعذارى المدينة : « من الامجد بين الرجال ومن أقوى الرجال ؟ » فيجبنه : « جلجامش الاقوى بين الابطال ، جلجامش زين الرجال ! » •

موت انكيدو وحزن جلجامش عليه وسعيه وراء الخلود :

والى هنا كان كل شيء يبدو للبطلين وكأنه على ما يرام ، ولكن ما قاما به أزاء سيدة الآلهة عشتار قد تجاوز المدى لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات ما بين الآلهة والبشر • فلم تدع الآلهة ذلك الحدث دون انزال العقاب بالمذنبين • وقد بدأت النذر والرؤى تنذر البطلين بما بيته لهما اقدار الآلهة ، فكان مما رآه « انكيدو » من الاحلام أن الآلهة اجتمعوا في مجلس شوراهم ليقرروا أي من الاثنين ينبغي أن يعاقب بالموت ، فوقع

الحكم على « انكيدو » ، رغم اعتراض الاله « شمش » . وسرعان ما بدأت النذر تتحقق ، فقد حل بانكيدو مرض الموت ، وادرك قرب نهايته ، وأخذت تتوارد عليه الخواطر والذكريات فود لو انه ما جاء الى الحياة الحضرية بل ظل في بادينه سعيدا خالي البال ، يجول مع الظباء وحيوان البرية ، وأخذ يكيل اللعنات على الصياد الذي جاء اليه بالبغي ، ويلعن البغي التي زينت له المجيء الى حياة المدينة في الوركاء . وكان مما قاله عن الصياد داعيا عليه الاله « شمش » : « أسلب الصياد ماله وأحل به الضعف والوهن ... وعسى أن يفر منه كل صيد يروم اقتناصه » . ثم وجه لعناته على البغي : « تعالي أيتها البغي أقدر لك مصيرك ، وهو مصير لن ينتهي الى الابد ... ليكن طعامك من فضلات المدينة ، وستكون زوايا الدروب المظلمة مأواك ، وفي ظل الجدار سيكون وقوفك ، وسيلطم الصاحي والسكران خدك ، وعسى أن يبذك عشاقك بعد أن يقضوا وطرهم من سحر جمالك » ... ولما ان سمع الاله شمش كلامه خاطبه من السماء قائلا : « علام تلعن البغي يا انكيدو ؟ » تلك التي علمتك كيف يؤكل الخبز اللائق بالالوهية ، واسقتك خمرا يليق بالملوكية ، واعطتك جلجامش الوسيم خلا وصاحبا » ... ولما سمع جلجامش الاله « شمش » هدأت سورة غضبه فبدل اللعنات بركات وقال : « سيحبك الملوك والامراء والعظماء ... ولن يضرب أحد فخذه مستعيبا اياك ، ومن اجلك سيهز الشيخ لحيته ، وسيحل الشباب احزمتهم من أجلك ، وسيقدمون لك اللازورد والعقيق والذهب ... ومن أجلك ستهجر الزوجة ولو كانت أم سبعة .... » .

ثم اشتد المرض بانكيدو ولازم فراش المرض وصار يبث أحزانه وشكواه الى صديقه ، فكان مما قاله له : « يا أخي رأيت الليلة الماضية رؤيا : كانت السماء ترعد فأستجابت لها الارض ، وكنت واقفا وحدي

فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه . كان وجهه مثل وجه طير الصاعقة « زو » ومخالبه مثل اظفار النسر . لقد عراني من لباسي وأمسك بي في مخالبه وأخذ بخناقي حتى خمدت انفاسي ... لقد بدل هيئتي فصارت يداي مثل جناحي الطائر مكسوتين بالريش(*) . لقد امسك بي وقادني الى دار الظلمة ، الى مسكن « ايراكلا »(**)، الى الدار ألتي لا يرجع منها من دخلها ... الى البيت الذي حرم ساكنوه من النور ، حيث التراب والطين قوتهم وهم مكسوون كالطيور بأجنحة من الريش ، ويعيشون في ظلام لا يرون نورا ، وفي بيت التراب الذي دخلت شاهدت الملوك والحكام وقد نزعت تيجانهم وكدست على الارض ... وكان نواب « آنو » و « انليل » وحدهم الذين يقدم لهم شواء اللحم والخبز ويسقون الماء البارد من القرب ... » وحلت نهاية « انكيدو » ، فحزن عليه صاحبه « جلجامش » وصار يندبه ويرثيه رثاءا مؤثرا كأمر ما يرثي به صديق صديقه ، وقد أبى أن يوسده اللحد حتى خرج الدود من أنفه ، وكان مما رثاه به : « لتندبك المسالك التي سرت فيها في غابة الارز وليبكك الاصبع الذي أشار الينا وباركنا ... وليندبك الدب والضبع والنمر والفهد والسبع والايل والظبي وكل حيوان البرية ... وليندبك نهر « اولا » الذي مشينا على ضفافه ، وليبكك الفرات الطاهر الذي كنا نسقي منه ... اسمعوني يا شيوخ اوروك : من أجل « انكيدو » صاحبي وخلي ابكي وأنوح نواح الثكلى . انه الفأس الذي في جنبي وقوس يدي والخنجر

(*) يضاهي هذا المخلوق ما يسمى « ملاك الموت » في الاديان الاخرى . وكان الغالب على تصور العراقيين القدماء لارواح الموتى انها على هيئة الطيور ويشاركهم في ذلك بعض الاقوام القديمة (انظر حلم الامير الآشوري في هذا البحث) .

(**) من اسماء الهة العالم الاسفل المعروفة باسم « ايريشكيكال » انظر اساطير ما بعد الموت في الاقسام الاتية :

الذي في حزامي والمجن الذي يحميني وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي • لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني ••• يا انكيـدو ، يا صاحبي وأخـي الاصغر ، أية سنة من النوم هذه التي غلبتك ! طواك الظلام فلا تسمعني » ، ولكن انكيدو لم يرفع عينيه ، فجس قلبه ولكنه لم ينبض وعند ذاك غطاه كالعـروس وصار يـدور حوله ويزأر كالاسـد ، وكاللبوة التي أختطفت منهـا أشـبالها ، وينتف شعره المضفور ويرميه على الارض ، وخلع ثيابـه الزاهية ورماها على الارض كأنها أشياء نجسة » • وفي الصباح أمر الصناع والنحاتين أن يصنعوا تمثالا لصديقه وقرب من أجله القرابين وواصـل ندبه ورثاءه ليل نهار ، وبعد أن أوسده اللحد هام على وجهه في البراري خائفا من المصير الذي حل بصديقه ، وقام برحلة بعيدة الى جده المسمى « اوتو ــ نبشتم » ليسأله عن سر الحياة والموت وكيف استطاع أن يدخل في مجمع الآلهة وينال الخلود •

رحلة « جلجامش » الى جده « اوتو ــ نبشتم »(*) :

شد جلجامش الرحال وأخذ طريقه الى جده « اوتو ــ نبشتم » ، وقـد هام في البراري يصطـاد الحيوانات ، ويأكل لحومهـا ويكتسي بجلودها • وبعد سفر شاق طويل كان أول ما بلغه في طريقه جبـالا اسمها « ماشو » يرجح ان تكون جبال « لبنان » ، وتصفها الملحمة بأنها الجبال التي تعبر من مداخلها الشمس في مسيرتها اليوميـة ، وتحرس مجازاتها مخلوقات غريبة ذات هيآت مركبة من البشر والعقارب يبعثـون الرعب وان مجرد نظرتهم الموت • ولما أبصرهم جلجامش خاف وامتقـع

(+) لا يعلم بوجه التأكيد معنى صيغة الاسم بالاكدية اى « اوتو ــ نبشتم » ، وهناك احتمال وجيه انها تعنى « وجد الحياة » ، وهو معنى يضاهي معنى اسم بطل الطوفان السومري « زيوسدرا » الذى فسر بانه يعنى « حياة الايام الطويلة »

Sollberger, The Babylonian Legend of The Flood, (1971), 17

لونه ، ولكنه تشجع واقترب منهم ففطن حارس منهم ان جلجامش ثلثاه من مادة الآلهة وثلثه من مادة البشر ، وبعد أن سأله عن القصد من عبوره مجاز الجبال وأوضح له جلجامش ذلك سمح له بالعبور من مسالكها التي يعم الظلام داخلها مسافة اثنتي عشرة ساعة مضاعفة ، واستمر بالسير في ظلام دامس وبعد أن اقترب من نهايتها أبصر مشاهد عجيبة ، حيث الاشجار التي تحمل أثمارا من الاحجار الكريمة ، ثم وصل في النهاية الى ساحل البحر فوجد عنده صاحبة حانة اسمها « سدوري » . ولما أن شاهدت هذه جلجامش مقبلا وهو يرتدي جلود الحيوانات ، مغبر الوجه أشعث الشعر ، ارتابت في أمره فأوصدت بابها ، ولكن جلجامش هددها بكسر الباب ، وبعد أن عرفها بهويته والقصد من مجيئه حاورته قائلة : « ان كنت حقا جلجامش الذي قتل حارس غابة الارز (خمبابا) وقتل الاسود ومسك ثور السماء وقتله ، فلم ذبلت وجنتاك ولاح الغم على وجهك واستبد بك الحزن وتبدلت هيئتك ؟ » .

فأجابها جلجامش : « كيف لا تذبل وجنتاى ويمتقع وجهي ويملأ الاسى والحزن قلبي وان مصير البشر قد ادرك صاحبي وأخي الاصغر ؟ انه « انكيدو » الذي أحببته قد انتهى الى ما يصير اليه البشر جميعا فبكيته ليل نهار ، ندبته ستة أيام وسبع ليال ، معللا نفسي بأنه سيعود الى الحياة من كثرة بكائي ونواحي ، وامتنعت من تسليمه الى القبر حتى خرج الدود من أنفه . لقد افزعني الموت فهمت على وجهي في البوادي . ان ما حل بصاحبي يقض مضجعي . واحسرتاه ! لقد غدا صاحبي الذي أحببت ترابا ، وانا ساضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين .. فيا صاحبة الحانة أيكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أرهبه ؟ » فأجابت صاحبة الحانة « جلجامش » قائلة له :

« الى اين تسعى يا جلجامش ؟

ان الحياة التي تبغي لن تجد(*)
« حينما خلقت الآلهة البشر قدرت الموت عليهم واستأثرت هي بالحياة .
أما انت يا جلجامش فليكن كرشك ملئا على الدوام
وكن مرحا ليل نهار(**)
وأقم الافراح في كل يوم من أيام حياتك
وارقص والعب نهار مساء
« واجعل ثيابك نظيفة زاهية(***)
واغسل رأسك واستحم في الماء ودلل الطفل الذي يمسك بيدك
وافرح الزوجة التي بين احضانك(****)
وهذا هو نصيب البشرية » .
وأخبرت صاحبة الحانة جلجامش أيضا بتعذر وصوله الى موضع « اوتو ـ نبشتم » حيث تحول دونه مياه بحر الموت ، على انها ارشدته أن ملاح « اوتو ـ نبشتم » صادف ان كان موجودا في غابة في ناحية صاحبة الحانة ، فأسرع جلجامش الى الغابة ووجد فيها صورا سحرية من الحجر كان ذلك الملاح يستعين بها في عبور بحر الموت . وبدافع غير معروف حطمها جلجامش . ووافق الملاح على اصطحاب جلجامش الى موضع « اوتو ـ نبشتم » ، وقد ابتدعا طريقة تمكنهما من العبور بأن اقتطع جلجامش من الغابة مائة وعشرين « مرديا » غلف ازجاجها « كعوبها » بالنحاس وطلاها بالقير ، وركب الاثنان في السفينة وقطعا في مدى ثلاثة أيام ما يعادل سفر شهر ونصف الشهر من السفر الاعتيادي . وكان

(*) قارن هذا بما جاء في التوراة (المزامير ١١٥:١٧)
(**) قارن التوراة (سفر الجامعة ١٨:٥ـ١٩)
(***) قارن سفر الجامعة ١٥:٨ .
(****) ذات المصدر ٩:٨ـ٩ ، ٥ـ٦ .

جلجامش كلما استعمل « مرديا » في دفع السفينة رماه في المياه لئلا تلامس يده مياه الموت ، وبعد أن أتى على المائة والعشرين مرديا نزع ثوبه ونشره في السفينة ليكون بمثابة الشراع • وهكذا وصل الاثنان الى حيث يقيم « اوتو – نبشتم » الذي سأله عن سبب مجيئه اليه ووجه اليه نفس الاسئلة التي القتها عليه صاحبة الحانة ، كما ان جلجامش اجابه بالاجوبة نفسها • وقد أضاف « اوتو – نبشتم » الى اقواله حتمية الموت وعبث ما يسعى اليه الانسان من نيل الخلود :

قال « اوتو – نبشتم » لجلجامش :

« ان الموت قاس لا يرحم •

متى بنينا بيتا يدوم الى الابد ؟

وهل ختمنا عقدا يدوم الى الابد ؟

وهل يقتسم الاخوة ميراثهم ليبقى الى آخر الدهر ؟

وهل تبقى البغضاء في الارض الى الابد ؟

وهل يرتفع النهر ويأتي بالماء على الدوام ؟

والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يحل أجلها •

لم يكن دوام وخلود منذ القدم(*)

ويا ما اعظم الشبه بين النائم والميت الا تبدو عليهما هيئة الموت ؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يميز ما بين العبد والسيد اذا وافاهما الاجل !

« ان آلهة الانوناكي العظام تجتمع مسبقا ومعهم « مامتم » مقررة الاقدار ، تقدر المصائر • لقد قسموا الحياة والموت ، ولكن الموت لم يكشفوا عن يومه » •

(*) قارن سفر الجامعة ١:٤ ، ١١ •

فسأل جلجامش جده كيف استطاع هو ان يحصل على الخلود وهو بشر مثله ، بل انه أضعف منه • وتؤلف اجابة « اوتو ــ نبشتم » قصة الطوفان على الوجه الآتي :

قصة الطوفان كما يرويها « اوتو ــ نبشتم » لجلجامش :

أجاب جلجامش « اوتو نبشتم » القاصي وقال له :

« ها انني أنظر اليك يا (اوتو ــ نبشتم) فلا أرى هيئتك مختلفة فانت مثلي لم تتبدل بل انك تشبهني • لقد تصورتك في قلبي كاملا كالبطل على أهبة القتال ، فاذا بي أجدك ضعيفا مضطجعا على ظهرك • فقل لي كيف دخلت في مجمع الآلهة ونلت الحياة الخالدة ؟

فأجاب « اوتو ــ نبشتم » جلجامش وقال له :

« يا جلجامش سأكشف لك عن سر محجوب • سأطلعك على سر من أسرار الآلهة : شروباك ، المدينة التي تعرفها والواقعة على نهر الفرات قد تقادم العهد عليها ، وكان الآلهة يعيشون فيها ، وقد حملتهم قلوبهم على أحداث طوفان ، فاجتمعوا وكان معهم أبوهم « آنو » ، و « انليل » البطل مشيرهم ، وننورتا مساعدهم ووزيرهم ••• وكان حاضرا معهم « نن ــ ايكى ــ كو » ، أي « ايا » فنقل كلامهم الى كوخ القصب وخاطبه :

يا كوخ القصب ! يا كوخ القصب ! اسمع يا كوخ وافهم يا حائط • يا رجل « شروباك ، يا ابن اوبار ــ توتو » ، قوض بيتك وابن لك فلكا • تخل عن مالك واطلب النجاة • انبذ الملك وانج بحياتك ، واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة • والسفينة التي ستبني عليك أن تضبط مقاسها • ليكن عرضها مساويا لطولها ، واختمها جاعلا اياها مثل مياه الـ « أبسو » • ولما ادرك « اوتو ــ نبشتم » ذلك أجاب « ايا » انه

سيصدع بأمره ، ولكن ما عساه أن يقول لسكان المدينة ، فأجابه أن يقول لهم ان الآله « انليل » يبغضه فلا يستطيع العيش في مدينتهم بل انه سينزل الى مياه ال « أبسو » ويعيش مع الاله « ايا » وموه عليهم أو لمح لهم بقرب حدوث الطوفان بطريق التورية ، فساعده أهل المدينة في بناء السفينة التي أكملها في مدى سبعة أيام وجعلها على هيئة مكعب سعته نحو (٢١٦٠٠٠ متر مكعب) ، وجعلها من ستة طوابق تحتانية وقسم ارضيتها الى تسعة أقسام وجهزها بكل ما يحتاج اليه من مؤن ومتاع وكل ما عنده من المخلوقات الحية وجميع أهله وذوي قرباه ٠

ويواصل « اوتو - نبشتم » روايته فيقول : « عين لي الاله (شمش) موعدا بقوله : « حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار الموت والهلاك في المساء فأدخل السفينة وأغلق بابك » ٠ ولما حل أجل الموعد المعين سقط المطر المهلك « فولجت في السفينة واغلقت بابي ، ولما ظهرت أنوار السحر علت من الافق البعيد (من أسس السماء) غمامة ظلماء ، وفي داخلها أرعد الاله « أدد » ، وكان يسير أمامه رسولاه « شلات » و « خانيش » وهما ينذران في السهول والجبال ، ونزع الاله « ايراكال » الاعمدة(*) ثم أعقبه الاله « ننورتا » فأطلق الرعود وبثق السدود ٠ ورفع آلهة الانوناكي المشاعل وجعلوا الارض تلتهب بأضوائها ، ولكن رعود الاله « أدد » بلغت عنان السماء فأحالت كل نور الى ظلمة ، وحطمت الارض الفسيحة كما تتحطم الجرة ٠ وظلت زوابع الرياح الجنوبية(**) تهب يوما كاملا وازدادت شدة حتى غطت الجبال وفتكت بالناس كأنها

(*) ايراكال من الهة العالم الاسفل ويرجح انه من اسماء الاله « نرجال » ، آله العالم الاسفل ٠ والمقصود بالدعائم ، على ما يرجح ، دعائم سدود ذلك العالم التي تحبس المياه الجوفية ٠

(**) الرياح الجنوبية وبالاحرى الجنوبية الشرقية في العراق هي الرياح الممطرة في الغالب وتدعى الان محليا « شرجي » (شرقي) ٠

الحرب العوان ، وصار الاخ لا يبصر أخاه ، والنـــاس لا يميزون من السماء • وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان فهربوا وعرجوا الى سماء « آنو »• « لقداستكان الآلهة وربضوا كالكلاب خارج الجدار »• وصرخت عشتار (كما تصرخ) المرأة ساعة الولادة • انتحبت سيدة الآلهة وبكت بصوتها الشجي : واحسرتاه ! لقد عادت الايـــام الاولى الى طين لانني نطقت بالشر في مجمع الآلهة وسلطت الدمار على خلقي • لقد ملأوا اليم كبيض السمك ••• » ومضت ستة أيام وسبع ليـال ولـم تزل الزوابع تعصف، وقد غطت البلاد ، ولما حل اليوم السابع خفت زوابع الطوفان في شدتها وهدأ اليم وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان ، وتطلعت الى الجو فرأيت السكون عاما • فتحت كوة طاقتي فسقط النور على وجهي ، ورأيت البشر وقد استحالوا جميعا الى طين ••• فسجدت وبكيت وانهمر الدمع على وجهي ••• واستقر الفلك عـــلى جبل « نصـــير »(٣) ، وضبط جبل نصير السفينة ولم يدعها تجري • ولما حل اليوم السابع أخرجت حمامة واطلقتها فطارت الحمامة ثم عادت لانها لم تجد موضعا تحط فيه ، واطلقت السنونو فطار السنونو ثم عـاد لانه لـم يجد موضعا يحط فيـه • وأخيرا أطلقت غرابا فذهب الغراب(*) ولما رأى المياه قدانحسرت حام وأكل

(٣) كان الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح بحسب روايـــة التوراة « ارارا‌ط » (في ارمينية) ، وفي القرآن جبل « الجودي » ، والمرجح ان جبل نصير المذكور في الملحمة هو الجبل الوارد في الاخبار الاشـورية والمحتمل انه الآن الجبـل المعروف باســم « بيرة مكرون » بالقرب مـن السليمانية •

(*) في رواية التوراة (سفر التكوين ٧:٨) وصف حدث اطــلاق الطيور من جانب نوح بشيء من الاسهاب ، فبعد اربعين يوما من بدء الطوفان وعند ظهور اعالي الجبال اطلق نوح غرابا فظل يحوم حتى انحســر الطوفان ولم يعد الى السفينة • وبعد سبعة ايام اطلق حمامة فعادت لانها لم تجد مكانا تحط فيه وبعد سبعة ايام اخرى وجدت طعـــاما وبعض =

وحط ولم يعد لي • وعند ذاك اخرجت كل ما في السفينة الى الرياح الاربع وقربت القرابين وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل ونصبت سبعة وسبعة قدور للقرابين(*) وكدست اسفلها القصب والآس والارز فشم الآلهة شذاها • وتجمعوا حولها كأنهم الذباب ولما حضرت الآلهة « عشتار » رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها « آنو » وقالت : انتم أيها الآلهة الحاضرون ،كما انني لاانسى عقد اللازورد هذا الذي في جيدي فسأظل أذكر هذه الايام(**) ولن انساها أبدا • ليتقدم الآلهة الى القرابين ،أما انليل فحذار ان يقترب منها لانه لم يترو فاحدث الطوفان ، وأسلم خلقي الى الهلاك » • ولما جاء انليل وأبصر السفينة غضب على الآلهة وقال : « عجبا كيف نجت نفس واحدة وكان المقدر أن لا ينجو بشر من الهلاك؟ففتح «ننورتا» فاه واجاب «انليل» : «من ذا الذي يستطيع أن يقوم بهذا الامر غير (ايا)»•••• وعند ذاك قال «ايا» مخاطبا انليل : « أيها البطل ! أنت احكم الآلهة ، فكيف لم تتبصر فاحدثت الطوفان ؟ حمل صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي اثم اعتدائه ، ولكن ارحم في العقاب لئلا يمعن في الشر • ولو انك بدلا من احداثك الطوفانسلطت السباع على الناس فقللت من عددهم ،ولو انك بدلا من الطوفان سلطت

= المواضيع اليابسة ، ولكنها عادت الى السفينة حاملة بمنقارها غصن زيتون غض ، وبعد سبعة أيام ايضا اطلق حمامة ثالثة لم ترجع اليه فتأكد من انحسار المياه نهائيا •

(*) التعبير « سبعة وسبعة » لرقم ١٤ ذو مغزى حضاري ، فان التعبير نفسه استعمل في لغة الطقوس الدينية عند اليونان (ἑπτὰ δὶς) هذا بالاضافة الى ورود رقم ٧ في عدة موارد من الملحمة • انظر اوجه الشبه الاخرى بين المآثر اليونانية وملحمة جلجامش في الطبعة الثانية من الملحمة ١٩٧١ ، ص ١٣٦ـ١٣٧ •

(**) يقارن بعض الباحثين هذه البادرة من عشتار بقوس قزح الوارد في التوراة في حديث الطوفان ، حيث كان آية عهد الله الى نوح وذريته بان الله لن يكرر احداث الطوفان (سفر التكوين ٩:٨ـ١٧) •

الذئاب عليهم فقللت من عددهم ،او احللت القحط في البـــلاد ،اهلك النـاس • أما أنا فلم افش سـر الآلهة ولكنني جعلت « أترا ـ حاسس»(*) يرى رؤيا فأدرك سـر الآلهة ، والآن تدبر أمره وقرر مصيره »، وعنـدئذ هـــدأ «انليل» ولان وصعد فوق السفينة وامسك بيدى واركبني معه واركب معي زوجي وجعلها تسجد بجانبي ووقف ما بيننا ولمس ناصيتينـا وباركنـا قائلا : « لم يكـن اوتو ـ نبشتم قبـل الآن سـوى أحد البشر ، ولكنه منذالآن سيكون هو وزوجه مثلنا نحن الآلهة، وسيعيش «اوتو ـ نبشتم» بعيـدا عنـد فم الانهار « ثم أخذوني وزوجي واسكنوني عند فم الانهار • والآن يا جلجامش من سيجمع الآلهـة مـن اجلك لتنـال الحيـــاة الخالدة التي تنشدها ؟ تعال امتحنك : لاتنم ستة أيام وسبع ليال» •ولكن وهو لايزال قاعدا عند «اوتو ـ نبشتم» اذا بسنة من النوم تتسلط عليه ، فالتفت « اوتو ـ نبشتم » الى زوجه وقال لها : « انظري وتأملي هذا الانسان القوي الذي ينشد الحياة قد غلبه النوم » • فاجابته زوجه أن يوقظ الرجل ويجعـله يعـود ادراجه من حيث أتى ، ولكن « اوتو ـ نبشـتم » حـذر امرأته قائلا : « لما كان الخداع سمة البشرية فانه سيخدعك • فأخبزي له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه ، والايام التي ينام فيها أشريها على الجدار » • فخبزت له سبعة أرغفة ووضعتها عند رأسه وأشرت في الجدار الايام التي نامها : يبس الرغيف الاول ، وتلف الرغيف الثاني ، والثالث لم يزل طريا ، وابيضت قشرة الرغيف الرابع ••• ولما كان الرغيـــف السابع لا يزال على الجمر لمس « اوتو ـ نبشتم » جلجامش فاسـتيقظ وقال له : « لم تكد تأخذني سنة من النوم حتى لمستني فايقظتني » فاجابـه

(*) يرد اسم « اترا حاسس » لاول مرة ، ومعنى اسـمه « المفرط في الحكمة » وهذه صفة أو اسم اخر لبطل الطوفان في ملحمة جلجامش اى « اوتو ـ نبشتم » أو « اوتنا ـ نبشتم » وقد جاءتنا ملحمة خاصة بالطوفان بعنوان « اترا ـ حاسس » سنفرد لها وصفا خاصا في النصوص الخاصة بالطوفان •

« اوتو ــ نبشــتم » : « يا جلجامش عــد ارغفتك ينبئـك المؤشـر عـلى الحائط عدد الايام التي نمتها » • وعندئذ قال جلجامش لاوتو ــ نبشتم وهــو يائس : مــاذا عساي أن افعل ، والى أين أوجــه وجهي ؟ ها ان المشكل (الموت) يقيـم معي » • فأمر «اوتو ــ نبشتم» ملاحه « اور ــ شناني » أن يأخذ جلجامش الى موضع الاغتسال لينظف جسمه ويبدل ملابسـه الوسخة وان يأخذه معه من بعد ذلك الى مدينته « اوروك » • وبينمــا كان الاثنان يهمان بركوب السفينة في طريق العودة تشفعت لـــه امرأة « اوتو ــ نبشتم » عند زوجها ان لا يدعه يرجع الى بلاده خائبا • وعندئذ كشف « اوتو ــ نبشتم » لجلجامش عن سر نبات عجيب ينبت في أعماق البحر وانه مثل الورد ذو شوك ، وذو خاصية سحرية في تجـــديده الشباب • فربط جلجامش برجليه احجارا وغاص الى الاعماق وعثر على ذلك النبات ، ففرح وقال لرفيقه الملاح : « يا أور ــ شنابي ان هــذا نبات عجيب يستطيع أن يطيل به المرء حياته ، وسأحمله معي الى « اوروك » وأشرك معي النـاس ليأكلوه وسـيكون اسمه : « يعـود الشـيخ الى صباه كالشباب » ، وأنا سآكل منه (في أواخر أيامي) حتى يعود الي شبابي » •

وهكذا شرع الرجلان بالعودة ، ولكنهما توقفا من بعد ثلاثين ساعة مضاعفة ليمضيا الليل ، وأبصر جلجامش بركة مـاء باردة فنزل ليغتســـل في مائها ، وصادف أن حية قد اجتذبها شذا ذلك النبات فتسللت واختطفتـه واكلته ، ونزعت عنها غلاف جلدها وصارت تجدد شبابها كل عـام(*) •

(*) استطاعت الحية بفعل ذلك النبات السحري ان تجدد شبابها على الدوام بنزع جلدها كل عام • ومما لا شك فيه ان هذه الاسطورة اصل اتخاذ صورة الحية رمزا للحياة والشفاء والتطبيب عند اليونان وفي العصر الحديث • كما يصح ان نربط هذه الاسطورة باسطورة العداء الـــذي استحكم بين الحية وبين ذرية حواء من بعد حادثة الاغواء ، فقد فرض الله على آدم وحواء بالاضافة الى اخراجهما من الجنة العداء المستحكم بين الحية وبين ذريتيهما من بعد ان اغوت الحية حواء (او ان الشيطان تمثل بصورة الحية) ان تأكل من الشجرة المحرمة •

وعند ذاك جلس جلجامش وأخذ يبكي ويخاطب الملاح : « من أجل من يا أور ـ شنابي كلت يداي وأضنيت قلبي ؟ لم أحقق لنفسي مغنما ، بل حصل على المغنم (أسد التراب) »(*) • وأخيرا بعد مراحل أخرى من السفر وصلا الى الوركاء وشغل جلجامش نفسه بأعمال عمرانية في المدينة ليخلد نفسه بالذكر الحسن بعد أن اخفق في نيل الخلود الجسماني • وتعيد الأسطر الاخيرة من الخاتمة ديباجة الملحمة •

قصص أخرى صغيرة عن جلجامش

١ ـ جلجامش و « أكا » حاكم كيش :

من قصص الملاحم القصيرة التي تدور أحداثها على جلجامش واحد الحكام المعاصرين له ، قصة سومرية تروي النزاع ما بين جلجامش (الذي قلنا انه كا خامس ملوك سلالة الوركاء الاولى) وبين « أكا » (Agga) آخر ملوك سلالة كيش الاولى ، وكلاهما حكم في أواخر عصر السلالات الثاني (في حدود ٢٥٠٠ ق•م) ، وهي تصور لنا أحوال ذلك العصر السياسية ، حيث النزاع والاحتراب ما بين دول المدن التي كان يحكم فيها دويلات في آن واحد تقريبا(**) • لقد أراد « اكا » ، ملك كيش ، ان يبسط سلطانه على دولة مدينة الوركاء ، يوم كان يحكم فيها

(*) « أسد التراب » من نعوت الحية عند العراقيين القدماء •

(**) عن ايجاز الاوضاع السياسية في تاريخ العراق القديم في هذا العصر راجع كتابي : « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » ، الجزء الاول ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٣ •

الملك جلجامش . وقبل أن يشن « اكا » الحرب عليه تبدأ القصة[٤] بارساله سفارة الى الوركاء تحمل انذارا الى جلجامش بان يخضع له ويعترف بسيادة كيش على الوركاء . ولما كان جلجامش لا يستطيع أن يبت بنفسه في شؤون الدولة الخطيرة كالحرب والسلم ، استدعى اولا مجلس شيوخ المدينة وعرض عليهم انذار « أكا » وحثهم على عدم الرضوخ الى مطاليبه بل مقاومته . ولكن المجلس رأى الرضوخ والاستسلام بدلا من الحرب ، فامتعض جلجامش وعرض الامر على مجلس آخر للمدينة يتألف من المحاربين ، وكرر عليهم تحريضه على عدم الاستسلام الملك كيش بل المقاومة والحرب ، فاستجاب هؤلاء وقرروا الحرب دون التفريط بحريتهم واستقلالهم ، وتستمر الملحمة من بعد خروم فتقدم المشهد الثاني من الاحداث حين قدم « اكا » على رأس جيشه الى مدينة الوركاء وضرب عليها الحصار ، ويبدو من سياق النص ان المدافعين عن المدينة قد أخذتهم المفاجأة على حين غرة ودب فيهم الخذلان ، فاضطر جلجامش الى قبول المفاوضة والصلح ، فأرسل أحد اتباعه الى « أكا » الذي قبض عليه وأسره ، فأرسل رسولا آخر . وهنا

---

(٤) مع ان حوادث القصة ترجع كما قلنا الى عصر السلالات (النصف الاول من الالف الثالث ق.م) بيد ان زمن النسخة التي جاءت الينا عنها يعود الى ما يسمى في تأريخ العراق القديم بالعصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق.م) . وقد وجدت كسر الالواح التي تتضمن النص المسماري في مدينة « نفر » ودرسها ونشرها جملة باحثين مختصين منهم :

1. Witzel in Orientalia, V, (1936), 332 ff.
2. Th. Jacobsen in JNES, XI, (1943), 156 ff.
4. ———, in ANET, (1969)
5. Kramer, From The Tablets of Sumer (1956).

او ترجمته الى العربية من جانب كاتب هذا البحث بعنوان : « من الواح سومر » ١٩٥٨ .

6. Kramer, The Sumerians, (1963).

توجد ثغرات ومواطن ناقصة في النص ، ولكن يبدو من سياق القصة أن « أكا » قبل الصلح ورفع الحصار عن أسوار الوركاء كما يشير الى ذلك الخطاب الذي وجهه جلجامش الى « أكا » وهو ثناء ومديح ، وتنتهي القصيدة السومرية المؤلفة من زهاء ١١٥ سطرا بتمجيد جلجامش •

٢ ـ جلجامش و « ارض الحياة » :

القصة الملحمية الثانية التي تروي طرفا من اعمال جلجامش البطولية ولها صلة بملحمة جلجامش البابلية باعتبارها اصلا من أصولها دونت باللغة السومرية في عدة كسر من الالواح عثر عليها في مدينة نفر (ووجدت كسرة منها في كيش) • ويرجع زمن آخر نسخة الى العصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق•م)(٥) ، وتدور أحداثها بالدرجة الاولى على مغامرة لجلجامش في جبال الارز ولقائه مع حارس الغابة ، العفريت « خمبابا » (خواوا) • فان جلجامش وقد ادرك ان مصيره الى الموت مثل البشر الآخرين ، عزم على اتيان بعض الاعمال التي تخلد اسمه قبل أن يحل به الاجل المحتوم ، فقرر ان يذهب الى « ارض الحياة » ويقوم أيضا بقطع أشجار الارز• وبعد أن يلغ عزمه هذا الى صديقه وصاحبه «انكيدو» نصحه هذا ان يستشير الاله «اوتو» (شمش) ويلتمس منه العون لان غابات الارز تحت سلطانه وحمايته • فابدى «اوتو» العطف على جلجامش وقدم له العون في سفره المحفوف بالاخطار عبر الجبال• وجمع جلجامش في حملته خمسين متطوعا من أهل الوركاء ممن لا تربطهم رابطة عائلية ، وبعد أن هيأ أسلحة مختلفة ، عبر هو وجماعته سبع سلاسل

(٥) راجع نصها وترجمتها من جانب الاستاذ « كرامر » في :
Kramer in Journal of Cuneiform Studies, I, (1947), 3 ff.
———, in ANET, (1969).

من الجبال • ولا يعلم سير الحملة من بعد اجتياز تلك الجبال لانخرام النص •
وبعد أن يصبح النص واضحا نجد جلجامش وقد غط في سبات عميق اعاقه عن
مواصلة سفره ، ولكنه حالما استيقظ أقسم بامه الالهة « ننسون » وأبيه
« لوكال بندا » انه سيدخل « ارض الحياة » ولكن صديقه « انكيدو » استعطفه
ان يعدل عن عزمه تجنبا للمهالك والاخطار ، فان حارس غابات الارز
(خمبابا) (خواوا أو هواوا) لا قبل لاحد أن يصد هجومه • وبعد
أن شجع جلجامش صديقه وصل الاثنان الى غابة الأرز واقتطعا سبع
اشجار منها ، واقترب جلجامش من مربض « خواوا » ولكن هذا المارد ،
خلافا لما كان يتوقع ، جبن ازاء جلجامش وتضرع اليه والى الاله « اوتو »
ان يبقيا عليه ، وكاد جلجامش ان يعفو عنه ، ولكن انكيدو حرضه على
قتله ، فقتله وقطع رأسه ، وقررا ان يأخذا جثته هدية الى الاله « انليل »
وزوجته الالهة « ننليل » ، بيد أن ما يعقب هذا الموطن من القصة ناقص
غير واضح •

٣ ـ موت جلجامش :

القطعة الادبية الثالثة التي تتعلق بجلجامش قصيدة سومرية من
العصر البابلي القديم (الالف الثاني ق•م) ، لا يعلم مقدار طولها
الاصلي لانه لم يصل الينا منها سوى جزء صغير[٦] • ولكن على الرغم من
قلة ما بقي سالما من النص الاصلي فانه يلقي ضوءا كاشفا على جانب مهم من
معتقدات القوم في الموت وعالم الاموات •

يتألف النص الباقي من لوحين غير كاملين ، كل لوح يتناول موضوعا
معينا • فخلاصة الموضوع الاول ان جلجامش ادرك الحقيقة المقدرة على

---

(٦) انظر :
Kramer in BASOR, No. 94, (1944), 2 ff.
———, in ANET, (1969).

الانسان اي الموت وانه لا سبيل له في الحياة الخالدة ، بل يكفيه ان الاله « انليل » منحه الملوكية ورفعة الشأن والبطولة . ويتضمن القسم الثاني من النص موت جلجامش ورثاءه والحزن عليه ، وتعداد افراد اسرته وحاشيته : زوجه ومحظياته واولاده وخدمه واتباعه الذين ذهبوا معه الى عالم ما بعد الموت ، وذكر الهدايا التي قدمها جلجامش الى آلهة العالم الاسفل ، وفي مقدمتهم ملكة هذا العالم « ايريشكيكال » .

وهنا تتوارد الى الذهن جملة احتمالات لتفسير هذا المورد المهم من الاسطورة منها : (١) ان جلجامش صار ملك العالم الاسفل (٢) ان الاتباع والحاشية الذين تعددهم الاسطورة بانهم اصطحبوه الى ذلك العالم قد دفنوا معه احياء على غرار ما كان يمارس في حضارة وادي الرافدين في احدى فترات عصر السلالات (الالف الثالث ق.م) من دفن حاشية الملك معه كما في المقبرة الملكية في أور(*) .

اساطير وقصص ملحمية أخرى

١ ـ اسطورة الطائر « زو » :

بعد ان أتينا على ذكر النصوص الادبية التي تدور على أعمال جلجامش ومغامراته نورد قطعا أدبية أخرى تصنف في موضوع الملاحم ، منها اسطورة طريفة تعرف لدى الباحثين بعنوان الطائر « زو » ، وقد وجد لها عدة نصوص باللغة البابلية من عهود متفاوتة ، بعضها من مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » (القرن السابع ق.م) ، وبعضها من العهد البابلي القديم (مثل النص المكتشف في سوسه عاصمة بلاد عيلام، من الالف

(*) انظر خلاصة هذا الموضوع في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧٥ فما بعد .

الثاني ق٠م) ، كما وجدت اجزاء لها باللغة السومرية(٧) ٠

تدور الاسطورة على مخلوق غريب بهيئة طائر اسمه « زو »(*)، لعله أحد الآلهة ، وبوجه خاص من آلهة العالم الاسفل ، وقد سرق من الاله « انليل » « الواح القدر »(**) التي كانت مستودع قوة هذا الاله وسر قدراته الالهية(***) فتعطلت أقدار الكون ونواميسه وأصاب الآلهة الاضطراب والهلع ، فاضطر الاله « آنو » كبير الالهة ، أن يجمع أبناءه الآلهة ويطلب منهم ان ينبرى احدهم لملاحقة « زو » وقتله واسترداد « الواح القدر » منه٠ لقد طلب من عدة آلهة ان يضطلعوا في الامر ولكنهم احجموا خوفا من بطش الاله « زو » الى ان تمكن احد الآلهة من القضاء على « زو » واسترد منه الواح القدر وأعادها الى « انليل »٠ وهناك اختلافات في الروايات المختلفة عن اسم الاله الذي قام بتلك البطولة ، على انه يمكن حصر الامر في الهين هما «ننورتا» (ننجرسو ايضا ابن الاله انليل) ، وفي رواية سومرية كان البطل « لوكال بندا » ، وفي ترتيلة للاله « مردوخ » منسوبة الى الملك الآشوري « آشور بانيبال » جعل مردوخ ، آله بابل ، بطل الآلهة في تلك الازمة العصيبة التي حلت بهم ٠

---

(٧) نشرت نصوصها المسمارية في :
CT. XV, (1902), 39 ff.; RA, XXXV, (1938), 20 ff.; Ibid., LVI, (1952)
وترجماتها في البحثين الاتيين :
Speiser in ANET, (1969), 111 ff.
Grayson in Ibid., 517 ff.

(*) ارتأى بعض الباحثين أن يقرأ هذا الاسم بهيئة «آنزو» (Anzu)
L. Oppenheim, Ancient Mesopotamia. (1965), 269.

(**) مصطلح « الواح القدر » أو « لوح الاقدار » و « لوح السلطة الالهية » في اللغة البابلية « دب ــ شماتي » (Dub Shimati) وكان من يحوز عليها من الالهة يحصل على السلطة المطلقة على الكون والالهة ٠

(***) قارن اسطورة الخليقة البابلية ، اللوح الاول ، السطر ١٠٦ ٠

٣ ـ صعود « ايتانا » الى السماء :

الاسطورة الثانية التي نذكرها في هذا الباب من أدب العراق القديم تعرض لنا أقدم حلم في الطيران عند البشر • وكان اسم بطل الاسطورة « ايتانا » (Etana) الذي ورد ذكره في اثبات الملوك السومرية على انه الملك الثالث عشر من سلالة « كيش » الاولى التي كانت أول سلالة حكمت البلاد من بعد الطوفان بحسب رواية تلك الاثبات ، وذكرت ازاء اسمه العبارة : « ايتانا الراعي ، الذي عرج الى السماء ووطد جميع البلاد » • وقد صورت اسطورة صعوده الى السماء في الاختام الاسطوانية لاسيما في اختام العصر البابلي القديم حيث يظهر مشهد انسان (راع على الاكثر) على ظهر نسر[٨] • وكانت هذه الاسطورة من الاساطير التي شاعت في أدب حضارة وادي الرافدين ، ووجدت نصوصها المدونة باللغة البابلية في ثلاث نسخ : (١) نسخة من العصر البابلي القديم (الالف الثاني ق•م) (٢) نسخة من العصر الآشوري الوسيط (المنتصف الثاني من الالف الثاني ق•م) (٣) نسخة من العصر الآشوري الحديث (القرن السابع ق•م) ، من مكتبة الملك « آشور بانيبال » الشهيرة في نينوى[٩] •

(٨) انظر مثل هذه المشاهد في الاختام الاسطوانية المنشورة في :
Frankfort, Cylinder Seals, (1939), 183, pls. XXIV-H

(٩) نشرت هذه النسخ في :
١ ـ النص البابلي القديم :
Langdon in Babyloniaca, (1931), Pls. I-XIV
٢ ـ النصان الاشوريان :
Ebeling in Archiv für Orientforschung, XIV, (1944), Pls. IX-X.
واحدث ترجمة في :
Speiser in ANET, (1969).
والى العربية في مجلة « سومر » (١٩٥١)

ملخص الاسطورة :

تبدأ الاسطورة بديباجة تروى كيف أن الألهة فكروا في تدبير شؤون البشر يوم لم يكن يحكمهم ملك ، فلم يكن التاج ولا الصولجان المرصع بأحجار اللازورد ولا محجن الراعي ، اذ كانت شارات الملوكية جميعها مودعة في السماء عند الاله « آنو » ، وبعد انخرام في النص تبدأ احداث الاسطورة الرئيسية ، وهي أن ثعبانا كان يعيش في ظل شجرة يرجح انها شجرة الميعة ، وفي الوقت نفسه كان نسر قد بنى عشه فيها • وقد عقد الثعبان والنسر عهدا ما بينهما مقسمين باسم الآله « شمش » الا يعتدي احدهما على الاخر، ويبر أحدهما الآخر • وهكذا عاش الجاران في صفاء ووئام ، فكان اذا حصل احدهما على صيد شارك فيه جاره • وبعد أن شب صغار النسر، فقست صغار الثعبان ايضا، وهنا تغيرت نوايا النسر فبيت الشر لجاره الثعبان ، وحنث بقسمه واكل صغاره • ولما لم يجد الثعبان صغاره في جحرها صار ينبش الارض عبثا وتملكه الحزن والاسى ، وادرك ان النسر قد غدر به ، فقصد الآله شمش وبكى امامه وشكا له غدر النسر وحنثه بالقسم ، فأشار الاله شمش على الثعبان أن يذهب الى جبل يجد فيه ثورا وحشيا قد ربطه الاله هناك ، وعليه ان يبقر بطنه ويختبىء في داخله ، فاذا جاء النسر ليأكل من لحمه عليه أن يمسك به وينتتف ريشه ويكسر جناحيه ويرميه في حفرة حتى يموت جوعا • ففعل الثعبان ما أشار عليه الاله « شمش » وجاء النسر مع صغاره ليأكلوا من لحم الثور ، فنصحه فراخه الا يأكل من الثور خشية ان يكون الثعبان قد اختبأ في بطنه ، ولكن النسر لم يأبه لتحذير صغاره ، ولما بدأ ينهش من لحم الثور وبلغ جوفه امسك به الثعبان من جناحيه ، وعبثا حاول ان يستعطفه فقد أصر الثعبان على انزال العقاب به مخافة ان يغضب الاله شمش الذي دبر عقوبة النسر• فكسر جناحيه ورماه في حفرة • وهنا أخذ النسر يستعطف الاله « شمش »

ولكن هذا الاله لم يشأ ان يساعده مساعدة صريحة • فقد حدث ان رجلا اسمه « ايتانا » كان يسعى للحصول على نبات من السماء له خاصية الحمل لان امرأته كانت عاقرا ، ولما استعطف « ايتانا » الاله ان يدله على السبيل الذي يحصل به على النبات نصحه أن يذهب الى حيث النسر ملقى في الحفرة • فجاء اليه « ايتانا » واتفق معه أن يخلصه من الموت على أن يتعهد بان يجعله يمتطي ظهره فيصعد الى السماء • وبعد أن تعافى النسر ونبت ريشه واستعاد قونه امتطى ايتانا ظهره فطار به الى السماء ، واخذ يرتفع ويرتفع ، وفي كل مرة كان النسر يطلب اليه ان ينظر الى حجم الارض • فشاهدها مرة كأنها التل وبحارها كالانهار الصغيرة ، واستمرا في الصعود حتى بلغا مدخل سماء « آنو » (وهي السماء السابعة) • ولكن ينخرم النص عند هذا الموضع فلا يعلم هل حصل « ايتانا » على النبات الذي يساعد على الحمل ، على ان المرجح انه حصل على مبتغاه كما تشير الى ذلك دلالة اثبات الملوك السومرية حيث ورد فيها اسم الملك « باليخ » على انه ابن « ايتانا » الذى خلفه في الحكم في سلالة كيش الأولى •

ملاحظة :

يجدر ان ننوه في ختام كلامنا على هذه الاسطورة الطريفة بالشبه الواضح بما جاء في الاسطورة اليونانية الخاصة بالنسر والجعل وما حصل بينهما من عداء بسبب التهام النسر لبيوض الجعل وطيران الجعل الى السماء لعرض شكواه على كبير الآلهة اليونانية « زوس » • وقد استخدم الروائي اليوناني الشهير « أرسطوفانيس » هذه الاسطورة في روايته الكوميدية « السلم » اذ جعل بطل السلم « تريكوس » (Trygaeus) يطير الى السماء على ظهر جعل ليستنجد بالاله « زوس » ليحل السلام في بلاد اليونان(١٠) •

---

(١٠) راجع مجموعة الروايات اليونانية في :
Oates, O'Neill, The Complete Greek Dramas, II, (1938). "Peace", 671 ff.

ونذكر كذلك الاسطورة اليونانيــة التي تروى كيف ان الالــه « زوس » رفع اليه الشاب الجميل « كانميده » (Ganymede) على ظهــر نسر الى السماء ليكون ساقيا له •

وهناك اسطورة اخرى عن « ايتــانا » تروى نزوله الى العالــم الاسفل[١١]• ويوجد بشر آخر في اساطير حضارة وادي الرافدين صعد الى السماء هو « أدابا » الذي سنذكر اسطورته في الفقرة التالية :

٣ ـ اسطورة « **أدابا** » :

القطعة الادبية الثالثة في هذا الموضوع تتضمن اسطورة اشتهرت في حضارة وادي الرافدين وفي مراكز الحضارات المجاورة ايضا حيث وجدت نسخة لها في تل العمارنة (مصر الوسطى) من القرن الرابع عشر (عصر العمارنة) ، وتعرف بعنوان قصة «أدابا» ، وهي على قدر كبير من الاهمية بالنسبة الى آراء القوم في أصل الشر وطبيعه الانسان ومسألة الخلود وعلاقة الانسان بالآلهة • وموضوعها الاساسي ، مثل ملحمة جلجامش ، يدور على تعذر نيل الخلود من جانب الانسان وفشله في الحصول عليه حتى عندمـا وافقت الآلهة على منحه اياه • والى هذا فللاسطورة اهمية خاصة لوجــود اوجه شبه بين روايتها وبين موضوع سقوط ادم واخراجه من الجنة كما جاء في التوراة • وقد رأى غير واحد من الباحثين في اسم بطل الاسطورة « أدابا » صيغة لفظية أخرى لاسم آدم ، وان من معاني كلمة « ادابا » و « ادب » في البابليه الانسان[١٢]• وقد اخفق بطل الاسطورة هذا[١٣] في

---

(١١) انظر :
S. N. Kramer, The Sumerians, (1963), 44

(١٢) ذكر الباحث « ايبلنغ » ان بحوزته ثبتا بالعلامات المسمارية غير منشور ورد فيه لفظ a-da-ap/b مرادفا لكلمة « انسان »
Ebelling, Tod und Leben, 7a.

(١٣) نذكر فيما يأتي الترجمــات والدراسات الاساسية عن نص الاسطورة :

1. Speiser in ANET, (1969).

الحصول على الخلود مثل جلجامش ولكن بسبب خطأ في حساب أحد الآلهة او خداعه . واذا كان جلجامش قد عوض عن اخفاقه في نيل الخلود بما قام به من جلائل الاعمال التي خلدت ذكره فان الآلهة عوضت « أدابا » بان صيرته في مقدمة حكماء البشر ، على رأس الحكماء السبعة الذين اطلق عليهم العراقيون القدماء اسم « ابكلو » (Apkallu) (*) .

ملخص الاسطورة :

كان « أدابا » ، حكيم مدينة « أريدو » قد خلقه الاله « ايا » انموذجا للبشر الكامل ، واحبه ومنحه الحكمة والمعرفة ، فكان عبدا صالحا لاينى عن اقامة الشعائر الدينية وتقديم القرابين للاله « ايا » ، كما كان موضع اعتماد أهل « أريدو » . وكان يمتهن صيد السمك في سفينته ، فكان يجهز « اريدو » ومعابدها بالسمك ، واشتهر بحذقة في الملاحة والصيد في البحر . وحدث مرة ان الريح الجنوبية هبت وهو يصطاد في سفينته فاغرقتها . وقد جسم العراقيون القدماء هذه الريح وتصوروها على هيئة طائر ضخم ، فامسك « أدابا » بالطيروكسر جناحيه ، فسكنت الريح الجنوبية فلم تهب واضطرب نظام الكون واحس بذلك كبير الآلهة « آنو » ، فاخبره وزيره المسمى « ايلابرات » (Ilabrat) بان « أدابا » ، ابن الاله « ايا » هو الذي كسر جناحي الريح الجنوبية ، فاستشاط « آنو » غيظا ، وأمر ان يحضر أمامه « أدابا » ليعاقبه على فعلته . ولما علم بالامر الاله « ايا » ، حامي أدابا ، هيأه

2. Clay, Yale Oriental Series, (1922). P's. IV-V.
3. Knudtzon, Die Al-Amarna Tafeln, (1915), 965 ff.
4. Thompson, The Epic of Gilgamesh, (1930), p. 131.
5. A. Heidel, The Babylonian Genesis, 147 ff.

(*) ومنه الكلمة المستعملة في العربية « إفكلل » . حول حكمة « أدابا » واسطورة الحكماء السبعة ، انظر البحث الاتي :
E. Reiner, "The Etiological Myth of The Seven Sages" in Orientalia, 30 (1961), 1 ff.

للمثول أمام « آنو » بان جعله يطيل شعر رأسه ويلبس ثياب الحداد واوصاه قائلا : « يا أدابا ستذهب الى حضرة الاله « آنو » وستأخذ طريقك الى السماء ، وستجد عند مدخل سماء « آنو » الالهين الحارسين « تموز » و « كزيـدا » (Gizzida) وسيسألانك لم جئت وعلام انت اشعث الشعر مرتديا ثياب الحزن ؟ فاخبرهما انك حزين على الهين اختفيا من الارض ، وسيسران لقولك ويتشفعان لك عند « آنو » . واذا مثلت امام آنو فسيقدم لك خبز الموت فلا تأكله ، ويقدم لك ماء الموت فلا تشربه . اما اذا قدم كسوة فلا بأس عليك أن ترتديها ، واذا قدم لك زيتا فامسح به جسمك ».

وهكذا عرج « أدابا » الى السماء وبلغ سماء الاله آنو ووجد الالهين المذكورين على نحو ما اخبره « ايا » ومثل في حضرة الاله العظيم . ولما سأله « آنو » لم كسر جناحي الريح الجنوبية اجابه بان هذه الريح اغرقت سفينته التي يصطاد بها وحرمته من كسب عيشه، وسانده الالهان المذكوران ، فرق له قلب آنو ، ويبدو انه توسم فيه رجاحة العقل والحكمة فقرر بدلا من عقوبته ان يطعمه طعام الحياة الخالدة ويسقيه ماء الخلود ، فيجعله خالدا مثلما هو حكيم . ولكن يا لخسران البشرية رفض « أدابا » تناول ما قدم اليه من خبز وماء فعجب « آنو » لامره ، ولما سأله لم امتنع عن ذلك أخبره ان « ايا » هو الذي اشار عليه بذلك . فغضب « آنو » ، ولعن أدابا قائلا : « لانك لم تأكل من طعام الحياة ولم تشرب من ماء الحياة فلن تنال الحياة الخالدة أيها البشر الناقص المعوج ! » . وهكذا طرد أدابا يائسا من سماء « آنو » ، واخفق مثل جلجامش ، في نيل الخلود .

ملاحظة :

قد يتبادر الى ذهن القارىء تساؤل طريف هو : ترى هل تعمد الاله « ايا » ان يغش أدابا ليحرمه الخلود أو انه اخطأ الحساب فيما سيحدث من تبدل في قرار الاله « آنو » ؟ ومهما كان مغزى هذه الاسطورة وفكرتها

الاساسية فهناك اوجه شبه واضحة ما بينها وبين اسطورة طرد آدم من الجنة على الرغم من اختلاف السبب الذي أخرج آدم من اجله من الجنة • فان آدم ، بحسب رواية التوراة ، كان يعيش منعما في جنة عدن شبه مخلد وقد طرد منها لما عصى الله وأكل من الشجرة المحرمة (شجرة المعرفة) واصبح يتميز بميزات الالوهية الاساسية وهي المعرفة فخشي الله ان يأكل من شجرة الحياة فيكون خالدا ويصبح مثل الآلهة فطرده من الجنة قائلا « لقد اصبح الانسان واحدا منا يعرف الخير والشر والان لكيلا يمد يده ويأكل من شجرة الحياة ويعيش الى الابد فطرده الله من جنة عدن »[*] •

٤ ـ اسطورة اله الطاعون « ايرا » :

وهذه قطعة أدبية شعرية رابعة باللغة البابلية لم يسلم من اصل نصها سوى الثلثين تقريبا ، ويرجح انها دونت على خمسة الواح[١٤]• واغلب الظن ان القصيدة نظمت على اثر غزو العيلاميين لبلاد بابل الذى أنهى حكم السلالة الكشية (سلالة بابل الثالثة) في حدود القرن الثاني عشر ق•م وموضوعها الاساسى وصف ويلات الحرب والامراض كالوباء والطاعون التي هي من اعمال الاله « ايرا » (Erra. Irra) ، وبالمقابلة كان السلام والخير من صنع الاله « مردوخ » ، اله بابل • وقد سلط الاله « ايرا » الوباء على بابل وغزو الاعداء لها بعد ان خدع الهها مردوخ وأبعده عن مدينته اذ اغراه بالنزول الى بعض اجزاء الارض السفلى العائدة الى الاله « ايا » ليحصل من هناك على بعض المواد الثمينة وعلى الصناع المهرة ليصنعوا

(*) التوراة ، سفر التكوين •

(١٤) راجع عنها :

1. B. Kienast in Zeitschrift für Assyriologie, 54, (1961), 24 ff.
2. L. Oppenheim, Ancient Mesopotamia, (1965), 268 ff.

له ملابس واثاثا • وهكذا خلا الجو لاله الطاعون ان يعيث فسادا في بلاد بابل فسلط عليها الحرب والدمار والطاعون • ولكن لاسباب غير معروفة خفف من بطشه وكف عن التدمير وصار يبشر بلاد بابل بعودتها الى سابق رخائها وازدهارها • وخصص اللوح الرابع من نص الاسطورة لرثاء تدمير بابل ، وهو رثاء اشترك فيه الهها « مردوخ » ويضاهي قصيدة الرثاء السومرية في رثاء مدينة « اور » وسيمر بنا ذلك في باب الرثاء •

وتتميز هذه القصيدة بانها من بين النصوص الادبية الفريدة التي ذكر اسم ناظمها في ذيل القصيدة بهيئة « كابت — ايلاني — مردوخ » (Kabit-ilani-Marduk) الذي يقول ان الاله « مردوخ » نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة وانه لم يضف اليها او ينقص منها شيئا •

٥ — قصة سرجون الاكدي :

سرجون الاكدي من مشاهير ملوك العراق القديم ، وكان اول من تسمى بهذه التسمية الاكدية (السامية) من بعد عصر السلالات في حدود ٢٣٧٠ ق•م ، وتعني « الملك الصادق أو الملك الحق (شرُّو — كين) وقد نالت هذه التسمية شهرة واسعة بين ملوك العراق القديم بحيث اتخذها ملكان من مشاهير الملوك الآشوريين • ومع انه مما لا شك فيه ان هذا الملك دون اعماله ومآثره بيد انها لم يأت الينا منها نصوص يعتد بها لحال التاريخ ، وان اغلب النصوص الخاصة بحكمه نسخ من العصور المتأخرة ، واقدمها النسخ التي خلفها كتبة مدينة « نفر » التابعون لمعبد الاله « انليل » من العصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق•م) ، وكان من بين هذه النصوص المتأخرة الاشارات المهمة الواردة فيما يعرف بنصوص الفأل (Omen Texts) • ومن المدونات الطريفة التي ترجع في زمنها الى العصر الاشوري الحديث (القرن السابع ق•م) قصة او اسطورة عن اصل سرجون وطفولته اشتهرت في مآثر حضارة وادي الرافدين وهي ذات

شبه كبير بالاسطورة الخاصة بطفولة النبي موسى المشهورة في التوراة ٠

جاءت هذه الاسطورة[١٥] على لسان هذا الملك ، أي بضمير المتكلم ، اذ يقول : « انا سرجون ، الملك العظيم ، ملك اكد (اكاده) ٠٠٠ كانت أمي كاهنة عليا ، ولم اعرف أبي الذي كان متجولا ٠ وكان اعمامي يعيشون في التلال ، واصلي من مدينة « آزوفرانو » (الزعفران) على الفرات ٠ وحملت بي أمي ووضعتني سرا واخفتني في سلة مقيرة من الحلفاء وغطتها ورمتني في الماء ، فلم يغرقني النهر بل حملني الى « آكي » ، ساقي الماء ، فانتشلني « آكي » بدلوه ، ورباني واتخذني ولدا وعينني بستانيا عنده ٠ وبينما كنت أعمل بستانيا احبتني الالهة عشتار فتوليت الملوكية مدة ٤ ٠٠٠٠ وحكمت « ذوى الرؤوس السود » ، وقهرت جبالا كثيرة بفؤوس البرونز وغزوت الاقاليم البحرية واستوليت على دلمون ٠٠٠ »[*] ٠ وينتهي النص بخروم فلا يمكن ترجمته ٠

ملاحظات :

١ ـ أغلب الظن ان السبب الذي دفع أم سرجون الى ان ترميه في الماء انها كانت من طبقة عليا من الكاهنات تدعى الواحدة منهن « اينتم » (Entum) ، وقد حرم عليهن الزواج مادمن في اثناء خدمتهم الدينية ، كما حرم عليهن انجاب الاطفال على غرار نظام الكاهنات العذارى (Vestals)

---

(١٥) عن النص المسماري للاسطورة راجع :
CT., XIII, (1901), Pl. 42-43.
وترجماتها والتعليق عليها :
L. King, Chronicles Concerning Early Babylonian Kings, II, (1907), 87 ff.
Speiser in ANET, (1969)

(*) حول تعيين « دلمون » بالبحرين انظر الاسطورة السومرية المعنونة « انكي وننخرساك » التي مر ذكرها ٠

في رومة • وجرى الباحثون على ترجمة هذا المـــورد من النص بعبــارة (Changling) « أمي وضيعة » ولـكن الدراســـات الحديثـة ابانت ان المصطلح البابلي الوارد بهيئة (enitu) ليس الا صيغة أخرى لمصطلح (entu) الذي قلنا انه يعني كاهنة عليا(*) •

٢ – توجد قصة أخرى مهمة عن سرجون تتعلق بفتوحاته البعيدة الى الاجزاء الشرقية من بلاد الاناضول المسماة « كبدوكية » ، وقد عنونت هذه القصة القصيرة بعنوان « ملك الحرب » (وبالبابلية شار تمخاري)(١٦) ولا يعلم زمن تدوينها ، ولكن النسخة التي وصلت الينا عنها وجدت في احـد الالواح المسمارية التي عثر عليها في تـــل « العمارنة » (موضع عاصمة الفرعون المصري اخناتون في مصر الوسطى من القرن الرابع عشر ق•م) ، مثل اسطورة « أدابا » التي مر ذكرها • كما وجدت لها نسخة باللغـــة الحثية في « بوغازكوي » (موضع العاصمة الحثية حاتوشاش) • وقد اشار الى فتوح سرجون الاكدي في الاناضـــول الملك الحثي المسمى « حــاتو شيليش » الاول (١٦٥٠ ق•م) •

وخلاصة هذه الملحمة القصيرة ان جماعات من التجار الاكديين كانوا يقيمون في المدينة الاناضولية المسماة « بور شخندا » ارســـلوا الى الملك سرجون يستغيثون به لحمايتهم من الاضطهاد من جانب حاكم تلك المدينة ، فخف سرجون لنجدتهم وارسل حملة حربية الى تلك البلاد النائية ، ولما بلغ المدينة استسلم له الحاكم ، ويبدو ان معاهدة بالتبعية فرضت عليه(١٦) •

(*) راجع معجم شيكاغو الآشوري (Chicago Assyrian Dictionary) تحت مادة (enu)

(١٦) حول هذه القصة انظر :

Albright, "The Epic of the King of Battle" in JSOR, (1923), 1 ff. ANET, (1969)

٦ ـ اسطورة « نرام ـ سين » :

وجاء عن الملك الاكدي « نرام ـ سين » (٢٢٥٤–٢٢١٨ ق٠م) ، حفيد سرجون المار الذكر قصة أو اسطورة تروى جانبـا من الاحداث والكوارث التي سببت القضاء على السلالة الاكدية فيما بعد ، ومنها هجوم بعض الاقوام الجبلية الهمجية من الانحاء الشرقية مثل الكوتيين • وقـد وجدت اجزاء من هذه القصة في مكتبة الملك الاشوري « آشور بانيبال » (القرن السابع ق٠م) واجزاء اخرى من العصر البابلي القديم ، ونسخة من الموضع الحثي الاثري المسمى « سلطان تبة » في منطقة حران[١٧] •

ملخص الاسطورة :

بعد ديباجة كثيرة الخروم يقدم « نرام ـ سين » نفسه على انه حاكم صالح ، ولكن رغم ذلك وقعت في عهده عـدة كوارث في البلاد من بينهـا غزوها من جانب أقوام متوحشين غريبي الهيئآت ، وجوههم وجوه الغربان واجسامهم اجسام الطيور ، وقد انحدروا من أواسط الجبال ، وكانوا ذوى قوة وبطش وجموعهم غفيرة ، واسم ملكهـم وأبيهـم « آنو ـ بانيني » (Anubanini) واسم ملكتهم وامهم « ميليلي » (Melili) ، ويقودهـم سبعة اخوة ، وقد زحفت جموعهم من الجبال الشمالية المحاددة لتخـوم الامبراطورية الاكدية ، واكتسحت ، وهي في طريق زحفها ، بلاد الاناضول ثم بلاد « سوبارتو » (بلاد آشور) وبلاد الكوتيين (شمالي العراق) ، ثما اجتاحت بلاد عيلام وبلغت في زحفها منطقـة الخليج العربي فغـزت « دلمون » او « تلمون » (البحرين) وبلاد « مگان » و « ملوخا » ، فعـم

---

(١٧) انظر المراجع الاتية :

1. Gurney, "The Cuthean Legend of Naram-sîn" in Anatolian Studies, 5, (1955), 93 ff., IBID., 6, (1956), 163 ff.
2. Finkelstein, "The So-Called Old-Babylonian kuthan Legend" in JCS, 11, (1957), 83 ff.
3. ANET, (1969).

الاضطراب والرعب في بلاد اكد واسقط في يد الملك « نرام ـ سين » الذى لم يعرف هل كان اولئك الاقوام بشرا او شياطين ، فارسل احد قـواده يستطلع له جلية الامر ، وأوصاه أن يخز بعضهم بالسلاح وينظر هـل تخرج من اجسادهم دماء مثل البشر ، ولما خرجت الدماء وتيقن الملك من كونهم بشرا استخار الفأل هل يهاجمهم ، ومع ان نتيجة العرافة او الفأل لم تكن مشجعة ، هاجمهم فحلت بجيوشه الكوارث ، اذ كانوا يقضون على الجيوش التي ظل يرسلها طوال ثلاثة اعوام • وفوق هذا حل في البـلاد القحط والمجاعة والطاعون والطوفان • وفي السنة الثالثة تدخل في الامر الاله « ايا » واقتنع الآلهة أن يكفوا عن الامعان في تسليط الويلات والكورث عـلى البـلاد ، فاستـجابوا لذلك واشعروا « نرام ـ سين » عـن طـريق توجيه فأل حسن في رأس السنة الجديدة • وهكذا يبدو ان الاموراستقامت لنرام ـ سين فاستطاع أن يصد حشود اولئك البرابرة • وعـلى الرغم من انخرام النص في هذا الموطن من الاسطورة الا ان سياق القصة يشير الى انه استطاع ان يأسر جماعة منهم ، ولما اراد تتلهم منعتـه الآلهة وامرتـه بالابقاء عليهم احياء ليكونوا تذكارا للاله « انليل » على ما احـدثه اولئك البرابرة من شر ودمار فينتقم منهم ويدمر بلادهم •

٧ ـ قصة « اينمركار » وحاكم اقليم « أرتا » :

اينمركار (Enmerkar) كان احد حكام العراق القدامى ، على انه الملك الثاني من سلالة الوركاء الاولى في عصر السلالات الثاني ، مطلع الالف الثالث ق•م• وذكرته اثبات الملوك « السومرية » انه هو الذى شيد مدينة « اوروك » (الوركاء) وحكم ٤٢٠ عامـا • والمرجح ان عبـارة « شيد مدينة اوروك » تشير الى ان هذا الملك جمع ما بين القسمين الرئيسيين اللذين كانت تتألف منهمـا مدينـة الوركاء في الادوار الاولى من عصر

السلالات الـــذى ذكرناه • فالقسم الاول يدعى « كلاب » او « كلابا » والثاني « اى ــ أنا » ، وكلاهما ذكر في ملحمة جلجامش •

وقد جاءتنا من العصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق•م)[١٨] قصص او ملاحم قصيرة باللغة السومرية عن اعمـــــال « اينمر كار » البطولية ، اشهرها القصة التي تدور على النزاع ما بين هذا الحاكم وبين حاكم الاقليم المسمى « أراتا » (Aratta) احد حكام الاقليم الجبلي في الاجزاء الغربية من ايران ، لان « اينمركار » كان يريد اخضاع ذلـــك الحاكم سلما او حربا لضمان الحصول على بعض المواد الاولية التي كانت تحتاج اليها مدينته الوركاء ، لاسيما بعض الاحجار الكريمة مثـل حجر اللازورد (Lapis Lazuli) ، وكان اقليم « أراتا » يقع على طـرق القوافل التاريخيـــة الى مصادر تلك المـوارد • ولعـل هذه اقـدم اشارة تأريخية الى الاتصالات التجارية ما بـــين وادي الرافدين وبين الاقاليـــم الشرقية ، وعلى هذا فهي ذات دلالة على قدر كبير من الاهمية تلقي ضـــوءا على نشاط حضارة وادي الرافدين في شؤون التجارة الخارجية والاتصالات البعيدة لضمان الحصول على المواد الخام التي كانت تفتقر اليهـــا ، الامر الذى جعل النشاط التجاري العماد الثاني الذى قامت عليه تلك الحضارة من بعد الزراعة ونظام الري •

---

(١٨) عن ترجمة القصة والتعليق عليها انظر :
S.N. Kramer, The Sumerians, (1963).
———, From The Tablets of Sumer, (1956).

الفصل الرابع

ادب الحكمة

بعد ان اوردنا اشهر النصوص الادبيـة التي صنفناها تحت موضوع الخليقة واصل الاشياء ثم النصوص الخاصة بأدب البطولة والملاحم ، نعرض القطع الادبية التي تدخل في باب الحكمة (Wisdom Literature) وتتضمن الوصايا والحكم والامثال وموضوع الخير والشـــر وقضية مـا يصطلح عليه « العدل الالهي » (Theodicy) • وقد خلف ادباء العراق القديم نصوصا ادبية في هذا الباب تضاهي في مستواها الادبي الفني وآرائها والمسائل التي عالجتها ما انتجته الآداب العالمية المشهورة من هذا النوع من النتاج الفكري • كما ان النصوص التي وصلت الينا منها ، ومعظمها باللغة البابلية ، تعتبر نصوصا مطولة بالمقارنة مع انواع القطع الادبية الاخرى • واشتهرت في موضوع العدل الالهي والخير والشر قطعتان مهمتان تناولتـا تبرير ما يحـل بالعبد الصالح من محن وويلات على الرغم مـن انه يلتزم التعاليم والشعائر الدينية واوامر الآلهة • ولكن كلا منهما يحل هذه القضية حلا يختلف عن الآخر • فالقطعة الادبية الاولى التي يمكن ان نعنونهـــا « أيوب البابلي » ترى ان ما يحل بالعبد الصالح من ويلات انما هو امتحان وبلوى الهية للكشف عن مدى قـــوة عقيدته وصبره ورضوخه لقضـاء الآلهة • اما القطعة الثانية فانها تنطوي على التشكك والسخرية في قيم الحياة الانسانية وفي اقدار الآلهة • ولنبدأ بالقطعة الاولى :

١ ــ قصة « ايوب » البابلي :

وهي قصيدة بابلية عنوانها « لامجدن رب الحكمة » ، وفي اللغـة البابلية « لدلل بعل نيميقي » (ludlul bêl nemeqe) ، والمقصـــود برب الحكمة أو سـيـــد الحكمة اله بابل « مردوخ » • ويرجح ان بطل القصة كان احد الوجهاء ، أو الامراء البابليين اسمه « شبسي ـ مشري ـ نرجال » • وقد اطلق عليها كثير من الباحثين « أيوب البابلي » لاوجه الشبه الواضحة بينها وبين قصة أيوب المشهورة في التوراة ، كمـــا سميت بعنوان « التقي

المعذب » • وتشير خصائصها اللغوية الى ان زمن تدوينها يرقى الى العهد الكشي (المنتصف الثاني من الالف الثاني ق•م) ، ويبلغ مجموع أبيات القصيدة زهاء (٥٠٠) بيت ، وقد دونت في الاصل على اربعة الواح[١] •

موجز القصة :

نظمت القصيدة على هيئة مناجاة فردية (monologue) لشخص صالح متعبد نزلت به ، رغم ذلك ، الويلات والكوارث • فيقول بعد مقدمة او ديباجة لم يبق منها سوى تمجيد الاله « مردوخ » : « لم اعرف في حياتي سوى العمل الصالح والعبادة ، وشغلت افكاري بالتضرع الى الآلهة والتضحية والتقرب اليها ، وكانت اوقات عبادة الآلهة سرورا لقلبي ، والايام التي أسير فيها في مواكب الآلهة مكسبي ونصري في الحياة ، ويبعث تمجيد الملك المسرة لقلبي ، والموسيقى التي تعزف له مثار غبطتي وسروري • والزمت اهلي واتباعي مراعاة شعائر الآلهة وعبادتها ، وعلمت الجند طاعة القصر ، لان هذه الاعمال تسر الآلهة •••• » •

ولكن رغم صلاحه وتقواه نزلت بساحته المصائب والنكبات ، فقد تخلت عنه الآلهة وغضب عليه الملك وتآمرت عليه الحاشية واصبح وحيدا منبوذا ، وفتكت بجسمه الامراض : « لقد تمكن مرض « آنو » من جسمي وغطاه كالرداء ، اذناي مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان ، وأصاب جسمي الضعف والوهن ، واصبح السوط المسلط علي يرعبني ويعذبني ، وصار معذبي يطاردني في النهار ويسلبني الراحة في الليل • لقد خذلني الاله ولم يتقدم اله لعوني ، ولم تعطف علي الهتي فتخلصني من مصائبي • حسبني الجميع انني ميت كأن القبر مفتوح أمامي فنهبوا أموالي ، فرح بي حسادي وشمت بي اعدائي ولم يستطع السحرة والمعوذون مساعدتي •••• » •

(١) انظر الدراسات الأساسية التالية :

1. Pfeiffer in ANET, (1969).
2. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).

ان هذه الحالة واضحة عن عبد صالح تقي يعبد الآلهة ، ولكنه مع ذلك احاطت به الويلات والنكبات مما يناقض ما يؤكده الكهنة ان العبد الصالح المطيع للآلهة يجزى على اعماله ويغدق عليه الخير والبركة . فكيف يفسر هذا التناقض ؟ اذا رجعنا الى نص القطعة وجدنا ان ناظمها يقدم حلين لهذه المشكلة التي تثير الشكوك في العدل الالهي . فالحل الاول نستطيع ان نسميه الحل العقلي والثاني الحل العاطفي . فالحل العقلي يدور على تعذر تطبيق مقاييس القيم البشرية على اعمال الآلهة وتصرفاتها ، لان الانسان ضئيل قاصر النظر لا يستطيع ان يدرك حكمة الآلهة من وراء اعمالها ، فان ما يبدو صحيحا فيستحق الثناء والاستحسان في نظر الانسان قد يكون شيئا تافها محتقرا باعين الآلهة .. فمن ذا الذي في وسعه ان يدرك كنه فكر الآلهة في اعماق السماء. ان افكارالآلهة كالمياه العميقة، فمن ذا الذي يستطيع سبر اغوارها ؟ وكيف يستطيع البشر ، وهم محفوفون بالظلام ، ان يفقهوا قصد الآلهة وطرقها ؟

وخلاصة ما يريد ان يقرره ناظم القصيدة ان احكام الانسان ومقاييسه قاصرة ناقصة ، فهو مخلوق ابن ساعته : « فان من ولد امس قد يموت اليوم ويغمره الظلام في لحظة قصيرة وقد يكون الفرد في لحظة أخرى فرحا يغني ، ولكنه سرعان ما ينـدب ويبكي . وبين الصباح والمساء تتغير حال الانسان ومزاجه . والبشر حين يجوعون يصبحون مثل جثث الموتى ، وحين يتملأون شبعا ينافسون آلهتهم . اذا واتتهم الايام تعالوا كانهم يريدون الصعود الى السماء ، واذا نزلت بهم نازلة هبطوا الى درك العالم الأسفل » .

ولكن رغم هذا التبرير العقلي لحالة العبد الصالح المعذب فان القلب لا يزال متشككا ، فيعرض ناظم القصيدة الحل الثاني الذي نوهنا به وفحواه ان العذاب الذي يصيب العبد الصالح لا يظل ملازما له الى الابد ، بل انه

امتحان له من الآلهة لاختبار صبره وتعلقه بالآلهة والالتزام باحكامها وقبول اقدارها[٢] ، وهكذا كانت خاتمة بطل هذه الملحمة من بعد مـــا عاناه من نكبات وامراض ، فانه صبر مثل ما فعل « أيوب » التوراتي فقررت الآلهة اعادته الى حاله السابقة من الصحة والثروة والجاه • لقد رأى ثلاثة احلام ظهـر له في أحدها شـاب جميل ، ولانخرام النص لا يعلم ماذا أراد الشاب ان يبلغه • وفي الحلم الثاني رأى كذلك شابا جميلا اجرى له التعـاويذ والرقى لطرد الشر وانهاء عذابه ، وظهرت له في الحلم الثاني امرأة كأنها الملكة أو الآلهة ، بشرته صراحة بقرب لخلاصه ، وظهر من بعدها كاهن معوذ يحمل لوحا من الاله « نقش بامره لتخليصه من محنته واعادة الصفاء والرخاء اليه • وتنتهي القصيدة في ازجاء المديح والتمجيد للاله « مردوخ » وزوجته « صربنيتم » •

ويجدر ان نذكر في ختام كلامنا على هذه القطعة الادبية البابلية انه جاء الينا نص سومري يضاهي في موضوعه موضوع هذه القصيدة[٣] •

٢ ــ حوار بين صديقين :

اما القصيدة البابلية الثانية التي تعالج ايضا مسألة « العدل الالهي » (Theodicy) مع وجود الشر فيرجح ان تأريخ تدوينها يرقى الى حدود مطلع الالف الاول ق•م ، ولكن معظم نسخها وجد في مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » (القرن السابق ق•م)[٤] • وتختلف هذه القصيدة عن

---

(٢) راجع تحليل هذه القصيدة في :

Th. Jacobsen, Before Philosophy, 231 ff.

(٣) انظر :

Kramer, From the Tablets of Sumer (1956); ANET, (1969).

(٤) راجع عنها الدراسات والترجمات الاساسية الاتية :

1. Pfeiffer in ANET, (1969).
2. Ebeling, Ein Babylonische Kohelet, (1923).
3. B. Landsberger, "Die Babylonische Theodize" in ZA, (1936) 32 ff.
4. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).
5. Graig, Babylonian and Assyrian Religious Texts, I (1895), Pls. 44-52.

القصيدة الاولى التي مر الكلام عليها من حيث المحتوى والمضمون وأسلوب التأليف • فقد نظمت على هيئة حوار بين شخص معذب متشكك وبين صديقه ، اي بهيئة « دايلوگ » (dialogue) في حين ان القصيدة الاولى كانت كما قلنا مناجاة فردية « مونولوگ » •

يتألف هذا النص الادبي في اصله الكامل من ٢٧ قطعة او مجموعه من الابيات مما يسمى بالدور او الموشح (stanza) لم يبق منها بحالة سليمة سوى ١٩ قطعة ، ويحتوي كل دور من ادوارها على (١١) سطرا أو بيتا من الشعر ، وقد نظمت باللغة البابلية باسلوب من الصناعات الشعرية اللفظية يطلق عليها مصطلح (acrostic) أو (alleteration) وفحواها انه اذا اخذ المقطع الاول من كل بيت من ابياتها وجمعت المقاطع بعضها الى بعض تكون منها اسم ناظم القصيدة وشيء من الدعاء الى الاله والملك • وعلى هذا الوجه تؤلف المقاطع الاولى من القصيدة العبارة : « أنا ساكل – كينام – اوبب ، كاهن المشمشو ، وعابد الاله والملك »(*) • وتضاهي هذه الصناعة ما في المزامير (الزمور ١١٩) • اما من ناحية المضمون فان هذه القصيدة على نقيض القصيدة الاولى في معالجتها وتبريرها لقضية ما يصيب الانسان الصالح من ويلات ونكبات ، فهي تدور على التشكك والسخرية من جانب المعذب الذي يصل تشككه في بعض المواطن الى درجة التجديف والكفر• والى هذا فانها من الناحية الفنية الادبية امتع واروع من القصيدة الاولى • ولعل النماذج الآتية تكفي للتعبير عن مزاج هذه القطعة الادبية :

(*) وبالنص البابلي :
anaku Saggil-kînam-ubbib mashmashu kâribu ili û sharri
وقد اطلق بعض الباحثين على القصيدة (الجامعة البابلية)
(Babylonian Ecclesiastes)
وبعنوان : « حوار في العذاب الانساني » (dialogue in human misery)
كما ان عنوان المصدر الثاني عنهـا « قوهيلث » البابلية و « قوهيلت » كلمة عبرية معناها « الحكمة » او « التبشير بالحكمة » ، ولقد لقب بها سليمان بن داود •

المعذب : اين الناصح الذى أشكو اليه ما اقاسيه من عذاب • أراني قد انتهى أمري ونسلط علي الشقاء • فحين كنت لا ازال طفلا اختطف القدر أبي وذهبت أمي الى « أرض اللاعودة منها » • وتركني ابى وامى ولا من يعيلني ويرعاني •

الصديق : ما قلته يا صديقي الموقر يبعث الحزن • اراك يا صديقي الحبيب قد وجهت فكرك الى الشر والبؤس ، وبدا فهمك كفهم العاجز وبدلت بشاشة وجهك عبوسا • ان الموت قدر على آبائنا وعلينا • وكما قيل منذ القدم « يعبر الجميع نهر خبر »(*) • وان من استجار بالهه وجد الحماية والطمأنينة • وينال المتواضع الذى يخشى الآلهة الجاه والمال الوفير •

المعذب : فكرك ، يا صديقي ، منبع لا يدرك عمقه ، انه البحر المتلاطم الذي لا ينضب • دعني اسألك ، فاصغ الى ما اقول وتدبر كلماتي : لقد خذلني التوفيق ، وذهبت عني الراحة والطمأنينة • وهنت قواى ، وفقدت النعيم والخير ، وأظلم وجهي من كثرة بكائي وشكاتي • تضاءلت غلال حقلي ، فكيف سانال السعادة ؟

الصديق : يجازي الآلهة الاتقياء الصالحين في نهاية المطاف •••

المعذب : دعني اسألك سؤالا : هل يقدم السبع المفترس الذي يلتهم أحسن اللحم قرابين الى الآلهة ؟ والغني الذي كدس الاموال هل قدم للالهة « مامي » الذهب ؟ وانا هل انقطعت عن تقديم الصلوات والقرابين الى آلهي ؟

الصديق : أعرف انك ثابت كالارض ، وتعلم ان طرق الآلهة وقصدها عسيرة الادراك ، فان الاسد الذي ضربته مثلا تنتظره الحفرة

(*) نهر « خبر » ، اسم نهر عالم الاموات او العالم الاسفل عند العراقيين القدماء الذي يعبره الموتى •

التي ستصطاده • والغني الذي كدس الاموال من ادراك انه لن يموت حرقا على يد الملك قبل الاوان ؟ فهل تشتهي ان تسير في هذه الطريق ؟ كلا فاجدر بك ان تسعى وراء الجزاء الدائم الذي يعدك به الهك •

المعذب : ما اشبه فكرك بالريح الشمالية • انه نسيم عليل للناس • فيا أعز صديق ، دعني أقول لك كلمة واحدة : كثيرون هم الذين لا يلتزمون بعبادة الآلهة ولكنهم ساروا في طريق الفلاح ، في حين ان العابدين الاتقياء فقراء معدمون • وانا في أيام شبابي كنت أسير وفق ارادة الهي ، وتعلقت بالهتي في التضرع والصلوة • ولكنني كنت انوء بجر النير في « عمل سخرة » لا نفع منه • لقد كتب علي الهي الفقر بدل الغنى • فالمعقد خير مني والبليد سبقني ، وعلا شأن اللئيم ، اما انا فنزلت الى احط درك •

الصديق : يا صديقي العارف المستقيم أرى ان افكارك قد اعوجت وفسدت ، ونبذت الاستقامة ، وصرت تكفر في خطط الهك وطرقه • بل انك في سرك صرت لا تتقبل اقدار الآلهة المقدسة • ان خطط الآلهة المحكمة مثل اعماق السماء لا يدرك كنهها •

المعذب : يستمر في التمادى بشكوكه حتى يبلغ فيها درجة الكفر فيقول من بين ما يقول : « لن انصاع لاوامر الآلهة ، وسوف ادوس بقدمي على شعائرها ••• ساهرب الى اماكن بعيدة واشحذ من بيت الى بيت ••• » •

وهكذا يستمر هذا الحوار الطريف ما بين المعذب المتشكك وبين صديقه المتدين الذي يحاول عبثا تبرير العدل الالهي له •

٣ ــ حوار ما بين سيد وعبده :

القصيدة البابلية الثالثة التي نقدمها في موضوع أدب الحكمة اشتهرت عند الباحثين بعنوان « **الحوار بين سيد وعبده** » ، وهي التي صنفناها كذلك تحت أدب السخرية والتشكك او التشاؤم ، ولعل القارىء سيحكم

بعد الاطلاع عليها ان كلا التصنيفين ينطبق عليها •

نظمت القصيدة باللغة البابلية على هيئة حوار (dialogue) ما بين سيد وعبده كما قلنا ، وهي الى جانب ما تتميز به من متعة أدبية وفنية تكاد تنفرد في اصالتها وجرأتها في التشكك بالقيم الاجتماعية والمعتقدات الدينية السائدة بسخرية لاذعة تثير الدهشة في القارىء الحديث ، مع ما عرف من تمسك القوم بالمعتقدات الدينية والقيم الاخلاقية ، بحيث يصح من هذه الناحية ان ننظر اليها على انها تصوير فني للانحلال الحضاري والاجتماعي الذي حل بحضارة وادي الرافدين في أدوارها الاخيرة ، اذ يستدل من الادلة الداخلية في هذه القطعة الادبية مثل الاساليب اللغوية والاشارة الى «عدن الحديد ان زمن تأليفها يرقى الى مطلع الالف الاول ق•م(٥) • ونورد فيما يلي اهم اجزاء المحاورة :

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل يا سيدي ، ها انذا مصغ اليك

السيد : هيىء لي عربتي واحضرها ، اريد ان اذهب الى القصر

العبد : اذهب يا سيدي ! اذهب ! فانك ستحقق كل رغباتك وستنال الحظوة والرعاية عند الملك

السيد : لا ، ايها العبد ، لن اذهب الى القصر

السيد : لا تذهب يا سيدى فان (الملك) سيبعث بك في مهمة وستؤسر في أرض غريبة لا تعرفها وستلازمك المتاعب ليل نهار

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : ها انذا مصغ اليك يا سيدي

---

(٥) انظر الدراسات التالية :

1. Pfeiffer in ANET, (1969).
2. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).
3. Speiser in JCS, VIII, (1954)
4. Jacobsen, Before Philosophy

السيد : احضر لي في الحال ماء لاغسل يدي فانني اريد ان آكل

العبد : كل يا سيدي ، كل . فالاكل بانتظام يشرح القلب ، والى الطعام الذي يؤكل بسرور وبيدين نظيفتين يحضر الاله « شمش »

السيد : لا ، يا ايها العبد ، لن آكل

العبد : لا تأكل يا سيدي ، لا تأكل ! فان الجوع من بعد الاكل والظمأ من بعد الشرب يأتي لكل انسان

السيد : اطعني ايها العبد اطعني

العبد : نعم يا سيدي ، ها انذا في طوعك

السيد : عزمت على ان أقوم بعصيان (ثورة)

العبد : افعل ذلك يا سيدي ! فماذا سيحل بطينتك (جوهرك) ومن ذا الذي سيعطيك لتملأ معدتك ؟

السيد : لا يا عبد لن أقوم بالثورة

العبد : لا تفعل ذلك يا سيدى ، لا تفعل ! فان من يقوم بالثـورة والعصيان يعذب ويشوه جسمه ويودع في السجن

السيد : اطعني ايها العبد ، اطعني !

العبد : ها انذا في طوعك يا سيدي

السيد : اريد ان احب امرأة

العبد : احب يا سيدي ، احب ! فان من احب امرأة نسى الالم والتعب

السيد : لا يا عبد ، لن احب

العبد : لا تحب يا سيدي ، لا تحب ! فالمرأة بئر(*) ، المرأة خنجر من حديد(**) يقطع عنق المرء

(*) تشبيه المرأة والزوجة بالبئر والحفرة ورد في آداب الامم الاخرى . قارن هذا بما ورد في التوراة (سفر الامثال ٥:٥ ، ١٥) .

(**) ويجدر ان نذكر ان الاشارة الى معدن الحديد في هذا النص هو ، كما ذكرنا ، من بين الادلة الداخلية لتحديد زمن النص في حدود مطلع الالف الاول ق.م ، حيث لم ينتشر استعمال الحديد بمقياس واسع الا من بعد هذا التاريخ .

السيد : اطعني ايها العبد ، اطعني !

العبد : اجل يا سيدي ، ها انذا مصغ اليك

السيد : احضر لي ماء لاغسل يدي ، اريد ان اقدم القرابين لالهي

العبد : افعل ذلك يا سيدي ، افعل ! فان من قدم القرابين لالهه نال السعادة واضاف دينا على دين

السيد : لا يا عبد لن اقرب

العبد : لا تقرب يا سيدي ، لا تقرب ! تستطيع ان تعلم الاله ان يركض وراءك كالكلب عندما يحتاج اليك لتقيم شعائره

السيد : اطعني ، ايها العبد

العبد : اجل ، يا سيدي ، اجل !

السيد : اريد ان افعل الخير واتصدق عن ارضي واقدم الطعام لبلدي

العبد : قدم الطعام يا سيدي ، فالرجل الذي يقدم الطعام لقطره ، فان شعيره يظل خالصا له ، وما يتسلمه من ارباح جسيم

السيد : لا يا عبد، لن اقدم الطعام لبلدي

العبد : لا تفعل يا سيدي ، لا تفعل ، فالعطاء مثل الحب ؟.. انه مثل ولادة الطفل ... انهم سيأكلون حبوبك ويلعنونك

السيد : اطعني ، ايها العبد ، اطعني !

العبد : ها انذا مطيعك يا سيدي

السيد : اريد ان اساعد بلادي

العبد : افعل ذلك يا سيدي ، فان من يساعد بلاده توضع حسناته في كف الاله « مردوخ »

السيد : لا يا عبد ، لن افعل ما يساعد بلادي

العبد : لا تفعل يا سيدي ، لا تفعل ! أعلُ فوق الاطلال القديمة وتمش فوقها وانظر الى جماجم الماضيين والمتأخرين ، فأيهم الاشرار وأيهم الصالحون !

السيد : اطعني ايها العبد ، اطعني !

العبد : اجل يا سيدي اجل !

السيد : والآن أي شيء حسن في الدنيا ! سأدق عنقك وعنقي أو ترمي بنفسينا في الماء ، وهذا هو الشيء الحسن •

وهنا بدل السيد رأيه وقال لعبده : « لا ايها العبد ، سوف اقتلك وحدك وادعك تسبقني » فيجيبه العبد : « هل يرغب سيدي في ان يعيش من بعدي حتى لو كان ذلك مدة ثلاثة أيام ! » •

الأمثال

من الامور التي كشف عنها في السنوات القليلة الماضية نشر مجموعات من الامثال والحكم والوصايا من أدب العراق القديم في كلتا اللغتين السومرية والبابلية(٦) ، وجاء بعض الامثال مزدوج اللغة • ومما يقال عن هذه الامثال بوجه عام انها ، مثل الامثال الاخرى في آداب الشعوب ، يصعب فهم الكثير منها حتى لو كانت مفهومة من الناحية اللغوية، لانها مثل سائر الامثال، جمل قصيرة مقتضبة ومركزة المعنى ، وتعبر عن تجارب وحالات خاصة في حياة المجتمع ، كما ان الكثير منها نشأ من وقائع او حوادث قيلت فيها تلك الامثال ، على نحو ما هو مألوف في الامثال العربية وغيرها •

وعلى ضوء هذه الملاحظة سنقتصر من هذه الامثال على نماذج واضحة مألوفة نختار منها الامثال الاتية :

---

(٦) حول موضوع الامثال انظر :
ANET., (1969); Kramer in Bulletin of the University Museum, 17, (1952), 39 ff.; Gordon, "A New Book of the wisdom of Sumer and Akkad" in Bibliotheca Orientalis, 17. (1960), 122ff.; Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).

١ ـ لذة الخمر (تذهب) وعناء الطريق(*)

٢ ـ من لا يعرف الخمر لا يعرف الخير ، فالخمر يدخل السرور الى البيت

٣ ـ تملق امرء فيعطيك ما تريد

٤ ـ ارم كسرة للكلب فيهز لك ذيله

٥ ـ من لم يعل زوجة أو طفلا سلم أنفه من الخشاش (**)

٦ ـ الاكثار من الزوجات أمر يخص المرء نفسه ، ولكن الاكثار من الاولاد أمر يخص الاله

٧ ـ قضيب الزاني مثل فرج الزانية

٨ ـ الفقراء هم الصامتون وحدهم في بلاد سومر

٩ ـ اطع كلام أمك كأنه أمر الهي

١٠ـ لا تدع الغضب يظهر على وجهك في اثناء الخصام

١١ـ اذا قال لك احد ما يغضبك فلا ترد عليه بالمثل تجنبا للعواقب

١٢ـ اذا حكمت على شيء فلا تقرن ذلك باستهجانك الشخصي

١٣ـ في المدينة المتهاونة المهملة يصبح الجابي تاجرا

١٤ـ لا تطلب الحياة من « ننجشزيدا » (اله الموت)

١٥ـ المال مثل الطير لا يعرف موطنا ثابتا

١٦ـ اذا اباحت المدينة لكلاب الصيد ان تظل في داخلها تحكمت الثعالب فيها

١٧ـ لن يترك العدو بوابة مدينة ضعيفة السلاح

(*) في هذا المثل جناس في استعمال كلمة « كاش » (KASH) او « كاس » (Kas) السومرية التي تعني خمرة وكلمة « كسكل » (KASKAL) التي تعني الطريق .

(**) الخشاش (Tether) .

١٨- اولى بالفقير ان يموت ، فانه ان حصل على الخبز عدم المأوى ، واذا كان عنده ملح عدم الخبز ، واذا كان له بيت عدم الفراش

١٩- لا كسب بدون تعب

٢٠- لقد ارخيت الشبكة ولكن الاصفاد محكمة

٢١- اذا لم تنضب بئرى فعطشى قليل

٢٢- لقد اوقف المعبد قبل ان يبدأ ببنائه

٢٣- النهر باتجاه الريح يجلب الماء الوفير

٢٤- اذا أحس بقرب أجله قال لآكل جميع ما عندي ، واذا تعافى قال لاقتصد

٢٥- قد تدوم الصداقة يوما والعبودية دهرا

٢٦- الرجل ظل الاله ، والعبد ظل الرجل ، ولكن الملك صورة للاله

٢٧- اذا ضرب النحل عض يد الضارب

٢٨- يحصل القوى على عيشه بقوة ساعده ولكن الضعيف يبيع اولاده

٢٩- كما كانت الحياة بالامس ستكون هكذا كل يوم

٣٠- اذا كانت خميرة الجعة حامضة فهل تكون الجعة حلوة ؟

٣١- تلدغ العقرب انسانا فاي نفع لها من ذلك ؟ ويجلب الواشي الموت على احد الناس فأي خير يناله من وراء ذلك ؟

٣٢- هل يحصل سرير القصب على ثمن قصبه او المرج ثمن حشائشه ؟

٣٣- هل تضرب الثور اذا كان دائبا على السير ؟

٣٤- ثور الغريب يأكل الحشيش ولكن ثور صاحب الحقل نائم من الجوع

٣٥- اذا خرجت تصطاد الطيور بدون شبكة فلن تصيد شيئا

٣٦- ان تضرط الشابة في اثناء عناق زوجها لها أمر لم يحدث منذ

القـــدم

٣٧- من نحبه عليك ان تتحمل ثقل نيره

٣٨- عيناي عينا أسد ، وجسمي جسم الملاك الحارس وشـــفتاي تنطقان بالفتنة والسحر ، فمن سيكون قريني

٣٩- شد حزامك يكن الهك معك

٤٠- اذا اسأت الى صديقك فما عساك ان تفعل مع عدوك ؟

٤١- الاله هو الذي يعينك صغيرا كنت أم كبيرا

٤٢- الناس بلا ملك مثل قطيع الغنم بلا راع

٤٣- الناس بلا مشرف مثل الماء بلا مراقب

٤٤- العمال بلا مشرف مثل الحقل بلا حارث

٤٥- ان فسي هو الذي يجعلني أعد بين الرجال

٤٦- الصداقة تدوم يوما ولكن ارتباط المصالح يدوم الى الابد

٤٧- ساكن البلد الغريب مثل العبد

٤٨- فن الكتابة ابو العلماء وام الخطباء

٤٩- الزوجة المبذرة في البيت أشد ضررا من جميع الشياطين

صفة الحاكم العادل - نصائح الى الحاكمين :

ومن بين أدب الحكمة نذكر نصا أدبيا يعد على قدر كبير من الاهمية في تأريخ نظام الحكم ، اذ انه من نوع النصائح الموجهة الى الحاكمين ان يلتزموا العدل بين الناس . ويرجع تأريخه الى العهد الآشوري الاخـير ، حيث عثر على الالواح المدون عليها في مكتبة الملك الآشوري « آشوربانيبال » الشهيرة في نينوى (القرن السابع ق.م) ، ويبدو ان هذه النصائح وضعت لحماية حقوق المواطنين في بعض المدن البابلية وبوجه خاص « سبار » و « نفر » وبابل ازاء الضرائب الاعتباطية وعمل السخرة الاجباري وسلب أموالهـا . أما الملك المخصوص بتلك النصائح فيرجح أن يكون ملك بابل مردوخ - بلادان » (مردوخ - ابلا - ادنا) المعاصر للملك سرجون

الآشوري الثاني (٧٢١–٧٠٥م) ، وارتأى باحثون آخرون ان الملك الآشوري « سنحاريب » (٧٠٤–٦٨١ ق٠م) هو الملك المقصود ٠ ومهما كان الامر فا نالادلة الداخلية ، من شكل الخط والاسلوب اللغوي ، تشير الى ان زمن النص يرقى الى ما بين ١٠٠٠ و٧٠٠ ق٠م[٧] ٠

ونورد فيما يلي مقتطفات من تلك النصائح :

« اذا لم يعبأ الملك باقامة العدل ، فستعم الفوضى شعبه وتخرب بلاده ،

« واذا لم يعمل على نشر العدل في مملكته فان الاله « ايا » ، سيد المصائر والاقدار ، سيبدل مصيره ، ولن ينفك عن مطاردته ٠

واذا لم يستمع الى نصح أمرائه فستكون حياته قصيرة واذا لم يأخذ بنصح مستشاريه فستثور عليه بلاده ٠ واذا اطاع الاشرار فستتبدل مصائر بلاده ٠ واذا احتال على الاله « ايا » فان الآلهة العظام سيلاحقونه ويحاكمونه ٠

واذا حكم على مواطن من نفر ظلما من اجل الرشوة فان « انليل » ، سيد الاقطار ، سيسلط عليه جيوش الاعداء ٠

واذا سلب اموال اهل بابل واختزنها في خزائنه ، واذا نظر في قضية لاهل بابل ولكنه لم يقسط في حكمه فان « مردوخ » ، رب السماء والارض ، سيسلط عليه اعداءه ويسلم امواله وكنوزه اليهم ٠

واذا فرض الغرامات على اهل « نفر » او « سبار » او « بابل » او اذا اودعهم السجن اعتباطا ، فان المدينة التي فرضت على اهلها الغرامة ستخرب٠ واذاجمع أهل سبار ونفر وبابل وفرض عليهم عمل السخرة ، فان مردوخ ، حكم الآلهة ، سيسلم بلاده الى اعدائه ، فيفرضون على جنده واتباعه عمل السخرة » ٠

---

(٧) انظر المصدر الاتي وفيه الاشارات الى الدراسات السابقة :
Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960), 110 ff.

أدبُ المناظرة والمفاخرة

من المواضيع الادبية التي كشف عنها البحث الحديث في مدونات حضارة وادي الرافدين نوع من الحوار ما بين متفاخرين او متناظرين **(disputation) وقد جاءت الينا جملة قطع ادبيــة في اللغتين السومرية** والبابلية ، والمرجح كثيرا ان اصل هذا الضرب من الادب يرجع الى الادباء السومريين ، وانه حتى القطع التي الفت بالبابلية لم تكن ســـوى محاكاة لاصول سومرية ، وان المصطلح الذى وضع لمثل هــذا النوع من الادب العبارة السومرية التي سبق ان ذكرناها والتي تتركب من كلمتين هــي « أدمن ــ دو ــ كا » $(ADMAN\text{-}DU_{11}\text{-}GA)$ المؤلفة من :« أدمن » التي تكتب بعلامتين مسماريتين هما مكرر العلامة المسمارية الدالة على « رجل » وتكتبان الواحدة مقابل الاخرى ، والكلمة الثانية هي « دوكا » التي تعني « الكلام » ، فيكون المعنى العام « حوار ما بين رجلين او ما بين اثنين » او « مناظرة بين متكلمين » • وقد ذهب الباحثون في تفسير منشأ هذا النــوع **من الادب الى ان مثل هذه المناظــرات كانت تتــلى ما بين متحـــاورين أو** متفاخرين في اثناء الاحتفالات والاعياد في بلاطات الحكام والملوك ولعل الحاكم او الملك نفسه كان يمثل الاله الحكم الذي كان يحتكم اليـــه المتناظرون على ما سنبين فيما بعد • وتتشابه الاساليب المتبعة في تأليف هــذه المفاخرات في النصوص السومرية والبابلية • فهي تبدأ بمقدمة اسطورية عن اصل الموضوع المتنازع عليه ، وتقديم المتناظرين في بيان مكانة كـل منهما وأهميته في نظام الكون والاشياء ، ثم موضوع المفاخرة بعرض أقوال كل من المتفاخرين وجواب احدهما للآخر ، اذ يبين كل منهما فضائله ومنافعه

للناس مفندا اقوال منافسه ومعرضا بنقائصـــة • وتنتهي المناظرة بذهاب المتخاصمين الى أحد الآلهة للاحتكام اليه حيث يستمع الى ادعاء كل منهما ويصدر حكمه في صالح احدهما ، وهو حكم نهائي يتقبله المتناظران عن طيب خاطر ، فتتم المصالحة ما بينهما واعادة الصفاء اليهما •

لقد تنوعت ماهيات المتناظرين فقد تكون المفاخرة مـــا بين معدنين او نوعين من الاشجار او الحيوانات او فصلين من الفصول او غلتين من الغلال او ما بين حرفتين او مهنتين • وان ما اكتشف من القطع الادبيـــة الطريفة لحال التأريخ يتضمن ما يربو على سبع مناظرات باللغة السومرية ونحوا من هذا العدد في اللغة البابلية • وبالاضافة الى هذه القطع جاء الينا ما يصح أن نسميه قصص الحيـوان (Fables) التي قد يتضمن بعضـها مناظرة او مفاخرة • وندرج فيما يلي عناوين هذه القطع الادبية(٨) •

أ ـ القطع السومرية :

١ ـ المناظرة ما بين الصيف والشتاء (ايمش واينتن)

٢ ـ المناظرة ما بين الراعي والفلاح (دموزي وانكمدو)

٣ ـ المناظرة ما بين الطير والسمك

٤ ـ المناظرة ما بين الفأس والمحراث

٥ ـ المناظرة ما بين الفضة والبرونز

---

(٨) حول هذه القطع الادبية انظر المراجع الاتية :

1. S. N. Kramer, Sumerian Mythology
2. ———, From the Tablets of Sumer; The Sumerians, (1963)
3. ANET., (1969)
4. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).
5. Wiliams, "The Literary of Mesopotamian Fables" in Phonix, 12, (1956), 70 ff.
6. Van Dijik, La Sagesse Sumero-Accadienne.
7. R. J. Gordon in Journal of Cuneiform Studies (JCS, Vol. 12) 1 ff.

٦ ـ المناظرة ما بين الشجرة والقصبة
٧ ـ المناظرة ما بين إلهة القمح والماشية

ب ـ **القطع البابلية :**

١ ـ المناظرة ما بين النخلة وشجرة الاثل
٢ ـ المناظرة ما بين الشعير والقمح
٣ ـ المناظرة ما بين الثور والحصان
٤ ـ المناظرة ما بين النسر والحية
٥ ـ المناظرة ما بين الكلب والذئب

نماذج من المناظرات :

١ ـ المناظرة ما بين الصيف والشتاء :

هذه القطعة السومرية تعرف بين الباحثين بعنوان اسطورة « ايمش » (Emesh) و « اينتن » (Enten) والتي هي اطول مناظرة وخلاصتها ان الاله «انليل» قرر ان يؤسس الزراعة في البلاد فخلق لهذا الغرض اخوين هما الصيف « ايمش » (Emesh) والشتاء « اينتن » (Enten) وعين لكل منهما اعماله وواجباته ، فمن وظائف الشتاء مثلا ان يسبب ولادة الغنم والماعز والعجول ويكثر الالبان ويجلب الخضرة في الحقول ، وينمي الغلال الخ •• اما الصيف فمن واجباته ان يملأ المزارع بالغلال ، ويكدس « البيادر » والمخازن والاهراء ، ويسهل تشييد المعابد والبيوت(*) • وهكذا اضطلع كل من الاخوين بواجباته التي خصصها له الاله « أنليل » • وقصدا مرة مدينة نفر(**) يحمل كل منهما هدايا من

(*) الصيف في العراق فصل البناء في الغالب •
(**) المدينة الشهيرة القريبة من عفك ، حيث مركز عبادة الاله « انليل » •

تاجه الى الاله العظيم ، وعندئذ دبت الغيرة والتحاسد ما بينهما :

صار « ايمش » يتجنب « اينتن » كأنه عدوه ، ولما نفذ صبر اخيه الشتاء « اينتن » بادله العداء ، وصار يفاخره ويعدد ميزاته عليه مثل قوله : « عندما يرتدي الملك « ابي ـ سين »(*) حلتـه الاحتفالية وجبته الملكية ليقـوم بشـعائر الآلهة ••• وتعزف القيثارة في « بيت الحياة »(**) الذي خلقه آنو ، فانا الذي يهيء لهذه الاحتفالات الزبد والدهن » • فيجيبـه الصيف : « يا أخي الشتاء ، في زمنك تتجمع الغيـوم الدكناء ، وتصطك اسنان الناس وهم في داخل منازلهم في المدن ، ولا يجرؤ احـدهم أن يخرج الى الطريق حتى في منتصف النهار » • واخيرا يحتكم المتخاصمان الى الاله « انليل » ويعرض عليه كل منهما مزايـاه ومنافعـه ، فيصدر « انليل » حكمه على الوجه الاتي :

« اجاب انليل الصيف والشتاء قائلا : يسيطر الشتاء على المياه التي تجلب الحياة الى الارض ، وهو فلاح الآلهة الذي يكدس الغلال • فيا بني الصيف كيف تقرن نفسك باخيك الشتاء ! » •

وهكذا يحكم انليل للشتاء ويتقبـل المتناظران حكومته ويتصالحان ويتصافيان فيخضع الصيف للشتاء ويقدم له الهدايا » •

٢ ـ المناظرة ما بين النخلة وشجرة الاثل :

المثال الثاني الذي نختاره من أدب المناظرة ، المفاخرة ما بين النخلة

(*) الملك « ابي ـ سين » ، آخر ملوك سلالة اور الثالثة والاشـارة اليه في هذا النص يزودنا بزمن نظم القصيدة •

(**) بيت الحياة وبالسـومرية « اى ـ نام تلا » (E-nam-til-la) من اسماء معبد الاله انليل في مدينة « نفر » •

وشجرة الاثل[٩] ، وقد الفت في اللغة البابلية ، وتبدأ ، مثل غيرها من المناظرات بمقدمة اسطورية (ميثولوجية) قصيرة عن الظروف التي نشأت فيها المنافسة ما بين الشجرتين ، وخلاصتها ان الملك غرس النخلة ومعها شجرة الاثل في قصره • ولما ان نمت الشجرتان اقيمت مرة وليمة في ظل شجرة الاثل ، واذ ذاك بدأت المفاخرة ما بين الشجرتين ، وكان مما جاء فيها ان النخلة قالت لشجرة الاثل : « يا شجرة الاثل انت من الاشجار التي لا نفع منها • فما فائدة اغصانك ؟ انها خشب لا يثمر • وها هو البستاني يجزل الثناء علي ، فان في الخير والنفع للعبد والسيد على السواء » • فاجابتها شجرة الاثل معيرة اياها بعدم صلاح خشبها : « تأملي في أثاث القصر ، وعددي الاخشاب التي اخذت مني لصنعها ، فالملك يتناول طعامه من على منضدتي ، وتشرب الملكة من الكأس المصنوعة من خشبي » •

ومما يؤسف له ان القسم الاخير وهو الاحتكام الى احد الالهة مخروم • ولكن مما لا شك فيه ان النخلة ربحت المفاخرة ، لان هذه الشجرة نالت مكانة كبيرة في مآثر حضارة وادي الرافدين وفي حياة القوم الاقتصادية • والمرجح كثيرا ان قصائد شعرية نظمت في مدحها • ومع ان مثل هذه القصائد لم يكشف عنها بعد الا ان الجغرافي اليوناني المشهور « سترابو » (٦٤ ق•م – ١٩م) يشير في كتابه « الجغرافيا » الى قصيدة مطولة باللغة الفارسية القديمة تعدد (٣٦٠) فائدة ومنفعة للنخلة ، كما ذكرت النخلة والاساطير التي تدور حولها في اشعار الكاتب اليوناني « كليماخوس » (Callimachus) (اواخر القرن الرابع والقرن الثالث ق•م) •

---

(٩) انظر نصها وترجمتها في :
Lambert, The Babylonian Wisdom Literature (1960), 151 ff.

وفي ختام هذه الملاحظات عن المفاخرة بين النخلة وشجرة الاثـل يجدر ان نذكر ان نسخة منها وجدت في كسرتين من لوحين عثر عليهما في اثناء تنقيبات مديرية الآثار في تل حرمل ويرجعان في زمنهما الى العصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق٠م)(*) ٠

وهناك مناظرة بـين شـجرة الصفصاف والدفلي غير كاملة مـع الاسف(١٠) ٠

٣ ـ دموزي (تموز) و « اينكمدو » (الراعي والفلاح) :

هذه القصيدة السومرية من النصوص الادبية التي تدور على الآلهة « عشـتار » وعشاقها ، وفي مقدمتهـم « تمـوز » ، أو « دمـوزي » الملقب بالراعي ، ولكننا آثرنا أن نصنفها في أدب المناظرة جـريا وراء الكاتب السومري الذي جمعها أو نظمها وذيلها بالعنوان الـذي يطلق عـلى هـذا الصنف من النصوص الادبية التي مر ذكرها وخصصها على انها مناظرة ما بين الراعي والفلاح(**) ، على ان اقرب صنف تدخل فيه « أدب الحوار » (دايلوگ) الذي مر بنا مثل الحوار ما بـين السيد والعبد وما بـين المعذب وصديقه ٠

وقد سبق للاستاذ « كرامر » ان نشر نصها وترجمتها(١١) ورأى

---

(١٠) Lambert, IBID.

(*) مسجلتان في سجل المتحف العراقي بالرقمين : IM 53946, IM 53975

(**) اى صنف ادب المفاخرة الذى يطلق عليه بالسومرية « أدمن ـ دوكا » وباللفظ السومري : ADAMAN-DU$_{11}$-GA SIPAD-ENGAR-DA اى « المفاخرة ما بين الراعي والفلاح » واضاف ايها الكاتب السومري انها من نوع التراتيل المسماة بالسومرية « بلباله » (BALBALE)

(١١) S. N. Kramer in BASOR, (1945); Van Dijik, IBID., 31 ff.

فيها أن فكرتها تضاهي موضوع اسطورة « قايين وهابيل » التوراتية حيث تفضل الآلهة « انانا » (عشتار) الراعي على الفلاح عكس الاسطورة التوراتية التي يفضل فيها الله الفلاح (قايين ، وفي المآثر العربية قابيل) على الراعي «هابيل» الذي قتله أخوه الفلاح ، ولكن الاسطورة السومرية لا تنتهي في خاتمتها بمأساة القتل .

موضوع الاسطورة الرئيسي الحوار ما بين الاله الشمس « اوتو » وبين اخته الآلهة « انانا » (عشتار البابلية) التي هامت بحب الفلاح « اينكمدو » (Enkimdu) ولكن أخاها الاله « اوتو » ارادها ان تتزوج الراعي حيث يحاورها حوارا مطولا يشغل ١٥٠ بيتا من القصيدة لاقناعها بقبول الراعي « دموزي » معددا الخيرات التي سيغدقها عليها ان هي قبلت الزواج به ، ويشترك « دموزي » نفسه في عرض خطوبته وتوسله الى الالهة ان تختاره عريسا لها مبينا كذلك مزاياه وفضائله ، وبعد لأي لانت « انانا » (عشتار) فغيرت رأيها وتزوجت من الراعي « دموزي » .

تبدأ القصيدة بخطاب الاله « اوتو » الى اخته « انانا » بانه سيهدي اليها نبات الكتان ، وبعد استفسارات كثيرة منها عمن سيمشطه ويغزله ويلفه ويحوكه ويصبغه اجابها بانه هو الذي سيفعل ذلك ، وعند سؤالها عمن سيفرشه لها يظهر موضوع الحوار وغرضه وهو ان زوجها هو الذي سيفعل ذلك ، ويلمح لها عن هذا الزوج باوصاف ونعوت خاصة بالاله الراعي « دموزي » (تموز) مثل « تنين السماء » « اوشم ــ گال ــ أنـا » (Ushum-gal-anna) و « كولي ــ انليل » (Kuli Enlil) (اي صديق انليل) ، فترفض « انانا » العرض رفضا قاطعا لان قلبها متعلق بحب الفلاح « اينكمدو » الذي « كدس لها المخازن بالقمح » ، ولكن اخاها « اوتو » يواصل الالحاح ان تقبل بالراعي زوجا :

« يا اختي تزوجي الراعي

يا انانا العذراء ، علام انت لا ترتضينه زوجا ؟

ان سمنه دسم ولبنه طيب ، فيا « انانا » تزوجي الراعي « دموزي » •

ولكن « انانا » تجيبه :

« لن اتزوج الراعي ولن البس ثيابه الخشنة

انا العذراء صممت على الزواج من الفلاح الذي يزرع انواع النباتات الكثيرة وضروبا مختلفة من الحبوب »

وبعد نقص في النص يظهر في المشهد الراعي نفسه وهو يعرض طلبه ويعدد ميزاته على الفلاح • ونورد فيما يلي بعض اقواله بشيء من التصرف وحذف التكرار :

« باي شيء يكثرني الفلاح ؟

هل عند « اينكمدو » ، رجل السواقي والسدود والمحاريث ، اشياء اكثر مني ؟

اذا قدم طحينه الاسود ، فسأقدم نعجتي السوداء

واذا قدم طحينه الابيض ، فسأقدم مقابل ذلك نعجتي البيضاء

واذا سقاني جعته الصافية ، سقيته لبني الدسم

وان سقاني الجعة المعتقة ، سقيته لبني الخاثر »

وتستمر القصيدة في تعداد انواع المنتجات الزراعية التي ينتجها الفلاح ومقابلها منتجات الراعي الحيوانية من انواع الالبان والجبن والزبد وغيرها • وتنتهي المناظرة بغلبة الراعي على خصمه الفلاح بحيث ان الآلهة « انانا » غيرت قرارها ورغبت ان تتزوج منه • وبعد مناوشة ما بين الاثنين كادت أن تؤدي الى الاقتتال ، تنتهي المناظرة بالصلح وحلول الصفاء ما بينهما ويقبل الفلاح دعوة الراعي الى حضور حفل عرسه بانانا ويقدم هدايا العرس •

٤ ـ المناظرة ما بين الحصان والثور :

النص الخاص بالمناظرة ما بين الحصان والثور اكتشف بين الـواح مكتبة « آشور بانيبال » في نينوى (القرن السابع ق٠م) ، وهو كثير الخروم وخلاصة ما بقي منه سالما على الوجه الآتي :

« في اثناء فصل فيضان الانهار نشأت مناظرة ما بين الحصان والثور ، حيث يعدد المتفاخران مناقبهما ومنافعهما ، على النحو المألوف في مثل هـذه المناظرات ، فيفاخر الحصان بشجاعته وبطولته في الحرب والنزال ٠ وكان مما اجاب به الثور من منافعه انه عدد الادوات والاشياء التي تصنع من جلده مما يستعمله المتحاربون ٠

ويبدو ان هذه القطعة من الادب البابلي ليس لها اصول سومرية ، على ما هو معروف في تأريخ العراق القديم عن تأخر استعمال الخيـول في وادي الرافدين الى أواخر الالف الثاني ق٠م٠

الفصل الخامس

النصوص الأدبية الخاصة بالطوفان

كانت رواية الطوفان من الاحداث التي شغلت مكانا بـارزا في أدب حضارة وادي الرافدين ومآثرها التاريخية • وبالمقابلة مع هذه الحقيقة لـم يصل الينا من حضارة وادي النيل أية رواية عن الطوفان • وقد اكتشفت جملة نصوص أدبية عن الطوفان في سجلات العراق القديم المدونة ، منها نصوص سومرية ومنها نصوص بابلية (سامية) • ويكاد يكون من المؤكد ان هذا الطوفان المذكور في النصوص المسمارية ، في كلتا اللغتين السومرية والبابلية ، كان حدثا تأريخيا واقعيا يرقى في زمن حدوثه الى فترة مـــا من عصور ما قبل التاريخ ، وبوجه خاص ما بين اواخر هذه العصور وبداية العصور التاريخية في نهاية الالف الرابع ق•م• وان اوجه الشبه الكثيرة ما بين وقائع هذا الطوفان والطوفان المذكور في مآثر بعض الامم القديمة ، ولا سيما الطوفان الوارد في التوراة ، لا تدع مجالا للشك في انها كلها ترجـع الى حدث واحد هو الطوفان الذي ذكرته قصص العراق القديم ، وان مكان ذلك الحدث كان السهول الرســـوبية من وادي الرافدين التي كانت ولا تزال معرضة الى الفيضانات الكثيرة المتكررة ، وان احد هذه الفيضانات قد بلغ في عظم فداحته وما سببه من دمار درجة كبيرة بحيث انه ترك له آثارا عميقة في ذاكرة الاجيال واخذ مكانا بارزا في أدب حضارة وادي الرافدين ومآثرها[١]• ويمكن حصر هذه النصوص التي تناولت خبر الطوفان في القطع

(١) عن الطوفان ورواياته في أدب حضارة وادي الرافدين ومقارنتها بمآثر الامم الاخرى راجع الدراسات الاساسية التالية :

1. A. Heidel, The Gilgamesh Epic and the Old Testament Parallels, (1949, 51).
2. M. David, "Le Re'cit du Deluge et l'Epopee de Gilgamesh" in Rencontre Assyriologique Internationale, (1958).

الآتية :

١ ـ اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش (في اللغة البابلية) •

٢ ـ ملحمة « زيسودرا » (Ziusudra) (في اللغة السومرية) •

٣ ـ ملحمة « اترا ـ حاسس » (Atra-Hasis) (في اللغة البابلية) •

ولاننا ادرجنا ترجمة اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ضمن هذه الملحمة التي سبق ان تكلمنا عنها ، فسيقتصر كلامنا على القطعتين الادبيتين الاخريين اى ملحمة « زيسودرا » و « اترا حاسس » •

١ ـ ملحمة « زيسودرا » :

من النصوص السومرية التي تروي خبر الطوفان قطعة ادبية تعرف بين الباحثين بعنوان ملحمة او اسطورة « زيسودرا » (Ziusudra) و « زيسودرا » اسم سومرى يرجح ان يكون معناه « الخالد » او « ذو الحياة الطويلة » ، مثل معنى الاسم البابلي « اوتو ـ نبشتم » ، بطل الطوفان في ملحمة جلجامش • ومما يؤسف له ان نص هذه الرواية ناقص فلم يبق منه اجزاء كثيرة • وقد وجد اللوح الذي دون فيه في اثناء التنقيبات القديمة التي اجريت في مدينة « نفر » (في اواخر القرن التاسع عشر) ، وهو موجود الان في جامعة بنسلفانيا في اميركا[٢] •

وخلاصة الملحمة ان « زيسودرا » كان ملكا صالحا ، يعبد الآلهة ويخافها وانه كان على مايرجح يحكم في مدينة « شروباك » (تل فاره الان بالقرب من الوركاء) ، التي كانت ايضا مدينة « اوتو ـ نبشتم » بحسب رواية الطوفان الواردة في ملحمة جلجامش ، ومن المدن الخمس التي

---

(٢) نشره الاستاذ « بوبل » (Poebel) في عام ١٩١٤ ضمن نشرات جامعة بنسلفانية المرموز لها بـ PBS, V. (1914) ، وترجمة الاستاذ « كرامر » في احدث ترجمة له في مجموعة « نصوص الشرق الادنى القديم ANET., (1969), 42

حكمت فيها سلالة ما قبل الطوفان كما جاء في اثبات الملوك السومرية(*) •

يبدأ دور الملك « زيسودرا » في الرواية بعد مقدمة ناقصة تروي جانبا من احداث الخليقة ، حيث الآلهة العظام : آنو ، وانليل وانكي وننخرساك ، خلقوا البشر والنباتات والحيوانات • وبعد ذلك انزلت الملوكية من السماء ، وقدرت الاقدار والمصائر وأسست المدن الخمس وحلت فيها الملوكية وهي « اريدو » و «بادتبيرا» و«لرك» ، و«سبار» و«شروباك» • ويلي بعد هذا انخرام في النص مقداره نحو من ٣٧ سطرا يرجح انه يتضمن وقـــوع الطوفان ، وبعد وضوح النص نجد الاله « انكي » (ايا) ينبرى لتخليص بعض البشر من فناء الطوفان ، فيخبر بطل الرواية « زيسودرا » مـن وراء الجدار بقرار الآلهة في احداث الطوفان وافناء البشر وأمره أن يبني له فلكا ينجو به من الهلاك • ثم « هاجت الاعاصير وهطلت الامطار وجرف الطوفان البلاد طوال سبعة ايام وسبع ليا ل• وتقلبت السفينة العظيمة فوق الامواج • ثم خفت وطأة الطوفان ، وظهر الاله « اوتو » (الاله شمش) ناشرا ضوءه في ارجاء الارض • فسجد امامه الملك « زيسودرا » وضحى الاضاحى • وبعد نقص من ٣٩ سطرا يظهر هذا البطل وهو يسجد امام الالهين « آنو » و « انليل » حيث يمنحانه الحياة الخالدة ، فيصبح خالدا ويدخل مجمـــع الآلهة ، وينقل الى ارض « دلمون » ، « الموضع الذي تشرق منه الشمس ويلي ذلك خاتمة الرواية وهي مخرومة كلها •

(*) Jacobsen, The Sumerian King-List; ANET., (1969).

نذكر هنا معنى اسم « زيسودرا » والصيغة الاكدية « اوتو ـ نبشتم » او «اوتا ـ نبشتم» التي قد تكون ترجمة للسومرية ومعناها « رأيت أووجدت الحياة الطويلة» كما سبق ان ذكرنا في كلامنا على «اوتو ـ نبشتم»• وقد حفظ اسم « زيسودرا » في المصادر الكلاسيكية بهيئة (Xisuthros) حيث يخبره الاله « كرونوس » بقرب وقوع الطوفان •

E. Sollberger, The Babylonian Legend of the Flood, (1971), p. 17.

٢ ـ ملحمة « أترا ـ حاسس » :

الرواية الثالثة عن الطوفان ، بالاضافة الى ملحمة جلجامش وملحمة « زيسودرا » اللتين تكلمنا عنهما ، قصيدة بابلية مطولة نوعا ما اذ يبلغ عدد ابياتها نحوا من (١٣٠٠) بيت ، وقد عرفت لدى الباحثين باسم ملحمة « اترا ـ حاسس » (Atra-Hasis) ، وجاء الأسم نفسه في احدى نسخ الملحمة من العصر البابلي القديم بصيغة « اترام ـ حاسس » (Atram-hasis) • اما الكتبة البابليون فقد عنونوها بعنوان : « حينما الاله مثل الانسان » او « حينما الاله والانسان » (وفي اللغة البابلية (enûma ilu awilum) • ويرجح ان يكون اسم « أترا ـ حاسس » صفة مركبة تعني « المتناهي في الحكمة » ، وانها صفة لبطل الطوفان « اوتو ـ نبشتم » أو « اوتا ـ نبشتم » في ملحمة جلجامش •

جاءت الينا القصيدة في عدة نسخ على الواح وكسر من الواح ، اقدمها ترجع في زمنها الى حكم الملك البابلي « عمي ـ صادوقا » (من سلالة بابل الاولى (١٦٤٦ـ١٦٢٦ ق•م) وبعضها من العهد الاشوري الحديث (في حدود ٧٠٠ ـ ٦٥٠ ق•م) ، وورد اسم الناسخ او الجامع بهيئة « كو ـ آيا » (Ku-Aya) ويرجح انها كانت تنشد أو تغني في بعض المناسبات(٣) ، اما من حيث موضوع الطوفان فان هذه الملحمة اوفى وصفا وتفصيلا من اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ، وانها اصل الرواية الواردة في هذا اللوح • والى هدا فانها تبدأ منذ الازمان التي لم يكن في

---

٣ ـ انظر ترجماتها المعتمدة في :

1. Speiser in ANET, (1969), 104 ff.
2. Grayson, in IBID., 512 ff.
3. Lambert and Millard, Atra-Hasis. The Babylonian Story of The Deluge (1969).

اثنائها سوى الآلهة فيالوجود وتروى من بعد ذلك خلق الانسان وتسليط الآلهة ولاسيما الاله « انليل » ، الطوفان لافناء « البشر لانهم اقلقوا الآلهة بضوضائهم وصخبهم » على حد تعبير الملحمة • ونورد فيما يلي موجـــزا وافيـــا عنهـــا :

الآلهة وخلق الانسان :

تبدأ الرواية كما ذكرنا بمقدمة تصف الازمان القديمة التي لم يكن موجودا في أثنائها في الكون سوى الآلهة ، فكان عـلى الآلهـة أن يضطلعوا بانفسهم في تهيئة ما يحتاجون اليه في شؤون الحياة المختلفة • وقد تم الاتفاق بين ثلاثة منالآلهةالعظام وهم «آنو» و «انليل» و «ايا» ، على تقسيم الكون فيما بينهم، وعهدالاله انليل الىالآلهةالصغيريالشأن أن يتولوا شؤونالارض مثل حفر الجداول والانهار•ولكن بعدحيناستثقلاولئكالآلهة عبءالاعمال التيفرضت عليهم فتذمروا واحتجوابلانهمأظهرواالعصيان والثورةفتجمهروا حول معبد « انليل » • ولما شاهد هذا الاله تجمع الآلهة الثائرين استشار الآلهة العظام فاشاروا عليه ان يبعث برسوله المسمى « نسكو » (Nusku) الى الثوار ويستطلع جلية الامر فقالوا له ان الاعمال التي فرضت عليهم قد ارهقتهم فلا قبل لهم بها • وعند ذلك اراد الاله انليل ان يوقع العقاب بهـم ولاسيما احد الآلهة الذي يبدو انه تزعم الثورة • ولكن « آنو » ينصح انليل ان يعدل عن العقاب لانه رأى ان لثورة الآلهة ما يبررها • وهنا انبرى الاله « ايا » (انكي) فاقترح لحل تلك المشكلة الكونية ان يخلق الانسان ليقوم بدلا من الآلهة بعبء العمل ، فاستحسن جميع الآلهة هـــذا التدبير السديد وعهدوا الى الالهة الخالقة « ماما » او « مامي » (وترد في النص أيضا باسم « ننتو » ، وبعلة ـ ايلي ، أي سيدة الآلهة) ان تأخـــذ عـــلى عاتقهـا خلق الاسان من الطين وخلطـه بلحـم ودم احد الآلهة فاختاروا الضحية الها غير معروف في مجموعة الآلهة اسمه « وى » (Wê) او « وى

ايلا » (EN-KI) • وقد أسهم الاله « ايا » في عملية الخلق اذ صحب الالهة الخالقة الى « بيت الاقدار » حيث ساعدتهما اربع عشرة الهة من الهسات الولادة ، وسحق الاله « ايا » الطين بقدميه ثم قسمت الالهات الطين الى اربع عشرة قطعة صنعن من كل منها سبع صور اناث وسبع صور ذكور ، وفصل ما بين المجموعتين بآجر اللبن • ومما يؤسف له ان ما يعقب ذلك مخروم من النص ، ولكن يبدو من البقية القليلة السالمة ان « الرحم الخالق انفتح فجاء الانسان » • ثم تعدد الاسطورة النصائح والارشادات عن الزواج والولادة لان من أغراض النص على ما يبدو انه كان يستعمل بمثابة تعويذة للولادة •

من بعد النقص الذي أشرنا اليه في النص تنتهي المقدمة التي خصصت لخلق الانسان كما بينا ، ويبدأ المشهد الثاني من الرواية حين كثر عدد البشر وصارت ضوضاؤهم وضجيجهم وصخبهم تزعج الاله « انليل » بحيث انه حرم من النوم والراحة ، فقرر ان يقلل من عددهم فسلط عليهم اولا الطاعون بان أمر اله الطاعون « نمتارا » (Namtara) (*) ان يتولى تنفيذ الخطة فسلط على الناس الاوبئة والامراض المختلفة • ولكن سرعان ما تدخل الاله « ايا » في الامر ، وهو الاله الذي اشتهر في مآثر حضارة وادي الرافدين بالتزامه جانب الانسان في محنته ومصائبه • فحاول ان يخفف من شدة وطأة الطاعون • وهنا يظهر لاول مرة دور بطل الرواية « اترا ــ حاسس » ولا يعلم هل ورد اسمه في المواطن السابقة المخرومة من النص • ومهما كان الامر فان الاله « ايا » نصحه بأن يوعز لشيوخ المدينة أن يجمعوا الناس و يتضرعوا الى اله الطاعون ، فاستجاب لهم وخفف من حدة الطاعون ، فلم يفن جميع الناس •

(*) الشائع عن « نمتارا » او « نمتار » انه احد آلهة العالم الاسفل ، اما اله الطاعون فهو « ايرا » و « نرجال » ايضا •

ولكن بعد فترة ازداد البشر مرة اخرى وعـاودوا صخبهم الذى ازعج « انليل » وحرمه من الراحة ، وهنا لجأ هذا الاله الى وسيلة اخرى للقضاء على البشر أو التقليل من عددهم على الاقل ، فسلط القحط والمجاعة بان امر اله الامطار « ادد » ان يحبس الامطار عن الارض فجفت الحقول وسلطت على التربة العطشى الاملاح ومات كل نبات في الارض . وحلت المجاعة وهلك الكثير من الخلق . ولكن « اترا ـ حاسس » يلجأ مرة اخرى الى حامي البشر « ايا » فينصحه هذا ان يتوسل الى اله المطر . فاستجاب « ادد » لتضرعه وانزل المطر بدون ان يحس الاله « انليل » بالامر . ولما تكاثر البشـر مرة أخرى وازعجوا الاله انليل بصخبهم ، أدرك هذا الاله ان فشل الوسائل التي لجأ اليها لافناء البشر يرجع الى تدخل بعض الآلهة ، فاصدر اوامره المشددة بان يستمر الجفاف والقحط ، وعين بعض الآلهـة ليراقبوا تنفيذ اوامره في انحباس الامطار عن الارض ، فعهد مثلا الى الالهين « آنو » و « أدد » حراسة منافذ السموات وتولى بنفسه(*) حراسة الارض ، واناط بالاله « ايا » مراقبة ينابيع المياه الجوفية . وهكذا أعيد الجفاف والقحط والمجاعة ، وكانت الوطأة في هذه المرة شـديدة ودامت بحسب الروايات ست او سبع سنوات ، واضطر البشر الى اكل بعضهم البعض ، و « صار البيت يأكل اطفاله » ، ولكن مع ذلك تدخل الاله « ايا » في الامر واستطاع ان يخفف من وطأة الجفاف والمجاعة ، فلجأ الاله « انليل » الى وسـيلة أخرى للقضاء على البشر بأن سلط عليهم الطوفان . وهنا تسـرد الرواية خبر الطوفان وهو يضاهي بوجه اساسى قصة الطوفان الواردة في ملحمة جلجامش .

ومما يجدر ذكره في ختام كلامنا على ملحمة « اترا ـ حاسس » ان الرواية التي وصلت الينا عنها من العصر الآشوري الحديث (القرن السابع

(*) وفي رواية اخرى الاله « نرجال » .

ق.م) دونت على ثلاثة الواح ، يتضمن اللوح الاول منها مجرد اصوات بهيئة مقاطع مسمارية ، وقد فسر بعض الباحثين دمجها بالملحمة بانها تعبر عن الاصوات الاولى التي نطق بها البشر من بعد خلقهم كما جاء في مقدمة الرواية ، اي بعبارة اخرى انها تمثل « لغة الانسان الاولى » بحسب ما ارتآه مؤلفو الاساطير في حضارة وادي الرافدين(*) .

أدب السخرية والغزل والتراتيل

لعل صدفة الاكتشاف وبعد الزمن الذي يحول بيننا وبين ادراك التعبيرات اللغوية الدقيقة التي تنطوي عليها الفكاهة والسخرية من الاسباب التي جعلتنا لا نعرف لحد الان الا النزر اليسير من الجانب الفكاهي الساخر في أدب حضارة وادي الرافدين بالمقارنة مع وفرة النصوص الخاصة بالموضوعات الادبية الاخرى التي مرت بنا . على أن الدراسات والبحوث التي تمت في السنوات القليلة الماضية تشير الى أن السخرية والهزل لم تكن غير معروفة في أدب العراق القديم ، فقد نشرت بعض الاقوال والحكايات القصيرة الساخرة ، بعضها يدور حول الحيوانات وهي ذات اوجه شبه واضحة بما جاء من قصص الحيوان في كليلة ودمنة ، وقصص اخرى تضاهي ما جاء في الف ليلة وليلة مثل قصة « فقير نفر » التي اكتشفت

(*) تبدأ هذه الاصوات بالمقاطع : مي ــ مي ــ با ــ با (me-me-pa_4-pa_4 (HU-HU) راجع تعليل الاستاذ « كاد » (Gadd) المشار اليه في بحث « كرايسون » (Grayson) المنشور في :
ANET., (1969), 512, n. 61.
وقد عثر مؤلف هذا البحث في اثناء اشرافه على التنقيبات الاثرية في تل حرمل (١٩٤٥ ــ ١٩٦٠) على اسطوانة من الطين المشوى وهي مدونة بهذه الاصوات ويرجع زمنها الى العصر البابلي القديم (مطلع الالف الثاني ق.م) . انظر مجلة « سومر » المجلد الثاني (١٩٤٦) ، القسم الانجليزي ، وقد فسرتها يومذاك بانها من قبيل « النوطة » الموسيقية .

نصوصها حديثا في الموضع الاثري المسمى « سلطان تبه » في منطقة حران ، وسيأتي ذكرها • ومما يقال عن قصص الحيوان بوجه عـام انها لم تصر جزءا مهما من الادب البابلي على غرار كليلة ودمنة ومجموعات القصص المنسوبة الى الكاتب اليوناني « ايسوب » (Aesop) (*) • وكـان نصيب مثل هذه القصص اكبر في النصوص السومرية بالمقارنة مـع النصوص البابلية(٤) • ونورد فيما يلي نماذج من هذه القصص الفكاهية القصيرة(٥) •

١ ــ الفأر والنمس :

« طارد النمس(**) مرة فأرا فأرادالفأر أن يختفي منه فدخل غار حية ولما الفى نفسه ازاء هذا الخطر الجديد ارتج عليه فقال للحية : « ارسلني اليك الحاوى مع التحيات »•

٢ ــ الكلب والنمس :

« طارد الكلب مرة نمسا فهرب منـه ودخل في « بربخ » (انبوب تصريف المياه) فلاحقه الكلب ودخل خلفه في الفوهة ، فانحبس فيهـا وافلت النمس منه » •

(*) تعزى المآثر اليونانية الى « ايسوب » انه كان مؤلف مجمـوعات القصص الخاصـة بالحيوان ، ويروى عنه « هيرودوتس » ، (القرن الخامس ق•م) انه عاش في زمن الفرعون « اماسس » (منتصف القرن السادس ق•م) ، وقد انتشرت هذه القصص بين الرومان وتتضمن ايضا مواعظ وحكما وسخرية •

(**) النمس mongoose حيوان في حجم القط الاليف قصير اليدين والرجلين طويل الذنب مولع بصـيد الفـأر والحيات • والحاوي snake charmer راقي الحية على ما هو معروف •

(٤) انظر :

Gordon in JCS, 12, 1 ff.

(٥) انظر المراجع الاساسية التالية :

1. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, (1960).
2. Gordon, IBID.; "Animals as Represented in the Sumerian Proverbs" in The Ancient World (Moscow, 1962).
3. Saggs, The Greatness that was Babylon, (1962), 444 ff.

٣ ـ البعوضة والفيل : «٥»

وقفت مرة بعوضة فوق ظهر فيل وهو يمشي فقالت له : « هل اثقلت عليك يا اخي ؟ فان كنت فعلت ذلك فانني سانزل عند بلوغنا مورد الماء فاجابها الفيل : « من انت ؟ لم احس انك كنت فوق ظهري ولن اعرف عندما ستنزلين » .

٤ ـ الثعلب والبحر :

« بال ثعلب مرة في البحر ، فنظر الى البحر وقال متعجبا متباهيا : أكل هذا البحر من بولي ؟ » .

٥ ـ الحصان والاتان :

« أسر الحصان في اذن الاتان(*) وهو يسفدها : عساك أن تلدي مهرا عداء مثلي ، فلا تجعليه كالحمار الذي ينوء بحمل الاثقال » .

٦ ـ الكاهن والاسد :

« ابصر احد الكهنة اسدا في البادية وهو في طريق عودته الى المدينة فملكه الرعب والهلع ، ولما نجا من الاسد وبلغ المدينة رأى عند بابها تمثال أسد رابض فهجم عليه ولطمه على وجهه قائلا « ماذا كان يفعل اخوك في البادية ؟ » .

٧ ـ رسالة من قرد الى امه :

من نصوص الفكاهة والتسلية رسالة قصيرة باللغة السومرية وضعت على لسان قرد الى امه(٦) يشكو فيها ما قاساه من الجوع في المدينتين المشهورتين « اور » و « اريدو » اللتين اشتهرتا بالخيرات ، وقد اضطر الى اكل النفايات والفضلات :

(*) الاتان انثى الحمار .

(٦) انظر :

Falkenstein in ZA, Vol. 49, 327 ff.; Archiv für Orientforschung, Vol. 23, 529 ff.

ومجلة « سومر » المجلد ٢٦ ، ١٩٧٠ ، ص ٩٠ .

« الى أمي « لودي ـ لودي » قل : هكذا يقول « اوكو ـ دل ـ بي » : انَّ اور مدينة البهجة والمسرات و « اريدو » مدينة الرخاء ، ولكنني مع ذلك اجلس وراء باب قاعة الموسيقى آكل الفضـــلات ، فعساني الا اهلك من الجوع . لم اذق طعم الخبز والجعة . فابعثي الي برســـول منك عـلى عجل » !

٨ ـ قصة « جميل ـ ننورتا » (فقير نفر) :

قصة « جميل ـ ننورتا » (Gimil-Ninurta) او كما يدعوها بعض الباحثين قصة « فقير نفر » ، اطول قصة هزلية تكتشف حديثا ، وقد عثر عـلى نصهـا بين الواح الطين التـي وجـدت في الموضع الاثري المســمى « سلطان تبه » ، وهو احد التلول الاثرية المنتشرة في منطقة حران القديمة في اعالي نهر الباليخ (البليخ)(٧) .وقد رويت القصة في قصيدة شعرية قوامها ١٦٠ بيتا من الشعر عدا تذييلها البالغ ١٣ سطرا . وان حقيقة كون بطل القصـــة من مدينة « نفر » في جنوبي العراق واكتشاف نصوصها في حران وفي نينوى ايضا دليل على مدى انتشارها في العـــالم القديم باعتبارها قصة جماهيرية .

خلاصة القصة :

« كان أحد فقراء مدينة نفر المسمى « جميل ـ ننورتا » قد بلغ بـه

---

(٧) دون النص في جملة نسخ على الواح الطين ، وجد منها لوحان في « سلطان تبه » في الخمسينات من هذا القرن في اثناء تنقيبات المدرســة الاثرية البريطانية في تركية ، كما وجد جـــزء من نصها في مكتبة الملك « آشور بانيبال » في نينوى . وقد أرخ أحد الالواح بالعام ٧٠١ ق.م. وكانت اول نشرة لها من جانب الاستاذ « كيرني » (Gurney) :
Gurney, The Sultan-Tepe Tablets, VI, (1956), 145 ff.

وانظر ترجمتها العربية للدكتور فاضل علي في مجلة « سومر » ، ٢٦ ، ١٩٧٠ ، ص ٩٠ فما بعد .

الاملاق درجة بحيث انه لم يجد من الخبز ما يسد به رمقه • وكثيرا ماكان يطوي الليالي وهو يتضور من الجوع ، ولما اشتد به البؤس فقد صوابه من اثر الجوع فباع ثيابه واشترى بثمنها عنزة ليذبحها ويأكل لحمها ، ولكنه عدل عن ذلك ، لان ذبح العنزة واكلها وحده سيجلب عليه سخط الاصدقاء والاقرباء ، ولذلك اعتزم أمرا آخر أمل منه خيرا أكثر ، فاخذ العنزة الى بيت حاكم المدينة ليقدمها هدية فينال منه الجائزة • وهكذا دخل على الحاكم مسرورا وهو يمسك برقبة عنزته بيده اليسرى ، وحياه باليمنى ودعا له بالخير وقال : « عسى أن يبارك الاله « انليل » الحاكم ، ويغدق عليه الاله « أدد » و « نسكو » الخيرات • ولكن يالخيبة فقير نفر اذ فاجأه الحاكم بالنهر والغضب وقال له : اتجرؤ يا هذا ان تقدم لي رشوة ! » وعبثا حاول الفقير شرح بؤس حاله للحاكم الذي اكتفى بطرده متهكما بان نصيبه من العنزة « عظاما » وسقاه جعة رديئة ، وطرد من قصر الحاكم ، فقال وهو خارج من البوابة للبواب : « قل لسيدك مقابل ما فعلته بي ساوفيك ثلاث مرات » • ولما بلغ الحاكم قول « جميل ـ ننورتا » ظل يضحك طوال نهاره • اما « جميل ـ ننورتا » فانه قصد من بعد ذلك قصر الملك ، ولما مثل أمامه حياه وقال : « يا سيدي ، يا مصدر قوةالرعية ويامن تمجده الملائكة الحارسة ، استعطفك ان تأمر بان يعطوني عربة واحدة ، وائذن لي ان افعل ما اتمنى طوال يوم واحد ، وسادفع « منا » واحدا من الذهب مقابل ذلك » • وبدون ان يسأله الملك عن امنيته وعن الاجرة مقدما أمر بتجهيزه بالعربة من الصنف الذي يستعمله الوجهاء والامراء كما أمر له بكسوة فاخرة • وركب « جميل ـ ننورتا » في العربة وقصد حاكم نفر وخرج هذا الحاكم بنفسه يستقبله ويرحب به وسأله عن هويته فاجابه ان الملك سيده أرسلهاليه وانه جلب معه ذهبا الى معبدالاله « انليل » فاكرمه

الحاكم وذبح له ذبيحة غالية ، وبعد الانتهاء من الطعـــام تعب الحاكم من السهر ، ولكن « جميل ــ ننورتا » ظل يحادثه ولما غلبه النعاس قام في سكون الليل ومزق ثيابه وفتح الصندوق وصرخ بالحاكم ان يستيقظ فقد وجد الصندوق مفتوحا وسرق الذهب منه ، واتبع قوله بان هجم على الحـاكم يكيل له الضربات فاستعطفه الا يقضي عليه ، وعوضـــه عن الذهب الذي ادعى انه سرق مرتين ، واعطاه بدلا من ثيابه الممزقة كسوة فاخرة • وعندما خرج من باب القصر قال للبواب : « قل لسيدك انني استوفيت منه حقي دفعة واحدة ، وبقي لي عنده قسطان » • ولما بلغ الحاكم ذلك ظل يضحك طوال النهار •

ثم تزيا « جميل ــ ننورتا » بزي طبيب وحلق شعر رأسه واصطحب معه عدة الاطباء الخاصة وقصد قصر الحاكم واخبر البواب انه طبيب ماهر جاء من مدينة « ايسن »(*) ، وانه متمرس بشفاء جميع الامراض ، ولمـا احضر « جميل ــ ننورتا » امام الحاكم كشف له هذا عن الكدمات في جسمه فقال له الطبيب الدعي انه لا يستطيع ان يطببه الا في مكان منعزل مظلم ، وهكذا انفرد به في غرفة مظلمة واوثقه وربطه من خمسة اوتاد ثبتهـا في الارض ، وانهال عليه بالضرب المبرح ، ثم تركه وخرج من باب القصـر وقال للبواب : « ليبارك الله سيدك قل لـــه انني استوفيت من ديني الان قسطين وبقي لي عنده قسط واحد » •

على ان « جميل ــ ننورتا » خاف في المرة الثالثة ان يظهر بنفســه فأستأجر رجلا وأوصاه ان يقصد باب الحاكم وينادي بأعلى صوته : « أنا صاحب العنزة الذي طرد من باب الحاكم » • اما « جميل ــ ننورتا » فانه

(*) « ايسن » وتعرف بقاياها الان باسم « ايشان بحريات » بالقرب من بقايا مدينة نفر ، كانت مشهورة باطبائها ، ولعل التحريات الالمانية التي بدأت فيها في هذا العام (١٩٧٣) ستكشف عن نتائج مهمة في هذا الموضوع •

اختبأ تحت قنطرة ، ولما سمع الحاكم صراخ الرجل خرج ومعه جميع اتباعه وحتى نساء قصره يطاردون الرجل ، وتخلف الحاكم عن المطاردين بسبب آلام جسمه ، وعندئذ فاجأه « جميل ـ نورتا » من مخبأه تحت القنطرة وانقض عليه بالضرب المبرح وقال له « لقد استوفيت منك حقي ثلاث مرات » ، ونقل الحاكم مغشيا عليه وهو بين الموت والحياة . وتنتهي القصة بالتذييل الآتي وفيه اسم كاتب القصة وتأريخها : « كتب ودقق وفق النسخة الاصلية بخط « نبو ـ رختو ـ اوصر » ، الناسخ المساعد وعضو مجمع « نبو ـ أخا ـ ادن » ، امين القصر ... في ٢١ آذار « لمو »(*) حاكم مدينة « تل ـ بارسب »(*).

ولعل بعض القراء ممن قرأ قصص الف ليلة وليلة قد فطن الى الشبه الواضح بين قصة « فقير نفر » والقصة الواردة في الف ليلة وليلة عن ذلك الفتى الذي ارسلته امه ليبيع لها عجلا في السوق فوقع في شرك جماعة من المحتالين اوهموه بان ما يسوقه ليس عجلا بل عنزة فاشتروه منه بثمن بخس ، وبعد ان وبخته امه على غفلته وبلاهته صمم على ان ينتقم من رئيس اولئك المحتالين فتزيا بزي فتاة وقصد منزل المحتال ، ولما رآه افتتن برؤية الفتاة وادخلها الى البيت وابصر الفتى المتزي بزي الفتاة حبلا معلقا في الدار اخبره المحتال انه يعلق به من يريد ان يعذبهم من سجنائه . فطلب

(*) مدينة « تل بارسب » تسمى بقاياها الآن باسم « التل الاحمر » تقع الى جنوب كركميش (جرابلس) في اعالي الفرات ، وقد صارت مركز مملكة ارامية مهمة تدعى « بيت أديني » . اما كلمة « لمو » Limmu) فتشير الى طريقة التأريخ الاشورية حيث كانت الحوادث تؤرخ بعهود الحكام والبارزين في الدولة اعتبارا من السنة الأولى من حكم الملك .

منه الفتى ان يريه كيف يفعل ذلك فجعله يعلقه من الحبل وعندئذ انهال عليه ضربا بسوط كان قد اخفاه تحت ملابسه • ولم يكتف الفتى بذلك وانما ترصد لرئيس المحتالين في الصباح التالي لما قصد الحمام ليغسل جراح جسمه ، وهنا انفرد به واوجعه ضربا • ثم انتقم منه مرة ثالثة وتكاد ان تكون هذه المرة مطـابقة لما ورد في قصة « فقير نفر » ، اذ طلب رئيس العصابة من اتباعه ان يأخذوه الى البادية ويضعوه في خيمة ليتخلص من ملاحقات الفتى ، ولكن لم يجده هذا التدبير نفعا فان الفتى تنكر واستأجر بدويا وأوصاه ان يذهب الى الخيمة وينادي بأعلى صوته بانه هو صاحب العجل • ولما فعل ذلك انطلق وراءه اتباع شيخ المحتالين يطاردونه تاركين رئيسهم وحده في الخيمة • وعندئذ بادره الفتى مرة ثالثة وكرر الضرب والانتقام منه • وعندئذ لجأ المحتال الى التخلص من الفتى فتظاهر بالموت وحمل في النعش ، ولكن الحيلة لم تنطل على الفتى فرافق المشيعين واقترب من النعش ووخز الميت ، فقام المحتال من تابوته واطلق ساقيه للريح • وهكذا انتصر الفتى مرة اخرى •

شعر الغزل

تقتصر معرفتنا بأدب الحب والغزل في حضارة وادي الرافدين على بضعة نصوص سومرية ، حيث كشف الباحثون حديثا عن قصائد يدور معظمها على موضوع فسروه بأنه شعائر ما يسمى بالزواج الالهي أو الزواج

المقدس(*) ، أي الزواج بين اله والهة الخصب وقيام الحاكم أو الملك وكاهنة عليا لتمثيل الاله والالهة في ذلك الاقتران المقدس الذي ينتج عنه احلال الخصب والخير في البلاد . على أن الواقع انه باستثناء هذه القصائد الغزلية التي سنتناولها لا توجد نصوص أخرى صريحة في وصف هذه الشعائر الدينية المهمة التي يبدو انها كانت من بين الشعائر المهمة في حضارة وادي الرافدين ، ولكن لا يعلم متى بدأت على وجه التأكيد ، على انه يمكن الافتراض ان ممارستها بدأت منذ أقدم العصور التاريخية ، ولعله منذ نهاية عصور ما قبل التأريخ ، في العصر الذي أطلق عليه في تأريخ العراق القديم اسم « العصر الشبيه بالتأريخي » أو

(*) (Sacred Marriage) وبالمصطلح الاغريقي (Hieros Gamos)

وقد عالج هذا الموضوع عدة باحثين ، وتدرج فيما يلي اهم البحوث عنه :

1. Kramer in Proceeding of the American Oriental Society, Vol. 107, No. 6, p. 480 ff.
2. ———, in IRAQ, (1960), 59 ff.
3. ———, in Rencontre Assyriologique Internationale (1969) (1970), 135 ff.
4. Van Buren, "The Sacred Marriage in Early Times in Mesopotamia" in Orientalia, 3, (1944), 43 ff.
5. Jestin, "Un Rite Sumeriene de Fecondite': Le Marriage du Dieu Ningirsu et la Desse Baba" in Archiv Orientalni, 17, (1949), 3 ff.
6. Römer, Sumerische Königshymnen der Isin-Zeit, (1965)
7. Saggs, The Greatness that was Babylon, (1962), 378 ff.
8. G. Dossin, "Un rituel du Culte d'Ishtar" in Revue d'Assyriologie, XXXV, 1 ff.
9. Kramer, "The Dumuzi-Inanna Sacred Marriage Rite" in Rencontre Assyriologique Internationale, XVII, (1970), 133 ff.

« الشبيه بالكتابي »(*) (٣٥٠٠-٣٠٠٠ ق٠م) ٠ وكان في أصله النظري يقوم كما قلنا على الاتصال الجنسي ما بين الهة الخصب والحب والجنس التي عرفت بأسماء وصفات مختلفة أشهرها « انانا » السومرية ، وهي عشتار عند الساميين ، وبين اله الخصب « دموزى » (تموز) ، وكلاهما عبدا في مدينة الوركاء (اوروك) ، حيث ذكر تموز من بين الملوك القدامى في تلك المدينة بحسب اثبات الملوك السومرية التي جعلته الملك الرابع في سلالة الوركاء الاولى ، كما كان اله الخصب والرعي ، والمرجح أن دموزي الراعي والملك ودموزي الاله كانا شخصا واحدا في الاصل ، ولذلك فيرجح بعض الباحثين ان أقدم ممارسة لشعائر الزواج الالهي بدأت في هذه المدينة التي اشتهرت بكونها المركز الرئيسي لعبادة الالهة « انانا » (عشتار) ٠

ويستدل من النصوص التأريخية القليلة على انه لم يقتصر هذا الزواج الالهي لاحلال الخصب والبركة في البلاد على مدينة الوركاء ولا على الهيها « دموزى » (تموز) و « انانا » (عشتار) بل كان يمكن لاي زوجين من الآلهة في المدن الاخرى ان يقوما بشعائر العرس الالهي ، مثل الزواج بين الهي دولة « لجش » ، الاله « ننجرسو » والالهة « بابا »(**) ٠ وبموجب ما توصل اليها البحث الحديث عن الموضوع كان

(*) حول هذا الموضوع وتفسير بعض المعابد المزدوجة التي اكتشفت في الوركاء في هذا العصر على انها خاصة بشعائر الزواج الالهي ، راجع كتابي « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » ، الجزء الاول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) ٠

(**) انظر :
Jestin, "Un Rite Sumerien de Fecordite: Le Marriage du Diue Ningirsu et la desse Baba", in Archiv Orientalni, 17, (1949), 3 ff.

الزواج الالهي يتم على الصعيد البشري من الناحية العملية التطبيقية بأن يقوم الحاكم أو الملك بدور الاله « تموز » ، وتختار كاهنة من الطبقة العليا لتمثل الالهة عشتار • والجدير بالذكر بهذا الصدد ان بعض الباحثين فسروا المقبرة الملكية الشهيرة في « اور » ، ان ما وجد فيها من ضحايا بشرية ، من ملوك وامراء واتباع والنفائس التي دفنت معهم ، هي من بقايا ممارسة شعائر الزواج الالهي بين الملك أو الحاكم واحدى الكاهنات العليا ، وكانوا هم واتباعهم يضحون وهم احياء ويدفنون في مقبرة خاصة باعتبار ان الملك يمثل الاله تموز الذي ينزل الى العالم الاسفل ويحبس فيه طوال ستة أشهر ثم يقوم الى عالم الاحياء في النصف الآخر من السنة بعد أن تذهب أخته المسماة « كشتن ـ أنا » الى ذلك العالم لتكون بديلة عنه ، فان من سنن هذا العالم أن من يدخل اليه لا يقوم منه ولو كان الها الا بعد أن يقدم بديلا عنه • وسنتطرق الى هذا الموضوع مرة أخرى في كلامنا على الاساطير المتعلقة بالعالم الاسفل • واذا صح التفسير الذي أوردناه للمقبرة الملكية في اور على ضوء عادة ممارسة الزواج الالهي وان زمنها يرقى الى الاطوار الاولى من عصر السلالات الثالث قبيل قيام سلالة « أور » الاولى ـ نقول اذا صح هذا التفسير فان بعض النصوص التي وصلت الينا من الفترة التالية من عصر السلالات الثالث وبوجه الخصوص نصوص سلالة لجش الاولى تشير الى ممارسة شعائر الزواج الالهي ولكن بدون التضحية البشرية التي وجدت معالمها وآثارها في المقبرة الملكية • فقد جاء في نصوص أحد ملوك سلالة لجش المسمى « ايانانم » (Eannatum) انه « زوج الالهة انانا المفضل » ، ويخبرنا الملك « انتمينا » من السلالة نفسها ان تلك الالهة قد احبته فمنحته الملوكية على كيش ولجش ، على أن هذه العبارة قد لا تعني الزواج المقدس وانما مجرد التنويه بحظوة ذلك

الملك لدى الالهة ، وكذلك يقال بالنسبة الى ما ورد في قصة سرجون الاكدي من أن الالهة عشتار احبته ومنحته الملوكية • وكانت أولى معالم واضحة لممارسة شعائر الزواج المقدسة من عهد الملك « شولكي » ثاني ملوك سلالة أور الثالثة(*) •

ويرجح ان هذا الزواج الالهي كان يحتفل به بصفته احد الاعياد العامة أو الرسمية المهمة ، وكان يقام على اغلب الظن في مطلع الربيع وكان عيدا مستقلا قائما بذاته ولكنه أدمج في العصور التاريخية المتأخرة ، لعلها منذ نهاية الالف الثاني ق•م بعيد رأس السنة المعروف باسم « أكيتو » او « اكيتي » (Akitu. Akiti) الذي كان يحتفل به في أوائل شهر نيسان (بداية السنة البابلية) • ومن الامور المتعلقة بالزواج المقدس مما استنتجه الباحثون من النصوص الدينية والادبية انه كان يقام بوجه عام في المعبدالرئيسي من المدينة في جزء خاص منه خصص لهذا الغرض يسمى «اكيبار» (Egipar) أو « كيبار » (Gipar) و « كيباركو » على انه وردت أشارات الى العرس الالهي كان يمكن اجراؤه أيضا في قصر الملك مثل الزواج الذي قام به أحد ملوك سلالة « ايسن » المسمى « ادن ــ دكان » في قصره في ايسن ، وسيرد ذكر القصيدة الغزلية التي نظمت في تلك المناسبة • وكان الاحتفال يبدأ بوصول موكب الاله الممثل بالملك ، وهو في أبهى الملابس والحلل ، ويقدم كبير الكهنة الملك الى عروسه الالهية وهو يرتدي حلة خاصة وفي رأسه التاج ، الى المكان المخصص للعروس الالهية حيث الكاهنة العليا الممثلة للالهة « انانا » (عشتار) وهي في حجرة خاصة من المعبد كما قلنا وقد ارتدت أبهى الحلل وازينت بأفخر الحلي مما يجعلها لائقة لان تكون العروس الالهية

(*) انظر قصيدة الغزل المنشورة في ANET
Kramer, The Sacred Marriage Rite, (1960), p. 67-68.

وبعد التقديم تستقبل هذه العروس الالهية الملك بانشاد الترانيم والاغاني ، مظهرة حبها وهيامها وشوقها الى الاتصال بالعريس الالهي حيث تدعوه الى المضاجعة ، كما جاء في القصيدة الغزلية التي يعتقد انها نظمت بمناسبة عرس رابع ملوك سلالة اور الثالثة المسمى « شو – سين » :

« أيها العريس الذي يعشقه قلبي ويهواه
ما الذ وصالك ، فهو حلو كالشهد
لقد اسرتني بحبك ، فيا ليتك دخلت الى غرفة الاضطجاع
دعني اقبلك يا عريسي ، فقبلاتي احلى من الشهد
وفي سرير الاضطجاع دعني اتمتع بجمالك
فهلم يا عريسي الى بيتنا ونم فيه الى الفجر
يا سيدي الاله ، وسيدي الحامي ، يا شو – سين ، يا من يسر قلب انليل(*) »

وبعد مضاجعة الملك للعروس الالهية التي تمثلها الكاهنة العليا أو أية كاهنة من الطبقات الممتازة ، تقدر هذه العروس ، بصفتها ممثلة للالهة « انانا » (عشتار) ، مصائر البلاد واقدارها ، واحلال الخصب والخير والبركة فيها ، وهو الغرض الاساسي التي كانت تقام من أجله تلك الشعائر . ويعقب ذلك على ما يرجح اقامة الاحتفالات والولائم وفي مقدمتها الوليمة والاحتفال اللذين يقيمهما الملك تكريما لعروسه الالهة وكان الملك وعروسه يجلسان على منصة خاصة(**) .

(*) راجع : Kramer, The Sumerians (1963), 254
———, The Sacred Marriage Rite (1969)

(**) راجع المصدر الاتي حيث القصيدة السومرية الطريفة التي سجلت الموضوع :
Falkenstein und Vin Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete (1956), 9-99.

ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن اسمين من أسماء الكاهنات اللواتي كن يقمن بدور العرائس الالهيات قد وردا منقوشين في قلادتين جميلتين وجدتا في منطقة معبد « اي ــ أنا » في الوركاء (في المتحف العراقي الان). فاسم الكاهنة الاولى نقش على احدى خرزات قلادتها في العبارة : « ابابشتي » (Abbabashti) كاهنة الـ « ناديتو » ، محبوبة « شو ــ سين » ملك اور ، واسم الثانية : « كوباتم » ، كاهنة الـ « ناديتم » ، محبوبة شو ــ سين ، ملك أور(*) .

ويجدر ان نذكر ان اشارة مهمة الى شعائر « الزواج المقدس » وردت في ملحمة جلجامش ، ونعني بها المورد الذي يصف بدء نشوب الصراع ما بين جلجامش وانكيدو عند قدوم هذا الى الوركاء ، فقد صادف ان جلجامش كان على وشك الدخول على عروسه الالهية فتصدى له « انكيدو » ومنعه من الدخول :

ولما هيء الفراش للالهة « اشخارا »(**)
واقترب جلجامش ليتصل بالالهة مساء
وقف « انكيدو » في الدرب يسد الطريق بوجهه

وفي ختام هذه الملاحظات عن الزواج الالهي يجدر ان ننوه بما أطلق عليه الباحثون « البغاء المقدس » (Sacred Prostitution) فقد ارتؤي ان بعض أصناف من الكاهنات كن يخصصن له ، هما الصنف المسمى « قادشتو » (qâdishtu) وصنف الـ « كلماشيتو »

(*) انظر :
Van Buren, "The Sacred Marriage in Mesopotamia" in Orientalia, 3, (1944), 43 ff.

(**) « اشخارا » من الهات الحب وشكل من اشكال عشتار .

بوجه عام • والذي يقال عن هـــذا البغاء المقدس انه موضـــوع يكتنفه الغموض ، ولا يوجد في النصوص الاصلية معلومات وافية عنه ، فتقتصر معرفتنا باحتمال ممارسته على ما جاء في روايات الكتاب الكلاسيكيين ، وفي مقدمتهم المؤرخ المشهور « هيرودوتس » (القرن الخامس ق•م) الذي يربط ممارسة البغاء المقدس بعبادة الالهة عشتار ومعابدها ، ولكنه بالغ في التفسير والتفصيل • وورد في تأريخه أيضا اشارة الى ما يرجح ان يكون شعائر الزواج الالهي في وصفه لبرج بابل الشهير ، وكيف كان يرقى اليه بطبقاته الثماني بسلم حلزوني يدور حوله ، ويوجد في قمة البرج معبـد فيه سرير فاخر وبجواره منضدة من الذهب ، وانه لم يكن يقيم في هـذه الحجرة سوى امرأة روى البابليون لهيرودوتس ان الاله اصطفاها لنفسه ، وان الاله ينزل من السماء فيستريح في تلك الحجرة(*)•

ويجـــدر ان نذكر ان الباحثين حديثا وجدوا في قصـــائد الغزل السومرية الخاصة بالزواج الالهي مفتاحا لحل ما عرف بـ « نشيد الانشاد » المنسوب الى سليمان(**) فهي مجرد شعر غزلي مشبع بالحب والشهوة مما لا ينسجم مع الصفة العامة لاسفار التوراة على الرغم من التفسير الساذج الذي لجأ اليه احبار اليهود من ان المحب في تلك الاغاني هو الله وان العشيقة المتغزل بها « شعب اسرائيل » ، وكثرت التفسيرات والتوجيهات الاخرى من جانب المختصين بالدراسات التوراتية ، حتى اهتدى الباحـــث المختص بالدراسات المسمارية والتوراتية « ميـــك » (Theophile Meek) الى ان تلك الاشعار الغزلية المنسوبة الى سليمان من تراث تلك القصـــائد

(*) انظر تاريخ هيرودوتس الكتاب الاول ١٨٠ـ١٨٢ •

(**) تؤلف هذه الاغاني احد اسفار التوراة القصيرة وهي تتألف من ١١٧ بيتا مقسمة الى ثماني قطع او فصـــول ، وتسمى بالعبرية « شير هشريم » (Song of Songs)

الغزلية السومرية الخاصه بالزواج الالهي ، اي انها من قبيل « مجموعة أغاني الاعراس » (Epithalmium) التي اقتبسها الكنعانيون من بين ما اقتبسوه من أدب حضارة وادي الرافدين وعنهم اخذها العبرانيون[*].

أشهر القصائد الغزلية

١ ـ حوار غرامي بين « انانا » و « دموزي » :

واول ما نذكر من شعرالغزل[٨] قصيدة سومرية تتألف من نحو ٤٨ بيتا نظمت على هيئة حوار ما بين الالهة « انانا » (عشتار) وبين الاله « دموزي » (تموز) ، وفيه يتفاخر كل منهما بنسبه ، وقد اتسمت اجابة « دموزي » على تبجح « انانا » باللطف والتودد ، مما أثار هيام كل منهما بالآخر وتم الوصال ما بين الاثنين .

٢ ـ الاتصال بين « انانا » و « دموزي » :

وهذه قصيدة سومرية غزلية ثانية تتألف أيضا من نحو ٤٨ بيتا وتدور على الاتصال الجنسي بين « انانا » و « دموزي » ، وهو ما اطلقنا عليه مصطلع « الزواج الالهي » ، فبعد ان ازينت « انانا » بأفخر حلاها وجواهرها تم باللقاء بين الالهين في معبد مدينة « اورروك » ، « أي- أنا » ، مركز عبادة هذه الالهة والاله « آنو » ، وكان الاتصال الجنسي في الموضع المخصص لذلك الزواج الالهي الذي قلنا انه يطلق عليه « گيبار » (GIPAR) او « گياركو » (Giparku)

---

(٨) Kramer, ANET (1969), 63 ff.

(*) Kramer, The Sacred Marriage Rite, (1960), 89.

٣ ـ اللقاء بين الالهين العاشقين :

القصيدة الغزلية السومرية الثالثة جاء معظمها على لسان الآلهة « انانا » (عشتار) التي اظهرت هيامها وافتتانها بحبيبها « دموزي » (تموز) ثم جرى حوار ما بين هذين الالهين العاشقين ، اذ طلب تموز من عشتار لقاءا عاجلا وان تنتحل لامها « ننگال » (Ningal) عذرا بانها امضت الليل مع احدى صاحباتها ، ليستطيع العاشقان ان ينعما باللقاء والحب على ضوء القمر • وتنتهي القصيدة بذهاب العاشقين الى منزل أم عشتار وطلب «دموزي» يد ابنتها وتم العرس الالهي والاتصال الجنسي ما بينهما • ونقتطف نماذج من هذه القصيدة بعد حذف الابيات المكررة فيها :

« بينما كنت بالامس ، انا ملكة السماء ، ازهو واتألق
« حين كنت اتلألأ وامرح وحدي
« حين كنت أغني مع شروق نور الشفق
« التقى بي « كولي ـ أنا »(*) ، التقى بي سيدي « دموزى »
« أمسك بيدي « اوشم ـ گال ـ انا »(*) وعانقني »

وحاولت « انانا » ان تفلت منه اذ خاطبته :

« ما هذا ايها الثور الوحشي(*) ، عليّ ان اعود الى البيت فخل سبيلي ماذا عسى ان اقول لامي • باي عذر ساتذرع الى امي « ننگال »(**) •

فأجابها دموزي : « يا « انانا » يا ادهى النساء ساعلمك ما تقولين
« قولي لها : اصطحبتني احدى صويحباتي الى ميدان المدينة العام
« فلهونا بالالحان والرقص ، وغنت لي اغنية عذبة

(*) « كولي ـ أنا » (Kuli-anna) من نعوت الاله دموزي ، ويعني صديق « آنو » • وكذلك يقال في الاسم « اوشم ـ كال ـ أنا » (Ushum-gal-anna) الذى يعني « تنين السماء العظيم » ، ومن نعوته ايضا « الثور الوحشى » •

(**) الالهة « ننكال » (Ningal) (السيدة العظيمة) اسم زوجة الاله القمر « نانا » (سين) ، وتنسب المآثر عشتار ايضا الى انها ابنة الاله « آنو » ، وفي بعض الاحايين زوجته •

« ففاتني الوقت وانا في غمرة فرحي وحبوري »

٤ ـ العرس الالهي بين « انانا » وبين الملك « ادن ـ دكان » :

ومن القصائد السومرية الخاصة بالحب الالهي اغنية او ترتيلة عرس نظمت بمناسبة الزواج المقدس بين الالهة « انانا » والملك « ادن ـ دكان » (Iddin-Dagan) (١٩٧٤–١٩٥٤ ق٠م) ثالث ملوك سلالة « ايسن » وهي احدى السلالات التي قامت من بعد سقوط سلالة اور الثالثة في مطلع ما يسمى بالعصر البابلي القديم (٢٠٠٠ ـ ١٥٠٠ ق٠م) • ومما لا شك فيه ان كاهنة عليا قامت بدور الالهة « انانا » في ذلك العرس الالهي •

تبدأ القصيدة(٩) بخطاب موجه الى الالهة بان مضجعها في معبدها المقدس « اي ـ آنا » (في مدينة اوروك ـ الوركاء) قد هيء وطهر من جانب اله النار « گبل » (GIBIL) ، وان الملك اقام لها مذبحا واجرى الشعائر المقدسة ، ويعقب ذلك صلوة وتضرع الى الالهة ان تتهيأ لاستقبال الملك مساء وان تلاطفه وتغازله في « حجرة الاضطجاع المقدسة، وان تمنحه الحياة السعيدة الطويلة وتهبه شارات الملوكية : « العصا » و « الصولجان » و « المحجن » • ويتغنى الشاعر في جلال حجرة العرس الالهي الخاصة بالملوكية • وبعد انخرام في النص تخاطبه الالهة « انانا » وتباركه وتمنحه العمر الطويل ، ويعقب ذلك ان رسول الالهة المسمى « ننشوبر » (Ninshubur) يقود الملك من يده اليمنى ويجلسه في حضن « انانا » ، ويسألها أن تكررمنحه البركة والخير له ولشعبه:« الحكم الصالح السعيد ، والعرش الوطيد وشارات الملوكية الصالحة وحكم بلاد سومر واكد والاقاليم البعيدة ، وان تمكن الملك ، كالفلاح لصالح السعيد ، من اعمار

---

(٩) نشر النص المسماري الذي يتضمن هذه القصيدة ضمن مجموعة النصوص المسمارية في المتحف البريطاني (CT., XII, No. 4) ونشرها الاستاذ « كرامر » في مجلة :
Proceeding of the American Philosophical Society, Vol. 107, No. 6, p. 501 ff.: ANET., (1969), 640.

المزارع والحقول وتوفير الغلات ، وكالراعي الامين ان يضاعف الماشية في حظائرها . وان تنال البلاد في عهده كل ما تحتاج اليه من الخضار والغلات ووفرة المياه في الانهار وكثرة الاسماك والطيور في الاهوار ، وحيوان الصيد في البادية ، وازدهار البساتين وان تفيض مياه دجلة بالماء الوفير فتسقي ضفافها وحقولها وبساتينها . ويختم « ننشوبر » صلوته وتضرعه الى الالهة ان تدع الملك يمضي وقتا طويلا سعيدا في حضنها ، فينعم بوصالها الجالب للخير والبركة والسعادة .

٥ ــ قصيدة غزل في الملك « شو ــ سين » :

من قصائد الغزل المكتشفة بين النصوص السومرية حديثا ، جملة قصائد واغان كانت تنشد بمناسبة « **العرس الالهي » الخاص بالملك « شو ــ** سين » ، رابع ملوك سلالة « أور » الثالثة[١٠] . وكانت مثل هذه الاغاني ترتلها احدى الكاهنات اللواتي تسمى الواحدة منهن في اللغة البابلية « ناطيتو » (ناديتو) وبالسومرية « لوكر » (LUKUR) وكن من بين اصناف الكاهنات اللواتي كن يقمن بدور الالهة « انانا » (عشتار) في العرس الالهي ، حيث الملك يمثل الاله تموز كما قلنا :

١ ــ ففي القصيدة الاولى يبدأ غناء الكاهنة بتمجيد الملكة التي ولدت الملك « شو ــ سين »(*) ، وان هذا الملك جزاء تمجيدها له وغزلها فيه قدم لها هدايا نفيسة من القلائد واختام الذهب وانه غازلها وعانقها ، وتصف جمالها وحلاوة عناقها وان لذة « فرجها » مثل لذة خمرة التمر .

---

(١٠) آخر ترجمات هذه القصائد في المرجع الذي أشرنا اليه مرارا والمرموز له بـ .ANET., (1969)

(*) ورد اسمها بهيئة « أبيسمتي » (Abisimti) وان « شو ــ سين » ابن الملك « شولگي » (ثاني ملوك سلالة أور الثالثة) وهذا يخالف ما جاء في (اثبات الملوك السومرية) من انه ابن « بور ــ سين » . وبموجب هذه الدلالة الجديدة يكون « بور ــ سين » و « شو ــ سين » اخوين وان اباهما « شولگي » .

٢ ـ والقصيدة الثانية مثل الاولى شعر غزل بمناسبة « الزواج المقدس » بين الملك « شو سين » نفسه بصفته ممثلا للاله تموز وبين الالهة « انانا » (عشتار) وتمثلها الكاهنة التي وردت على لسانها هذه القصيدة الغزلية •

وتبدأ القصيدة بتغني الكاهنة بجمال شعر رأسها الذي تشبهه بالخس(*) ، وانها زينته لمناسبة العرس الملكي المقدس ، ثم تتغزل باقترانها بالملك « شو ـ سين » ، وهو موطن ناقص في القصيدة التي تنتهي باظهار الكاهنة نشوة الحب واللذة من الاتصال بالملك وبالدعاء والبركات لحياته وازدهار عهد حكمه •

٣ ـ والقصيدة الغزلية الثالثة الخاصة بالملك « شو ـ سين » كانت تغنى وتنشد من جانب طبقة من كاهنات المعبد ، ارتؤي اطلاق مصطلح « بغايا المعبد المقدسات » عليهن • وتبدأ القصيدة بتعداد جملة نعوت للملك واظهار الفرح ودعوة الملك ان يتصل بعروسه الالهية من اجل احلال الخير والبركة في البلاد •

٤ ـ اما القصيدة الرابعة من هذا الصنف من الغزل فلم يذكر فيها اسم الملك الذي كان يقوم بدور الاله تموز في شعائر الزواج الالهي بيد انه وصف بصفات جنسية رمزية تتسم بالشهوة والشبق والخصب الجنسي وانه « الخس النابت في المياه » و « البستان المزدهرة » و « شجرة التفاح المثمرة الشهية » وان « اعضاءه الشهد الذى يحلي جسدها ، فهو يحلي سرتها وما بين فخذيها ••• » •

٥ ـ والقصيدة الخامسة تتسم باقصى درجات الانغماس والافراط في

(*) وقد عنون المترجم الاستاذ كرامر (ANET, (1969), 641 القصيدة بعنوان « شعر رأسي خس » ، ولعل تشبيه شعرها بالخس ينطوي على مدلول خصبي ، والخس في الحضارات القديمة ، ولاسيما حضارة وادي النيل ، من النباتات التي اشتهرت باستعمالها لتقوية الباه •

الاتصال الجنسي حيث تروى الالهة « انانا » النشوة واللذة اللتين جنتهما من اتصالها بحبيبها الذي تصفه بانه اخوها ، وان الجماع المفرط معه قد انهك قواه فتضرع لها ان تحرره من قبضتها ، وانه سيأخذ بها الى ابيه لتكون عروسه . والمرجح ان الاله « تموز » هو الذى ذكر في القصيدة بانه اخوها ، والاله « انكي » (ايا) ابوه .

أدب الصلوات والتراتيل والأدعية

لعلنا في غنى عن القول بان الديانة بمختلف اوجهها ومقوماتها شغلت مكانا بارزا في حياة اقوام حضارة وادي الرافدين على ما هو معروف لدارسي هذه الحضارة ، يدل على ذلك وفرة المدونات والنصوص الدينية التي خلفتها سواء كان منها اخبار الملوك الطافحة بنشاطهم في تشييد المعابد المختلفة واقامة الشعائر الدينية المتنوعة ، وما جاء الينا من النصوص المسمارية الكثيرة ، في اللغتين السومرية والبابلية ، عن الحياة الدينية المتشعبة الاوجه والجوانب، مما لا يمكن شرحه والاسهاب فيه ، فهي تؤلف موضوعات بحث خاصة في ديانة حضارة وادي الرافدين خارجة عن الموضوع الذي بين ايدينا ، فيكفي من ناحية هذا الموضوع ان نقول ان هناك نصوصا مهمة تتضمن انواع الصلوات والادعية والتراتيل الدينية المختلفة ، يعد البعض منها بحق من أروع انواع النتاج الادبي الشعري مما وصل الينا من ادباء العراق القديم فيحسن ان نفرد لها موضوعا خاصا في بحثنا ، نخص بالذكر منها نوعا من الصلوة يمكن ان نعنونها بصلوة « رفع اليد » ، ترجمة للمصطلح البابلي (Nîsh-qâti) وبالمصطلح السومري « شو ـ ايلا » (SHU-ILA) وهي ذات طراز أدبي خاص تبدأ عادة في الابتهالات الى اله معين وتمجيده ثم يعقب ذلك القسم الاوسط من القصيدة الذي يخصص لتوسلات المصلي وشكواه ، وتنتهي بازجاء المديح والثناء للاله استباقا لتحقيقه دعوات المصلي.

ولعل اشهر النصوص التي يجدر وضعها في عداد القطع الادبية الرفيعة التراتيل المخصصة لتمجيد الاله الشمس « شمش » ، واشهرها ترتيلة مطولة تتألف من نحو (٢٠٠) بيت من الشعر لا تقل في روعتها عن صلوة الفرعون المصري الشهير « اخناتون » (القرن الرابع عشر ق٠م) الى الاله الشمس « أتون » • وهناك انواع اخرى من الصلوات والتراتيل نذكر منها ما يسمى صلوة « الشكوى » (بالبابلية شيگو shigû) وصلوة النعمة والبركة : اكريبو » (Ikribu) [١١] ، ونورد فيما يلي اشهر هذه التراتيـــل •

١ ـ تراتيل للاله « شمش » :

وجد بين النصوص الدينية جملة تراتيل ومدائح نظمت لتمجيد الاله « شمش » ، الاله الموكل بشؤون الحق والعدل والصدق بصفته قاضي السموات والارض ، ومن بينها ترتيلة على لسان الملك الآشوري الشهير « آشور بانيبال » (٦٦٨-٦٢٦ ق٠م)[١٢] نقتطف منها النماذج التالية :

يا نور الآلهة العظام ، يا نور الارض ، ويا مضيء اقاليم العالم •

« ايها القاضي الاعظم ، المبجل في السماء والارض •

« يا من لا تنفك عن الوحي ، فتقرر اقدار السماء والارض كل يوم •

---

(١١) عن القصائد السومرية والبابلية الخاصة بموضوع التراتيل والصلوات انظر المراجع الاساسية الاتية :
Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete, (1956).
ومجموعة النصوص القديمة الخاصة بالشرق الادنى المرموز لها ب
ANET.

(١٢) عثر على النص المسماري في أثناء التنقيبات الالمانية في آشور (١٩٠٤ ـ ١٩١٢) ، انظر :
Ebeling, KAR, Nos. 105, 361.
وترجماته في :
Ebeling, Quellen Zur Kenntnis der Babylonischen Religion, 1918; Stephen in ANET., (1969), 386.

« شروقك نار وهاجة تحتجب بسناها نجوم السماء .
« انت متفرد بسناك فلا يضارعك فيه اله من الالهة .
انت وابوك « سين » تعقدان « محكمة العدل » وتصدران الاقضية .
« لا يعقد « آنو » و « انليل » قرارا من دون رضاك
« انت معتمد « ايا » ، مقرر الاحكام في الاعماق .
« الكهنة المعوذون يسجدون اليك ليدرأوا نذر الشر
« واليك يتوجه كهنة التنبؤ ليتسلموا النبوءات .
« أنا عبدك « اشور بانيبال » الذي قدرت له الملوكية في الرؤى .
« انا الذي يلهج بعظمتك وبمجدك امام الخلق » .

وهناك ترتيلة للاله شمش يخاطب فيها بصفته اله العالم والقاضي السماوي الاعظم الذي يعاقب الاشرار ويظهر الحق . وقد جمعت القصيدة من جملة كسر من الالواح وجدت في مكتبة « آشور بانيبال » (القرن السابع ق.م)[١٣] نورد منها الابيات التالية :

« يا منير الظلمات ، ويا من يمحو الشر في العلى وفي الدنى .
« تنشر اشعتك كالشبكة على البسيطة والجبال والبحار
« انت تمسك باطراف الارض المعلقة من وسط السماء
« وتحرس كل ما خلقه « ايا » ، فانت راعيهم في العلى وفي الدنى
« انت راعي العالم الاسفل ، وحامي العالم الاعلى
« انت يا شمش دليل كل شيء ونوره
« لا احد من الآلهة من يجهد نفسه مثلك على الدوام
« تجتمع آلهة البلاد عند شروقك
« ويطغي سنا نورك على الارض
« من ذا الذي بوسعه ان يتغلغل الى اعماق البحار غيرك

(١٣) انظر : Stephens, ANET, 387

« انت الذى تحاكم الاشرار وتختبر الاخيار .
« واحكامك عادلة لا ترد ولا تبدل
« انت الذى تأخذ بيدك سالك البحر الذى يخاف الموج
« وتقود خطى الصياد في الطرقات التي لا يعرف مسالكها
« ان شبكتك منشورة لتمسك بمن يشتهي زوجة رفيقه
« انت تحكم في مصير من يغشون في الوزن والحساب
« وتعاقب القاضى الذى لا ينهج محجة العدل ،
« والمرتشى الذي يضلل طريق العدل

اما من ينصف الفقراء ويدافع عنهم والذى لا يرتشي فانك يا شمش تجزيه خيرا على صنيعه

ما عسى أن يحصل المرابي الذي يشتط في فائضه ؟ ان هو الا كذاب غشاش . اما من يقرض بفائض عادل (شيقل واحد لكل ثلاثة ؟) فانــه يبعث السرور في شمش ويكسب المال الوفير .

ومن قسط في الكيل والوزن فانه يرضى شمش ويحصل على المال والذرية الدائمة » .

٢ ـ ترتيلة للالهة عشتار :

ومن التراتيل التي نظمت في تمجيد الالهة « عشتار » نختار القصيدة التالية التي نظمت في أواخر سلالة بابل الاولى في حدود ١٦٠٠ ق.م ، من زمن الملك « عمي ـ ديتانا »(١٤) ، ونقتطف منها الابيات التالية :

---

(١٤) نشر نص القصيدة في مجلة RA., XXII, 170-1 وترجمتها في المجلة نفسها وفي مجلة ZA., XXXVII, 19 ff. واخر ترجمة لها في : Stephens in ANET., (1969), 383.

« حمدا لك يا اروع الالهات واشدهن رهبة
« ليقدس الكل سيدة الخلق ، واعظم الآلهة
« حمدا لك يا اروع الالهات واشدهن رهبة
« وليقدس الكل سيدة الخلق واعظم الآلهة
« الالهة التى ترتدى اللذة والحب
« المفعمة بالحيوية والسحر والشهوة واللذة
« حلوة في شفتيها ، ويكمن سر الحياة في فمها
« ذات مجد وسناء ، تلف رأسها بالعصابة
« رشيقة القد ، جميلة العينين مشرقتهما
« الالهة الحكيمة التي تمسك بيديها الاقدار
« ينبعث العزم والمجد والحبور بمجرد نظرة من عينيها
« انها الالهة الحامية والروح الحارسة
« عشتار ! من ذا الذى يضاهيها في العظمة ؟
« ارادتها قوية ، ممجدة ، وكلمتها مبجلة مطاعة بين الآلهة
« انها ملكتهم ، ينفذون اوامرها على الدوام • انها تسندهم امام ملكهم « آنو » •
« تشارك الآلهة في مجلس شوراهم ، في حجرتها المقدسة ، بيت المسرات والافراح •
« يجلس قدامها الآلهة كل في مجلسه الخاص ويصغون لما تفوه به •
«والملك ، محبوبهم وعزيزهم « عمي ـ ديتانا » يقدم لهم الاضاحي والقرابين الطاهرة من البقر والغزلان •
« لقد تشفعت له عند زوجها « آنو » ان يمنحه العمر الطويل •
« لقد قدرت لعمي ديتانا العمر الطويل

« وجعلت جهات العالم الاربع تخضع تحت قدميه ، وربطت جميع الناس الى نيره » .

نماذج من التراتيل السومرية :

بعد ان اوردنا امثلة من التراتيل التي نظمت باللغة البابلية نقدم امثلة أخرى من التراتيل السومرية ، وهي قصائد شعرية ترقى في ازمانها الى العصر البابلي القديم (النصف الاول من الالف الثاني ق.م) ، اهمها التراتيل التي خصصت للاله « انليل » والاله « ننورتا » (اله الحرب وابن الاله انليل) بصفته اله الخضار ، وترتيلة اخرى بصفته اله الحرب ، والاله « أدد » (يشكر) والالهة « انانا » (عشتار) ، احداها على لسان ابنة الملك الاكدي سرجون المسماة « اينخيدو أنا » (Enhedu anna) التي خصصها أبوها كاهنة عليا (اينتم) في معبد الاله القمر « نانا » (سين) في اور . ونورد فيما يلي نماذج من هذه التراتيل[١٥] :

١ ـ ترتيلة للاله « أنليل » :

نختار منها الابيات التالية :

« انليل ذو السلطان الشامل المطلق والكلمة السامية المقدسة

« يقدر المصائر والاقدار الى الابد ، فلا تبديل لاوامره

« الذي ترى عيناه خفايا البلاد وتسبر اغوار الارضين

« حين يجلس الاب « انليل » على المنصة المقدسة ويتحلى بالسيادة والملوكية ، تسجد له آلهة الارض طائعين

« الرب العظيم ، ذو السيادة والقدرة ، المتسامي في السماء والارض

« العليم بكل شيء ، والمتمرس بالاحكام

---

(١٥) عن هذه التراتيل السومرية انظر :
Kramer, in ANET., (1969), 573 ff.

« لقد أقام بيته في « دور ــ آنكي »(*)
في نفر اقام « كبش المقدمة » المبجل مسكنه
« المدينة التي تبعث الرعب والهلع
« فلا يجرؤ ان يقترب منها اله (بدون اذنه) •

ويستمر ناظم القصيدة في سرد فضائل « نفر » ، مدينة « انليل » ، مشيدا بدورها في القضاء على الشرور والبغضاء والسوء ، وانها موضع الاستقامة والعدل الخ •

٢ ــ صلوة « اينخيد وأنا » للالهة « انانا » (عشتار) :

وهي ترتيلة طريفة نظمت بالسومرية على لسان الكاهنة العليا « انخيدو أنا » التي قلنا ان اباها سرجون الاكدي الشهير قد خصصها كاهنة عليا في معبد اله اور (نانا ، او ننار ، وسين) • وخلاصتها ولاسيما القسم الثاني ، منها ، تأكيد ناظم القصيدة ان صلوة هذه الكاهنة قد حظيت بقبول الالهة « انانا » •

٣ ــ ترتيلة للملك « اور ــ نمو » :

وترتيلة سومرية ثالثة للملك السومري « اور ــ نمو » ، مؤسس سلالة أور الثالثة (٢١١٢ ٢٠٠٤،٠م) بمناسبة تجديده لبناء معبد الاله « انليل » المسمى « اى ــ كور » في نفر ، وتعدد البركات التي نالها الملك من هذا الاله الذى اختاره للملوكية بلاد سومر • وقد اطلق ناظم القصيدة عليها العنوان الادبي السومرى « تيگي ــ انليل » ، ومصطلح « تيگي » (Tige) ، كما بينا في مقدمة هذا البحث ، يطلق على نوع خاص من التراتيل التي كانت تنشد وتغنى على القيثارة بلحن خاص •

(*) « دور ــ انكي »(DUR-AN-KI)، مدينة نفر الشهيرة ، مركز عبادة الاله « انليل » ، ومعنى اسمها السومري « رباط الكون » (السماء والارض) •

٤ ـ **ترتيلة للملك « شولگي » :**

والقصيدة السومرية الرابعة التي نختتم بها هده الامثلة ترتيلة سومرية للملك « شولكي » ، ثاني ملوك سلالة اور الثالثة ، وهي اقرب ما تكون الى المديح الذاتي حيث يعدد الملك مزاياه ومواهبه التي اسبغتها عليه الآلهة العظيمة ، ويذكر ناحية طريفة في سرد اعماله ، تلك هي ولعه في تعبيد الطرق وجعلها صالحة آمنة للسفر على الدوام ، وانه شيد فيها عند مسافات معينة منازل لاستراحة المسافرين(*) ، ويطنب في ولعه بالجرى السريع في السفر فيصف قدرته وكأنه بطل العدو في البلاد ، فهو قد قطع في جريه المسافة من مدينة « نفر » الى عاصمته « أور » في ساعة مضاعفة واحدة ، في حين ان المسافة ما بين المدينتين لا تقطع الا في خمس عشرة ساعة مضاعفة (زهاء ١٥٠-١٦٠ كم) ، ووصل الى « اور » فاستقبله الناس بالهتافات والتهليل ، وقدم القرابين الكثيرة الى معبد الاله « نانا » (اله القمر) في أور واقام حفلا صدحت فيه الموسيقى وتعالت الاغاني ، وانه بعد ان استحم واستراح في قصره لم يعبأ بما عاناه من سرعة السفر فركض في اليوم نفسه عائدا الى مدينة « نفر » ليشارك في عيد اقيم في كلتا المدينتين في اليوم نفسه •

٥ ـ **التعاويذ :**

وننهي هذا الموجز عن موضوع التراتيل والترانيم بذكر ما يطلق عليه في النصوص المسمارية مصطلح الرقى (ج• رقية) او التعاويذ (incantation) وهي نصوص مع كونها تدخل في باب السحر الا أن بعضها يتضمن نصوصا أدبية في تمجيد الآلهة المستعاذ بها ، كما ان بعضها

(*) ورد ذكرها في النص باسم « البيوت الكبيرة » • وهذه اقدم اشارة الى اقامة المراحل او المنازل اي « الخانات » للمسافرين في تاريخ الشرق الادنى •

يبدىء بمقدمات ميثولوجية عن أصل الاشياء والخليقة (راجع امثلة منها في موضوع اساطير الخليقة) كل ذلك يجعلها جديرة بالتنويه ضمن الموضوعات الادبية •

يطلق على الرقى والتعاويذ المصطلح السومرى (EN') وتسمى في اللغة الاكدية « شيبتو » (shiptu) ، وكانت توضع لطرد الارواح الشريرة المؤذية والشياطين التي تسبب الامراض الجسدية والعقلية للافراد ، كما كان يقصد منها ابطال اثر سحر السحرة • والغالب ان تكون الاستعاذة بأسماء مشاهير الآلهة المعروفة بالتزامها جانب الانسان وخيره مثل الاله « شمش » و « ايا » وابنه « مردوخ » • وجرت العادة في التعاويذ انها كانت تتلى في أثناء اجراء بعض العمليات السحرية أى مصاحبة لمثل هذه العمليات مثل التبخير وسكب الماء ورشه كما ان نصوص الكثير منها كان ينقش بهيئة عوذ او حروز من الحجر تعلق بهيئة دلايات في رقاب الافراد ، وخصصت طائفة منها للاطفال درءا لخطر اضرار بعض الشياطين ، مثل الجنية الخبيثة « لماشتو » (Lamashtu) ، والآلهة او الارواح السبع الشريرة • وكان بعض التعاويذ يتلى في بعض المناسبات الخاصة مثل حدوث ظواهر طبيعية مخيفة ككسوف الشمس وخسوف القمر ، لطرد الشياطين او الآلهة السبعة (Sebetti) التي كانت تتغلب موقتا على الشمس والقمر فتأسرهما •

وقد اشتهر صنفان من الكهنة في التعاويذ والاعمال السحرية المتعلقة بهما هما صنف ال « آشيبو » (Ashipu) وال « مشماشو » (Mashmáshu) والمحتمل ان الغالبية من نصوص التعاويذ الاصلية ترجع الى عهد سلالة « أور » الثالثة (٢١٢٢ ـ ٢٠٠٤ ق•م) ثم استمرت في الاستنساخ والاستعمال في العهود التالية • وقد اشتهرت من نصوص التعاويذ ثلاث

مجموعات بالعناوين التالية :

١ ـ شربو (Shurpu)

٢ ـ مقلو (Maqlu)

٣ ـ اوتوكي لموتي (utukki. limuti)

ويعني الصنفـان الاولان « الحرق » ، حيث يكون الحرق أساس العمليات السحرية فيهما ، وكان ال « شربو » بالدرجة الاولى للتطهير مـن المعاصي والذنوب، وال «مقلو» لابطال عمل السحرة. والصنف الثاني لدرء اخطار الارواح الشريرة الخبيثة . وهناك اصناف اخرى من التعاويذ تعنون عادة بالحالات التي وضعت لها مثل تعويذة وجع الرأس وتعويذة وجـع الاسنان وتعويذة التطهر وتعويذة ابطال اللعنة وتعويذة لوجع العيون ولسع الحية وغيرها ، وتعاويذ عامة لحفظ المباني والحقول والمدن .

الفصل السادس

أدب الرثاء
وأساطير العالم الأسفل

أدب الرثاء

نقتصر معرفتنا بهذا النوع من الادب الخاص بالرثاء على بضعة نصوص لقصائد سومرية ، وانه بحسب معرفتنا الراهنة تنحصر هـــذه القصائد في موضوع رثاء تدمير المدن والقضاء على السلالات الحاكمة من جانب الاعداء مثل القصيدة المطولة التي سنوجزها في ندب تدمير مدينة « أور » عـــلى ايدي العيلاميين والسوباريين الذين اسهموا مع الاموريين في القضاء على سلالتها الثالثة الشهيرة (٢٠٠٢ ق٠م) ورثاء تدمير مدن بلاد سومر واكد عـلى أيدي اولئك الاقوام ٠

ونوجز في ما يلي اشهر النصوص الادبية في موضوع الرثاء :

١ ــ رثاء تدمير « أور » :

يرجع زمن نظم القصيدة الخاصة برثاء « أور » الى العصر البابلي القديم في مطلع الالف الثاني ق٠م ، ويرقى زمن أقدم نسخ لنصوصها التي وصلت الينا الى عهد حكم الملك السابع من سلالة بابـــل الاولى المسمى « سمسو ــ ايلونا » (١٧٤٩-١٧١٢ ق٠م) ٠ وقد جمع نصها الكامل من نحو ٢٢ لوحا وكسر من الواح وتتضمن القصيدة زهاء ٤٣٦ بيتا تنتظم في احدى عشرة قطعة او دور (Stanza) غير متساوية في عدد ابياتها ٠ وتبدأ القصيدة[1] بذكر الآلهة الذين هجروا مراكز عبادتهم في المـــدن الشهيرة

(١) آخر ترجمة لها في المرجع الآتي وفيه الاشارات الى الدراسات الاخرى :

Kramer in ANET, (1969), 455 ff.

ابتداء من كبير الآلهة « انليل » فتركوا « فطعان رعيتهم تتبعثر مع الريح » ، فذاك انليل :

« هجر حظيرة قطيعه فتبعثرت مع الريح
« هجر « الثور الوحشي » حظيرة اغنامه فذهبت مع الريح
هجر انليل حظيرة غنمه فتبعثرت مع الريح •

وفعل الاله القمر « نانا » (سين) في اور الشيء نفسه :

« هجر « نانا » اور فتشتت حظائر غنمه مع الريح
هجر « سين » اى ـ كشنوكال »(*) وهجرت زوجه « ننكال » حظيرة غنمها فذهبت مع الريح » •

وتستمر القصيدة في تعداد الآلهة الاخرى الذين هجروا مدنهم • وفي السطر الاربعين منها بداية رثاء أور الخاص ، نختار منه الامثلة الآتية بعد حذف التكرار :

« رثاؤك مر اليم ايتها المدينة
مدينة أور التي خربت رثاؤها مر اليم
كم سيظل رثاؤك الاليم يحزن سيدك الباكي !
« الرب الذي دمر بيته يشارك مدينته البكاء والندب
« ناحت « أور » وشاركت الرثاء سيدها التي خربت بلاده
« وشاركته « ننكال » البكاء والنوح من اجل مدينته » •

وكان تدمير مدينة « أور » وقتل اهلها قد اراده الالهان العظيمان « آنو » و « انليل » ، ورغم توسلات الهة المدينة « ننكال » نيابة عن زوجها « نانا » لم يخفف هذان الالهان من شدة غضبهما • ولكن الهة المدينة لم تتخل عن مدينتها فواصلت التوسل الى

(*) « اى ـ كشنوكال » او « اى ـ كشركال » اسم المعبد المقدس في أور المخصص لعبادة الاله القمر •

الآلهة العظام » بيد ان التدمير استمر واطبق على المدينة الاعداء كالاعاصير العاتية ، وامتلأت الطرقات والابواب بجثث الموتى وتكدست بهـا مواضـع الاعياد ، وتعالى أنين الجرحى وصراخهم ولا من يغيثهم ويسعفهم • لقـد هلك الاقوياء والضعفاء جوعا ، ومات كثير من الناس في حرائق بيوتهم ، وجرفت المياه الاطفال والرضع • انكرت الام طفلها وتخلت عنه • هجرت الزوجة ونبذ الطفل • والتهمت النيران المخازن والاهراء ، وعملت الفؤوس الضخمة في معبد « اى ـ كشركال » ، ذلك الطود الشامخ المنيع • لقد امتهنه ودنسه العيلاميون والسوباريون الذين أحلوا الدمار والخراب في المدينة •

وتنتهي القصيدة من بعد الرثاء والندب بالتنويه ان مدينة « أور » المنكودة قد رفع عنهاالهلاك والدمار وأعيدتالى سابق عهدها وعاد اليها اهلها والهها « نانا » الذى خصص له التمجيد والتعظيم •

٢ ـ رثاء تدمير بلاد سومر وأكد :

اما القصيدة السومرية الثانية التي نوهنا بها فقد نظمت في رثاء تدمير بلاد سومر واكد ومعها العاصمة « أور » ، وسقوط سلالتها الثالثة عـلى ايدي العيلاميين والسورباريين على ما هو معروف في تأريخ العراق القديم، حيث اخذ اخر ملوكها المسمى « ابي ـ سين » اسيرا الى بـلاد عيلام • وبالاضافة الى ما لهذه القصيدة من اهمية ادبية شعرية في تاريخ ادب حضارة وادي الرافدين فانها كذلك على قدر كبير من الاهمية في تاريخ هـذه الحضارة من حيث معتقداتها الدينية ونظمها الاجتماعية والسياسية • وقد استطاع الباحثون في السنوات القليلة الماضية جمع النصوص الخاصة بهذه القصيدة من نحو ثلاثين لوحا غير كاملة[٢] وقد تم ذلك ما بين عام ١٩١٤

(٢) انظر آخر ترجمة للقصيدة في المرجع الآتي :
Kramer in ANET, (1969), 611 ff.

و ١٩٤٤ ، وكان الباحثون الى عهد قريب يقسمون نصوص هذه الالواح الى موضوعين : (١) اطلقوا على الموضوع الاول عنوان « رثاء » الملك « ابي ـ سين » (٢) والموضوع الثاني رثاء تدمير بلاد سومر واكد ، ولكن اكتشاف نصوص جديدة عن هذا الموضوع اظهر ان هذه القطع الادبية تؤلف موضوعا واحدا متكاملا هو كما ذكرنا رثاء جميع بلاد سومر واكد ومعها العاصمة « أور » .

تتألف القصيدة بشكلها المتكامل الان من اكثر من ٥٠٠ بيت من الشعر منها نحو ٤٠٠ بيت في حالة سليمة من الحفظ ، وتنقسم الى خمس قطع او خمسة ادوار (Stanza) (*) غير متساوية في عدد ابياتها على النحو الآتي :

١ ـ القطعة الاولى ومقدارها ١١٥ بيتا تبتدىء بندب المصير المحزن الذى قدره على بلاد سومر الآلهة الاربعة العظام : « آنو » و « انليل » و « انكي » (ايا) والالهة « ننخرساك » ، حيث عطلوا النواميس الالهية (بالسومرية ME) التي تدار بموجبها شؤون الكون والبشر ، واعقب ذلك تدمير مراكز العمران وتخريب ضفاف الانهار واجداب الحقول والمراعي ، ونقل نظام الملوكية الى ارض غريبة . وتنكر الاله « نانا » نفسه لمدينته « أور » ومعابدها ، فلم يأبه لتدميرها وتشريد أهلها ، وادخل الغزاةاليها عبادات وشعائر غريبة، وكان هؤلاء الغزاة منالعيلاميين والاموريين قد اسروا ملكها « ابي ـ سين » ونقلوه الى بلاد بلاد عيلام التي لم يعد منها ، كما ان الكوتيين قاموا بغزوات مدمرة كالطوفان(**) فتضاعف الدمار

(*) بالسومرية « كريكو » (Kirigu)

(**) المعروف ان حدث غزو الكوتيين قد وقع في نهاية السلالةالاكدية حيث قضى الكوتيون على هذه السلالة أي قبل سلالة أور الثالثة بأكثر من مائة عام ، كما سيمر بنا في « لعنة أكد » .

والبؤس •

ـ وفي القطعة الثانية أسماء مدن بلاد سومر واكد التي دمرت وعددها ٤ مدينة ابتداء من كيش في بلاد اكد الى « أور » و « اريدو » في بلاد سومر في اقصى الجنوب •

٣ ـ ويخصص الشاعر في القسم الثالث من القصيدة رثاءه لتدمير العاصمة « أور » فيندب شقاء اهلها ، ملكا وكهنة وعامة الناس وما اصابهم من قحط ومجاعة ، فقد احرقت ابنيتها ومعابدها ونهبت مخازنها واهراؤها وجفت أنهارها ، فعز ذلك على الهها « نانا » (سين) فتضرع الى الاله « انليل » ان يعطف على مدينته واهلها ويعيدها الى سابق عهدها •

٤ ـ اما القسم الرابع من القصيدة فيبتديء برفض « انليل » استغاثة اله المدينة وانه لم يكتف بذلك بل انه وبخه على تشفعه لمدينة « أور » التي كتب عليها الدمار في مجمع الآلهة ، وهو قرار لا يبدل ولا يرد ، فان « أور » استوفت نصيبها من الملوكية ، فينبغي نقلها الى موضع آخر ، لانه لم يقدر ان تدوم الملوكية في بلد واحد • وأمر « انليل » اله المدينة ان يتخلى عن مدينة (أور) • فهجرها على عجل ومعه زوجه « ننكال » ، وبقية آلهة المدينة • وعندئذ اسلمت المدينة الى اعدائها فاعملوا في اهلها القتل والتدمير والنهب ، وسلط على من بقي منهم حيا القحط والمجاعة ، واستسلم المدافعون عن المدينة وفتحوا ابوابها الى العيلاميين •

وتنتهي القصيدة باستئناف اله المدينة التضرع والتوسل الى ابيه « انليل » ان يبدل سخطه وبطشه الى الرحمة بالمدينة واهلها ، وفي هذه المرة رق قلب « انليل » فبدل مصير المدينة وباركها وان تعاد الى سابق عهدها ، فعاد اليها سكانها المشردون في كل مكان ، وعاد اليها الهها وزوجته

الى بيتهما المقدس • ويختتم الشاعر رثاءه بالدعاء الى الآلهة العظام ان يحولوا « الصاعقة المدمرة » من بلاد سومر الى بلاد الاعداء ، بلاد « تدنم » (الاموريون) والكوتيون وانشان (عيلام) •

٣ ـ لعنة مدينة « أكاده » (اكد) :

النص الادبي الثالث قصيدة سومرية مطولة مثل القصيدتين اللتين سبق ذكرهما • ومع ان هذه القصيدة ليست رثاء صرفا بيد انها قريبة من هذا الباب فهي لعنة الهية نتج عنها حدث تاريخي مهم هو تدمير مدينة « أكادة » اي اكد(*) • وكما سيمر بنا من تلخيص القصيدة عزا ذلك الشاعر المؤرخ « تدمير المدينة الى غضب كبير الآلهة « انليل » ، اله مدينة « نفر » بسبب تحدي احد ملوك السلالة الاكدية له ، هو « نرام ـ سين » ، حفيد سرجون مؤسس السلالة ، فسلط « انليل » قبائل الكوتيين البرابرة من جبال « زاجروس » ندمروا البلاد وخربوا المدن ، وفي مقدمتها العاصمة « اكد » •

ويرجع زمن النسخ التي وصلت الينا من القصيدة الى مطلع الالف الثاني ق•م ، لعله في حدود القرن الثامن عشر •ق‌م ، والمرجح ان ناظم القصيدة كان من الكتبة المتضلعين من مدرسة الكتبة في مدينة نفر وانه عاش في زمن « اور » الثالثة • وقد بدأ الباحثون بجمع النسخ الخاصة بنص هذه القصيدة ما بين عامي ١٩١٤ و١٩٤٤ ، وحسبوا موضوعها انه رثاء لتدمير مدينة « اكد » ، بيد ان اكتشاف نسخ اخرى من نصها في عام ١٩٥٦ من جانب الاستاذ « كرامر » واعادة ترجمة نصوصها(٣) سهل أمر تعيين

---

(٣) انظر :

Falkentein in ZA, LVII, 43 ff.
Kramer in ANET, (1969), 646 ff.

(*) لا يعلم لحد الان موضع بقايا العاصمة « اكد » التي اسسها سرجون مؤسس السلالة الاكدية المشهور والتي ينسب اليها السكان الساميون في العراق ، ولكنها تقع في مكان ما بين منطقة « بغداد ـ المحمودية » وبين بابل •

موضوعها الصحيح بانه لعنة الهية على « اكد » احلت بها الدمار .

تتألف القصيدة من زهاء ٢٨٠ بيتا ، تبدأ الابيات الاولى منها بمقدمة تذكر كيف حصل الملك سرجون الاكدي على الملكية اذ منحه اياها « انليل » ، ومكنه من القضاء على سلالتي كيش والوركاء ، وكيف ان الالهة « عشتار » اقامت في « اكاده » بيتها المقدس « اي ـ اولماش » (E-Ulmash) وانها لم تأل جهدا في اعلاء شأن المدينة وتعميم الازدهار فيها ، وكيف خضعت لها البلاد وتواردت عليها الخيرات من جميع اقاليم الارض فامتلأ ميناؤها بالبضائع المكدسة التي حوت كنوز الاقطار وغرائب نتاجها . وقد تحقق ذلك الازدهار بفضل رضا الاله « انليل » ، وسكنى الالهة « انانا » (عشتار) فيها . ولكن بعد زمن وبوجه خاص في عهد ملكها الرابع « نرام ـ سين » ، حفيد سرجون ، تخلت الالهة « انانا » عن اكادة وهجرتها بايعاز من الاله « انليل »، وتركت معبدها فيها وتحولت من حمايتها الى مناصبتها العداء ، وفي الوقت نفسه تخلى الآلهة الاخرون الساكنون فيها مثل « ننورتا » (ابن انليل) و « اوتو » (شمش) و « انكي » (أيا) ، فعمها التدهور والضعف . أما الملك « نرام ـ سين » فانه رضخ لاقدارالآلهة وصبر على تلك البلوى طوال سبع سنين ، ولما أوشك أن ينفذ صبره من بعد ذلك قصد معبد الاله « انليل » في نفر وسأل فيه عن الفأل والنبوءة . ولكن لم يستجب اليه الاله العظيم ، وعندئذ جمع حشوده ودمر مدينة « نفر » ونهبها وانتهك حرمات معابدها ، فثأر« انليل » لمدينته بأن سلط على المدينة المعتدية « اكادة » وملكها « نرام ـ سين » جموع الكوتيين الذين انحدروا من جبالهم مثل ارجال الجراد ، فسدوا الطرق في البر والبحر ودمروا المدن وحولوها انقاضا ، واقفرت الحقول والبساتين وحل القحط

على أن بعض الآلهة اثارتهم الفاجعة فتوجهوا الى انليل واستعطفوه ليخفف من وطأة ضربته لبلاد سومر وأن يحصر غضبه وتدميره على المدينة الآثمة «أكادة»، التي كرروا اللعنة عليها فقاست اضعافا مضاعفة مما قاسته مدينة « نفر » على يد « نرام – سين » . ونقتطف الابيات الآتيـــة الخاصة بهذا المورد من النص :

« مثل الآلهة : سين وانكي وانانا وننورتا ويشكر (أدد) و « اوتو » (شمس) في حضرة انليل وواسوه ولطفـوا مـن غضبـه وتضرعوا لـه قائلين :

« يا انليل البطل عسى ان يكون مصير المدينـــة التي احلت الدمار بمدينتك مثلها الى الدمار .

« وعسى ان تمتلىء الآبار بجماجم اهلها وعسى ان لا يعرف الاخ أخاه » . ثم وجه اولئك الآلهة اللعنة على أكادة :

« ايتها المدينة التي تجرأت على تدمير « اى – كور » . الا تعلمين انك اهنت انليل ووجهت هجومك عليه ؟ »

فعسى ان يتم الى الندب والبكاء في ارجائك فتردد اصداءه اسوارك . فاسقطي وانطرحي مترنحة مثل السكارى من ضخام الرجال » .

« وليعد طينك الى اصله الى « ابسو » . وليلعن طينك « انكي »

« وعسى أن يعود قمحك الى اخاديده وعسى أن تلعنه « أشنان »(*)

« وعسى ان تعود اشجارك الى غاباتهـــا ، وتحـــل بها لعنة الاله « نـنلدو »(**) .

(*) الالهة « اشنان » (Ashnan) الهة الغلات .

(**) « ننلدو » اله النجارة .

« وعسى ان يذبح جزار البقر فيك امرأته بدلا من الابقار

« ويذبح جزار الضأن طفله بدلا من الضأن .

« وعسى ان يرمي الفقراء ابناءهم في الماء

« وعسى ان تتمدد البغي المومس عند باب أخيها

« يا اكادة عسى ان تفارق اقوياءك قوتهم فيحل بهم الوهن

« وان يهلك القحط والجوع اهلك

« وان تسرح في خرائبك الثعالب وبنات آوى وتنعق فيهـا الغـربان والبوم

« يا اكادة عسى أن يجري في أنهـارك المـاء الاجاج بـدلا من مائك العذب الصافي » .

وهكذا تحققت لعنة الآلهة على أكادة فعمها الدمار والخراب . ومما يجدر التنويه به ان نبوءة هذه القصيدة تصور لنا حقيقة تاريخية بالنسبة الى مصير « اكد » من بعد سقوط السلالة الاكـــدية ، بحيث انقطع اى ذكر للمدينة في الالوف الكثيرة من النصوص والوثائق المتنوعة التي وصلت الينا من عهد سلالة اور الثالثة .

نصوص أدبية عن أساطير عالم ما بعد الموت

لمحة عن عقائد القوم في عالم ما بعد الموت :

لعله من المستحسن ان نمهد لما سنعرضه من نصوص ادبيــة عن الاساطير المتعلقة بعالم الارواح او عالم ما بعد الموت او كما يسميه الباحثون الغربيون العالم الاسفل ، بايجاز معتقدات القوم في هذا العالم ، وهي مستقاة من الاساطير والنصوص الادبية والدينيــة المختلفة ومن اساليب الدفن والشعائر والطقوس المتعلقة بالموت والاموات ، بحيث يستطيع الدارس لها ان يستخلص الملامح العامة لتصورات القوم عن ذلك العالم ، مما سنوجزه في الفقرات التالية :

من البديهيات التي ادركوها فسلموا بها حتمية الموت على الانسان واستحالة نيله الخلود ، فكانت هذه البديهيه الخلقية موضوعا رئيسا لطائفة من اساطيرهم وآدابهم وفي مقدمتها ملحمة جلجامش الشهيرة(٥) ، فقد جعل الآلهة الموت من طبيعة الاسان حيث قدرته عليه منذ الخليقة واستأثرت هي بالحياة الخالدة (كما جاء في ملحمة جلجامش) ، وان الموت واله الموت كان موجودا قبل خلق الانسان ومجيء الآلهة الى الوجود ، وقد اطلقوا على اله الموت عدة أسماء منها الصفة السومرية « اوكا » (Ugga) (اي الموت) وكان الموت ناموس الكون والحياة العام ، وبلغت حتميته درجة بحيث

---

(٥) انظر ملخص الملحمة في هــذه الدراسة وترجمتها والتعليقات الوافية عنها في نشرة المؤلف وطبعاتها الثلاث من جانب وزارة الاعلام ، ١٩٦٢ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٥ .

انه حتى بعض الآلهة الذين من ميزاتهم الرئيسة الخلود ، لم يسلم من الموت عن طريق العنف اى القتل مثل الآلهة القديمة في اسطورة الخليقة البابلية التي سبق ان لخصناها ، ومثـــل الاله « كوكال آنا » (Gugal-anna) زوج « ايريشكيجال » ، الهة العالم الاسفل قبل أن يتزوج بها « نرجال »، وآلهة اخرى ورد ذكرهم في بعض النصوص المتعلقة باصل الآلهة(*) التي عرضناها ، والاله تموز الذى يبقى في عالم ما بعد الموت نصف عام ، وكان اعتقاد الباحثين سابقا انه يظل في ذلك العالم الى الابـــد ، وبعض الآلهة الاخرى التي تؤسر في العالمالاسفل فترات أيام قليلة ولاسيما أبانعيد رأس السنة البابلي مثل الاله « مردوخ » • ولا يعرف احد من البشر نال الخلود الا فرد واحد كان هو الاستثناء الوحيد عن ناموس تعـــذر الخلود على البشر ، ونعني بذلك بطل الطوفان البابلي « اوتو ـ بشتم » ، كما جاء في ملحمة جلجامش ، الذي اخفق في الحصول على الخلود بالرغم ان ثلثيه كانا من مادة الآلهة وثلثه الاخر من البشر •

على انهم لم يروا الموت على انه الفناء المطلق بل كان انفصالا ما بين الجسم والروح التي كانت ملازمة له في الحياة ، ولكنها عند الموت تتحول من شكل من الوجود الى شكل اخر حيث تذهب عند الدفن الى عالم خاص بالارواح الذى سنورد خلاصة معتقداتهم فيه ، وانها تبقى سجينة في ذلك العالم لا تقوم منه الى الابد حيث لا قيامة ولا بعث • وا نحالة وجودها في هذا العالم من الراحة أو الشقاء والبؤس تتوقف على الدفن واتباعالشعائر المقررة عندهم وتقديم القرابين مـ نجانب الاحياء• ويعني هذا ان الانفصال بين الروح والجسد لم يكن مطلقا بل ان راحة الروح في عالمها الجديد تتوقف كما قلنا على العناية بالجسم في القبر ، والا فان الارواح لا تجـد الاستقرار في العالم الاسفل ، بل انها تخرج هائمة وتسبب الاذى والضرر

(*) انظر الاسطورة في ص ٩٢ وما بعدها •

للاحياء ، وقد دعوا مثل هذه الارواح او الاشباح « اطمـو » (Etimmu) (وبالسومرية كدم (GIDIM)) ، ويكون خروج مثل هذه الارواح من عالمها السفلى اما في حالة عدم الدفن او نبشه وتعريض الجثـة او عـدم تقديم القرابين اليها في القبر ، وقد طفحت اخبار حضارة وادي الرافدين بهذا لامر ، فقد عمد بعض الملوك الاشوريين مثل اشور بانيبـال (٦٦٨ ـ ٦٢٧ ق٠م) الى نبش قبور الملوك العيلاميين ونقل رفاتهم الى بلاد آشـور لتخرج ارواحهم وتحدث الضرر والاذى بالاحياء من اهل عيلام ٠

وسيمر بنا مما سنعرضه من اساطير العالم الاسفل طرف من تصوراتهم لذلك العالم وقبل أن نوجز تلك الصورة القاتمة المخيفة التي تصوروها عنه نذكر هنا ان الفكرة العامة عن حالة الارواح فيه انتفاء وجود القيامة والعقاب والثواب في عالم اخر ، فهم بذلك اشبه ما يكونون بالعبرانيين واليونان في معتقداتهم بالعالم الاخر ٠ على أنهم كانوا يلطفون في بعض الاحايين من هذه الصورة القاتمة حيث جاء في بعض مآثرهم وأساطيرهم مثل اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش ، ان بعض الموتى ولاسيما من خلف المآثر الصالحة وذرية من البنين ومن واضب اقرباؤه على تقديم القرابين له كانت روحه تنـال بعض الراحة في ذلك العالم حيث تحصل على الطعام والشراب والراحـة نوعا ما ٠ وخلاصة ما يمكن قوله ان عقائدهم في عالم ما بعد الموت ومصير الانسان بعد الموت لم تكن واضحة الوضوح التام الذى نجـده في بعض الاديان مثل الزرادشتية والمسيحية والاسلام حيث وجـود دار للعقاب والثواب اي النار والجنة من المعتقدات الاساسية فيها ٠

اما ما يمكن استخلاصه عن عالم الارواح من اساطيرهم ونصوصهم المختلفة فخلاصته ان عالم الارواح او العالم العالم الاسفل يقع تحت هذه الارض وانه يبعد ٣٦٠٠ ساعة مضاعفة ويبدو انهم تصوروا مدخله في اقصى الغرب عند موضع مغرب الشمس ، وقد يكون له مداخل أخرى ثانويـة

ومنها حفرة القبر ، وقد تخرج بعض الارواح من خلال ثقب او حفرة تؤدي اليه كما فعل شبح انكيدو . ويجتاز فيه الاله شمش عند الغروب عينيره في الليل ، ويحدد بداية ذلك العالم نهر محيط هو نهر العالم الاسفل الذى ورد اسمه بالسومرية بهيئة (I_7-lú-rú-gú) وبالاكدية « خبر » (Hubur) .وبعد أن يوضع الميت في القبر تذهب روحه الى ذلك العالم ويتولى نقل الارواح من ذلك النهر ملاحه المسمى بالاكدية « خمط ـ تبال » (ومعنى اسمه خذ على عجل)، وهو مخلوق له اربعة رؤوس ووجهه مثل طير الصاعقة « زو » ، واخيرا من خلال بوابة ذلك العالم الى مقر الارواح ، ويقوم على حراسة الابواب كبير الحجاب المسمى « نيتي »(Neti) وبالاكدية (Nedu) ، وهو أيضا وزير ملكة العالم الاسفل الذي كان من اسمائه « المدينة العظمى » (اوروكال) ، وهي مدينة مسورة بسبعة اسوار ولها سبع بوابات ، يحرسها عفاريت مخيفة ، ودعي ذلك العالم المخيف باسماء وصفات اخرى تذكر منها نعته بارض اللاعودة » (بالسومرية كر ـ نو ـ كي ($KUR-NU-GI_4$) وبالاكدية « ارضة لاتارى » ، وسمي ايضا الارض العظمى (بالسومرية كي ـ كال (KI-GAL)) ، « وصدر العالم » (ارات كيجال Irat-Kigal) ، وباسم « كر » (بالسومرية (KUR) و « ارالـــو » (aralu. arali) و « كـــوثي » (وهـــو اسم المدينة الشهيرة التي كانت مركز عبادة «نرجال » اله العالم الاسفل) ومن اسمائه بالسومرية (E-Dumuzi) وبالاكدية بيت تموز وغيرها من النعوت والاسماء .

وتحكم هذا العالم ملكته الالهـــة « ابريشكيجال » ، الاخت الكبرى للالهة عشتار ، ويشاركها في مملكتها السفلية زوجهـــا نرجال (انظـــر الاسطورة التي تروى صيرورته اله ذلك العالم) ، ويساعدهما في حـــكم هذا العالم وزراء وقضاة وخدم ، حيث « نمتار » (Namtar) وزير الالهة

« ايريشكجال » ، وحاجبها « نيتي »، وبعض الآلهة التي ظلت رهينة ذلك ذلك العالم مثل الالهة « كشتن أنا » اخت الاله تموز ، الذى ظلت رهينة العالم بديلة عنه ، وهي تتولى وظيفة كاتبة العالم الاسفل وتلقب «بعلة صيري» (Belit Seri) ومعها زوجها Ningizzida ، وصار جلجامش احد قضاته كما عين الملك « اورنمو » مرشدا فيه ، وغير ذلك من الملوك والابطال والآلهة •

ونورد فيما يلي اشهر الاساطير والنصوص الادبية المتعلقة بالعالم الاسفل •

١ ـ اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش :

اللوح الثاني عشر من مجموعة الالواح المعنونة « سلسلة جلجامش » التي اوردناها في موضع سابق من هذه الدراسة لا يمت بصلة في حوادثه الى موضوع الملحمة العام ، ولكن الجامعين القدماء ادمجوه في ملحمة جلجامش دمجا اصطناعيا ، ولعل الصلة أو المناسبة التي حملت الجامعين على هذا الدمج ناشئة من ان موضوع هذا اللوح يدور على وصف عالم ما بعد الموت او العالم الاسفل ، وان هذا الوصف جاء على لسان « انكيدو » صديق جلجامش بعد ان نزل الى ذلك العالم ، اذ ظهر شبحه واخبر جلجامش بحال الموتى كما سيأتي •

ولعل أوضح دليل على كون اللوح الثاني عشر لا صلة له بموضوع الملحمة التي تنتهي بخاتمة اللوح الحادي عشر ان خاتمة الرواية انتهت باخفاق بطل الملحمة جلجامش في نيل الحياة الخالدة ، كما ان الاسطر الاخيرة من اللوح الحادي عشر تكاد تطابق الاسطر الاخيرة من مقدمة الرواية في اللوح الاول • وقد اظهرت التحريات الحديثة ان هذا اللوح

الثاني عشر في نصه البابلي الملحق بالملحمة ترجمة مطابقة لاصل سومري(٦) ويتألف من قسمين ،يتناول القسم الاول اسطورة تتعلق بجلجامش وشجرة اسمها شجرة ال « خلبو » (Huluppu) (*) ولم ترد ترجمة هذا القسم في البابلية في اللوح الثاني عشر • اما القسم الثاني فيروي اسطورة نزول «انكيدو» الى العالم الاسفل وظهور شبحه من بعد ذلك الى صديقه جلجامش وان هـذا القسم هو الـذي ترجم الى البابليـة في اللوح الثاني عشر ولكـن بما أن القسـم الاول مـن النص السـومري الذي لـم يترجم في اللوح الثاني عشر ملازم لفهم القسم الثاني منه فيستحسن ان نورد خلاصة له ضمن ايجازنا للوح الثاني عشر :

تبـدأ احداث اسـطورة « جلجامش وشجرة الخلبو »(**) من زمن الخليقة من بعد انفصال السماء عن الارض وخلق الانسان وتقسيم الكون بين الآلهة العظام واختصاص كل منهم بواجبات ومسؤوليات خاصة ـ فحدث في تلك الازمان ان شجرة « الخلبو » قد اقتلعتها الرياح الجنوبية وجرفها نهر الفرات حتى اوصلها التيار الى مدينة « اوروك » وصادف ان رأتها الالهة «انانا» (عشتار) حين كانت تتمشى على ضفـة النهر فأنتشلتها وحملتها الى بستانها المقدسة في المدينة وتعهدتها بالرعاية حتى نمت وازدهرت وقررت ان تصنـع من خشـبها بعض الاثاث ولا سيما سرير وكرسي لها • وان «انانا» لم تستطع ان تحقق ذلك لان ثعبانا اتخذ جزءها السفلي مأوى له ، كما ابتنى فيها طير الصاعقة « زو » عشا لصغاره ، واتخذت الشيطانة « ليلث »

---

(٦) حول هذا الموضوع انظر البحوث الاتية :

1. Gadd in RA. XXXI, (1931), 126 ff.
2. Kramer in JAOS, LXIV (1944), 7 ff.
3. ———, Gilgamesh and The Huluppu-Tree. (1938).
4. Speiser in ANET, (1969), 97 ff.

(*) انظر المصدر رقم ٣ من الهامش ٦ •

(**) لا تعلم ماهية شجرة الخلبو، ولعله يمكن مضاهاتها بشجرة =

وسـطها مأوى لها(*) • فحزنت « انانا » لما حل بشجرتها ، ولما ان سـمع جلجامش بمحنتها خف لنجدتها فبادر الى ذبح الثعبان وطرد طير الصاعقة والجنية « ليلث » منها • ثم جمع بعض رجال اوروك وقطع الشجرة وسلمها الى «انانا» فصنعت منها السرير والكرسي ، كما صنعت من قسمها الاسفل آلتين خاصتين لا تعلم ماهيتهمـا اسـمهما « بكو » (Pukku) و « مـكو » (Mukku) في السومرية وقد ترجمهما بعض الباحثين بالطبل ومدق الطبل واهدتهما الى جلجامش(٧) ، ولكن حدث لسوء الحـظ ان هاتين الآلتين سقطتا في احد الايام في العالم الاسفل ولـم يستطع جلجامش استعادتهما فحزن وصار يندب خسارته لهما •

والى هنا ينتهي القسم الاول من النص السومري ، ولكن يبدأ اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش الذي قلنا انه ترجمة للقسم الثاني من هذا النص السومري • ونورد ترجمة هذا اللوح كما يأتي(**) :

يبدأ هذا اللوح بحزن جلجامش على فقدان تينك الآلتين ، فيتطوع صديقه « انكيدو » لنجدته بان ينزل الى العالم الاسفل لاسترجاع الآلتين ، فاخذ جلجامش يحاوره ويرشده الى ما ينبغي له ان يسلك عند نزوله الى ذلك العالم :

« اذا اعتزمت النزول الى العالم الاسفل

« فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتي • سارشدك فسر وفق ارشادي :

« لا تكتس بالحلة الزاهية والاهب بوجهك الموتى لانك تبدو نزيلا

= الخلاف ، وهي الصفصاف •

(*) قارن ما ورد في التوراة (سفر اشعيا ٣٤ : ١٤) والاخبار العربية عن اتخاذ الشياطين بعض الاشجار مأوى ومساكن لها •

(٧) انظر :

A. Heidel, The Gilgamesh Epic.

(**) انظر ترجمة المؤلف للملحمة (الطبعة الثانية ١٩٧١ ص ١٤٩ فما بعد والطبعة الثالثة ١٩٧٥) •

غريبا عنهم .

«لاتمسح جسدك بالزيت الفاخر لئلا يجتمعوا حولك بسبب عطره

« لا ترم عصا في العالم الاسفل مخافة ان تصيب بعضهم فيحيطوا بك

« لا تنتعل نعلا ولا تحدث صوتا في العالم الاسفل

« واذا وجدت الزوجة التي تحب فلا تقبلها

« واذا صادفت الزوجة التي تبغض فلا تضربها

« ولا نقبل الابن الذى تحب ولا تضرب الابن الذى تكره

« والا فان صراخ العالم الاسفل سيتمكن منك .

ولكن انكيدو لم يلتزم بنصح صديقه جلجامش بل انه سار على عكس وصاياه ، فلبس الحلة الفاخرة ومسح جسده بالزيت الطيب فتجمع حوله سكان العالم الاسفل وقذف بالعصا فاحاط به من اصابهم وانتعل الخف بقدميه واحدث صوتا وقبل المرأة التي أحب وضرب المرأة التي كره وقبل الابن الذي أحب وضرب الابن الذى ابغض ، فغلبه صراخ العالم الاسفل ، كما ان ملكة هذا العالم قررت الا يخرج انكيدو منه لان من سنن ذلك العالم ان من دخله لا يرجع منه(*) . فصار جلجامش يندبه ويبكيه وقصد معبد الاله «انليل» في نفر وتضرع الى هذا الاله ان يعيد اليه صديقه الذى امسك به العالم الاسفل ، ولما لم يسعفه « انليل » ذهب الى مدينة « أور » الى معبد الهها « سين » وشكا اليه حاله والتمس منه العون ، فلم يستجب اليه هذا الاله ، وعندئذ التجأ الى معبد الاله «ايا» (اى – ابسو) في اريدو (ابو شهرين الان) ، وكرر الاستغاثة ان يسمح اله العالم الاسفل « نرجال » ان يحدث فتحة صغيرة من ذلك العالم حتى تخرج منها روح انكيدو فتخبره عن احوال ذلك العالم . فاستجاب له الاله نرجال وخرجت

(*) ولذلك اطلقوا على عالم ما بعد الموت « ارض اللاعودة » ، وفي اللغة السومرية « كور – نو – كي » ($KUR-NU-GI_4$) وباللغة البابلية ارصة لاتاري .

روح « انكبدو » او شبحه كانها الريح فتعانق الصديقان واخذ جلجامش يسأل شبح صديقه قائلا :

« اخبرني يا صديقي عن احوال العالم الاسفل الذى رأيت •

فاجابه صديقه : لن اقص عليك اخبار العالم الاسفل يا صديقي ، واذا كان لابد من اخبارك فعليك ان تجلس وتبكي •

فاجابه جلجامش : ساجلس وابكي » •

واخذ شبح انكيدو ينقل اليه الصور القاتمة المخيفة التي شاهدها في العالم الاسفل :

« ان جسمي الذي كنت تلمسه يوم كانت الافراح تغمر قلبك يلتهمه الدود الان واضحى كأنه اللباس الخلق

« فصرخ جلجامش : يا ويلتاه وتمرغ في التراب واستمر يخاطب شبح انكيدو :

« هل رأيت الذى مات فجأة ؟

« اجل لقد رأيت ، انه يرقد على سرير النوم ويشرب الماء الصافي •

« هل رأيت التي قتل في المعركة ؟

«اجل!رأيت • ان امه واباه يرفعان رأسه وتبكي عليه زوجه •

« وهل شاهدت الذي رميت جثته في البرية (بدون دفن) ؟

« اجل شاهدت ، وان روحه لا تجد الاستقرار والراحة في عالم الاموات •

« وهل رأيت الذى لا يعني بروحه احد ؟

«اجل لقد رأيت •انه يشرب من الحثالة ويأكل كسر الخبز من

فضلات المدينة •

« هل رأيت الذى لم يخلف ولدا ؟

« اجل رأيت و (طعامه التراب)

« هل رأيت الذى خلف وراءه ابنا واحدا ؟

« اجل رأيت وهو ممدد بحذاء الجدار يبكي

« هل رأيت الذى خلف ابنين ؟

« اجل رأيت ، وهو فرح القلب ويأكل الخبز

« هل رأيت الذى خلف ثلاثة ابناء ؟

« نعم رأيت وهو يسقي الماء من قرب ماء العمق

« وهل رأيت الذي خلف اربعة ابناء ؟

« اجل رأيت وهو فرح القلب ، يضطجع في بناء من الاجر

« وهل رأيت الذى خلف خمسة ابناء ؟

« نعم رأيت وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة ويسمح له بدخول القصر •

ثم يسأله عن الذي خلف ستة وسبعة وثمانية أبناء ولكن النص ينخرم فلا تعرف حالهم في عالم ما بعد الموت •

وينتهي اللوح بالتذييل الاتي : « اللوح الثاني عشر من سلسلة « هو الذى رأى كل شيء ، من مجموعة جلجامش وقد تمت » •

٢ ـ حلم أمير آشوري عن عالم ما بعد الموت :

النص الادبي الثاني الذى يتعلق موضوعه بتصور العراقيين الاقدمين لعالم ما بعد الموت مدون في رقيم طين وجد في مدينة « آشور » (قلعة الشرقاط الان) ويرقى زمنه الى منتصف القرن السابع ق•م ، وهو نثر

أدبي أو شعري[٨] وخلاصته ان اميرا آشوريا اسمه « كوما » ، وهو اسم يرجح أن يكون مستعارا ، استبدت الرغبة به أن يقف على احوال عالم ما بعد الموت الذي يحكمه اله الموت « نرجال » وزوجته « ايريشكيكال » (Erishkigal) ، وصار يدعو الى الآلهة ان يحققوا امنيته • فتم له ذلك عن طريق رؤيا جاء وصفها في قفا لوح الطين الخاص بهذا النص ، نوجزه فيما يأتي :

كان أول ما شاهده الامير « كوما » وزير العالم الاسفل المسمى « نمتار » (Namtar) الذي يعني اسمه باللغة السومرية « مقدر الاقدار » وكان يقف قدامه رجل يمسك بيده اليسرى شعر رأسه ، وباليمنى يمسك سيفا ، ورأى كذلك « نمتارتو » ، زوجة « نمتار » أو سريته التي رأسها رأس الـ « كريبو »[*] ، ولكن يديها ورجليها يدا انسان ورجلا انسان ، كما شاهد اله الموت الذي له رأس ثعبان ويداه يدا انسان وقدماه ••• (النص مخروم هنا) ورأى شياطين وآلهة متنوعة معظمها ذات أجسام مركبة ، منها ما له خمسة رؤوس ، احدها رأس أسد والباقي رؤوس بشر مثل الاله أو الشيطان « الموكل بالشر » (وبالبابلية موكل ــ ريش ــ ليموتي mukil-resh-lemuti) وله رأس وجناحا طائر والملاك الملاح المناط به تعبير الموتى من نهر العالم الاسفل ، وقد عرف هذا الملاح باسم « خمط ــ تبال » ((Humut Tabal)) الذي يعني بالبابلية « خذ على عجل »[**] ورأسه رأس الطائر « زو » ، وله اربع ايد واربع

---

(٨) انظر :

1. Ebeling, Tod und Leben, (1931), No. 1.

(*) « كريبو » (Kuribu) من الشياطين وقد صور في المنحوتات بجسم مركب على هيئة « أبي الهول » (Sphinx) •

(**) ويضاهي معبر الموتى « شارون » او « خارون » (Charon) في الاساطير اليونانية •

ارجل ••• وشيطان آخر من شياطين الشر ورد اسـمه بهيئة « اتوكـو » (utukku) وله رأس أسد ويداه ورجلاه مثل الطائر « زو » ، و « شلاك » (Shulak) على هيئة اسد يقف على قائمتيـه الخلفيتين ، و « ماميتو » (Mamitu) لها رأس عنزة ويدا وقدما انسان ، وحارس بوابة العـالم الاسفل « نيدو » (Nedu) له رأس أسد ويدا انسان ورجلا طائر • وهكذا تستمر الاسطورة في تعداد الشياطين والمخلوقات الغريبة الاخرى ، وهي كذلك ذات اجسام مركبة ، من بينها مخلوق على هيئة رجل اسود كالقير ووجهه وجه الطائر « زو » ويرتدي جبة حمراء وبيـده اليسرى قوس وباليمنى سيف مشهر ويضع قدمه اليسرى على ثعبان • أما اله العالم الاسفل وملكه « نرجال » فقد رآه الامير وهو جالس على عرشه الملكي وعلى رأسه تاج الملوكية ويمسك في كلتا يديه ب « دبوسين » ضخمين انبعث منهما برق وهاج حين رماهما ، ويقف على يمينه ويساره آلهة ال « انوناكى » وهم منحنو الرؤوس • وقد أمسك بالامير من ضفائره وجـره اليـه ، وما كاد ينظـر اليـه حتى طغى عليه مجده وسناه المرعبان فارتجف خوفا وسجدله وقبل قدميه ، ولما نهض نظر اليه وصرخ بصوت يبعث الرعب والهلاك ، وقرب منـه دبوسـه ليقضي عليه ، ولكن مستشـاره « اشوم » (Ishum) تشفع له بان يبقيه حيا ليسمع منه الاحياء عن مجده ومجد العالم الاسفل • وبعد الوعيد والتهديد سمح للامير بالخروج من ذلك العالم ، حيث قـاده جلاده من البوابة المسماة « عشتار ــ آى » ، والزمه الا ينساه في عبادتـه وتمجيده • وعندها استيقظ الامير وهو بأشد حالات الهلع والرعب وهـام على وجهه باكيا نادبا : « يا ويلي ! يا ويلي ! » • ولم ينقطع عن الصـلوة والترتيل بين رعايا « آشور » وهو يمجد الاله « نرجال » وزوجه الالهـة

« ايريشكيكال » •

٣ ـ اسطورة « نرجال » و « ايريشكيكال » :

الاسطورة الثالثة التي تدور على وصف عالم ما بعد الموت تروى كيف صار الاله « نرجال » ملكا والها على ذلك العالم وزوجــا لملكتــه والهته « ايريشكيكال » •

وتنحصر معرفتنا بهذه الاسطورة فيما جاء الينا مدونا على كسرتين من لوحين طينيين عثر عليهما في مصر ، في الموضع المسمى « تل العمارنة » (عاصمة الفرعون اخناتون في مصر الوسطى) ، من العصر الذي يسمى في تأريخ وادي النيل بعصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق•م) ، وقد سبق ان ذكرنا ان بعض النصوص الادبية الاخرى من حضــارة وادي الرافدين عثر عليهما في مصر ، حيث يرجح كثيرا ان مدرسة خاصة انشئت هناك لتعلم الكتبة المصريين مبادىء الكتابة المسمارية بلغتها البابلية ، يــوم اصبح الخط المسماري واللغة البابلية لغة الدبلوماسية والمراسلات الدولية في اقطار الشرق الادنى والاقاليم المجاورة • ووجد من الاسطورة كسر من الواح من العصر الاشوري الاخير (القرن السابع ق•م)[٩] •

ملخص الاسطورة :

وخلاصة هذه الاسطورة ان الآلهة هيأوا في احد الايام وليمة كبرى فارسلوا رسولا الى اختهم « ايريشكيكال » ، الهة العالم الاسفل ، واوصوه ان يقول لها : « لما كنا لا نستطيع ان ننزل اليك وانت لا تستطيعين ان تصعدي

---

(٩) عن نص الاسطورة المسماري وترجماتها راجع :

1. E. A. W. Budge, The Tell El-Amarna Tablets in the British Museum (1892), No. 82.
2. Knudtzon, Die El-Amarna Tafeln (1915), 969 ff.
3. A. Heidel, The Gilgamesh Epic, 129 ff.
4. Speiser in ANET, (1969), 103-104.

الينا[*] فابعثي الينا من يحمل اليك حصتك من الوليمـــــة » ، فبعثت « ايريشكيكال » وزيرها المسمى « نمتار » (Namtar) وصعد هذا الى السماء العالية الى حيث اجتمع الآلهة العظام في وليمتهـــم ، فرحبوا بـــه ونهضوا اجلالا له وتكريما لاختهم ولكن الاله « نرجال » لم يفعل ذلك • فعاد الرسول الى ملكته وقص عليها هذا الحدث ، وعندئذ بعثت به مرة اخرى الى مجمع الآلهة ليحضر اليها ذلك الاله الذي لم يقم اجلالا لمقام رسولها لكي تودعه في عالم الاموات • وبعد انخرام جملة سطور في النص نجد الآلهة يكرهون « نرجال » على الرضوخ الى طلب « ايريشكيكال » فيأخذ به رسولها الى عالم ما بعد الموت ، وبعد ان اجتاز ابوابه السبعة ووصل الى قصر « ايريشكيكال » حدث ما لم يكن متوقعا ، اذ ان « نرجال » بدلا من ان يعتذر لها ويستعطفها هجم عليها وامسك بها من شعرها وانزلها من عرشها وجرها على الارض وهم بان يقطع رأسها ، فتخاذلت « ايريشكيكال » واستعطفته قائلة : « لا تقتلني ياأخي ، ودعني أقول لك كلمة : كن زوجي واكون زوجك ، وساجعلك ملكا على مملكة العالم الاسفل الواسعة » • وهنا لان « نرجال » وتبدل غضبه الى هيام بها فقبلها وجفف دموعها ، وهكذا صار زوجها وحكم معها ملكا والها في عالم ما بعد الموت •

٣ ـ نزول عشتار الى العالم الاسفل واسطورة تموز في هذا العالم :

من الاساطير المهمة عن عالم ما بعـد الموت بوجـه خاص والمعتقدات الدينية بوجه عام نصوص ادبية تروى اسطورة نزول الالهـــة الشهيرة « انانا » (عشتار) الى ذلك العالم الذي مر بنا ايجاز معتقداتهم فيه وتصورهم

(*) نعتقد ان ترجمة هذه العبارة بالشكل الذي اثبتناه والذى اورده الاستاذ « كرايسون » (Grayson) في ANET, (1969), 507 ومعجم جامعة شيكاغو الآشوري (انظر تحت مادة aradu ص ٢١٦) اصح من ترجمة الاستاذ « سبايزر » : « اذا كنا نستطيع النزول اليك ولكنك لا تستطيعين الصعود الينا ••• الخ » لان ذلك يخالف النص المسمارى وعقائدهم في سنن العالم الاسفل •

له ، ومن ذلك ان اخت عشتار الكبرى « ايريشكيكال » هي ملكته ومعها زوجها الاله « نرجال » الذى ذكرنا اسطورة صيرورته زوجا لها وملكا معها في ذلك العالم • وسيتضح من ايجاز هذه الاسطورة علاقة الالهة عشتار بزوجها الاله « تموز » (دموزى) الشهير • وقد اكتشف لهذه الاسطورة المهمة روايتان ، رواية سومرية ورواية بابلية • فالرواية السومرية ، وهي الاقدم واصل الرواية البابلية ، قد وجد لها عدة الواح اكتشفت في اثناء التنقيبات التي اجريت في مدينتي « نفر » و « أور » وترقى في زمنها الى اوائل ما سميناه بالعصر البابلي القديم (المنتصف الاول من الالف الثاني ق•م) • أما الرواية البابلية فيرجح ان زمن وضعها يرقى الى نهاية الالف الثاني •ق•م وقد اكتشفت نصوصها في مدينة آشور (قلعة الشرقاط) ، ووجد نسخ لها في مكتبة الملك آشور بانيبال (القرن السابع ق•م) ، وسيتبين من الموجز الذي سنورده عن هاتين الروايتين مبلغ المضاهاة والشبه في النصين البابلي والسومرى • على ان الرواية السومرية تتميز عن الاشورية بانها اطول واكثر تفصيلا ، كما ان الروايتين تختلفان الواحدة عن الاخرى في خاتمة الاسطورة التي أعقبت نزول عشتار الى عالم الاموات • فحين تكتفي الرواية الآشورية في هذه الخاتمة بموافقة الهة العالم الاسفل « ابريشكيكال » على اخلاء سبيل اختها « عشتار » من قبضة ذلك العالم مقابل وضع بديل عنها فيه بموجب قانون ذلك العالم بأن من دخله ، آلها أو بشرا ، لا يخرج منه الا مقابل وضع بديل عنه يحتجر فيه ــ نقول حين تكتفي الرواية الآشورية بهذه الخاتمة فان في خاتمة الرواية السومرية تفصيلات أخرى عن خروج الآلهة عشتار من ذلك العالم وصلة الاله « تموز » بهذا الحدث •

لم يزل الباعث الذي حدا بالالهة عشتار الى النزول الى العالم الاسفل

غامضا غير واضح ، وقد قيلت في ذلك جملة آراء منها الرأي الذى درج عليه قدماء الباحثين بان عشتار ذهبت الى ذلك العالم من اجل استعادة زوجها « تموز » من اسر عالم الموت ، ولكن لا يوجد ما يؤيد هذا الرأي فيما وصل الينا من نصوص مسمارية ومنها هذه الاسطورة موضوع بحثنا بروايتيها السومرية والآشورية ، فليس فيهما ما يشير الى ان « تموز » كان موجودا في ذلك العالم قبل نزول عشتار اليه ، لكي تسترجعه منه • وفوق هذا سنجد في الرواية السومرية عن الاسطورة ما يشير الى نقيض ذلك فان « انانا » (عشتار) نفسها كانت السبب في حبس تموز في ذلك العالم وانها هي التي قدمته بديلا عنها مقابل قيامتها منه • وارتأى باحثون آخرون احتمال ان الباعث الذى من اجله نزلت عشتار الى عالم ما بعد الموت انما كان لاطلاق ارواح الموتى فيه ، وسترد بعض الاشارات في النص الآشوري الى هذا الغرض وهو غرض لا يعلم تفسيره كذلك • على ان الرواية السومرية تتضمن اشارة قد توضح الغرض من نزول عشتار (انانا) ، ففي الاسطر ٧٥–٨٨ من نص هذه الاسطورة تجيب هذه الآلهة بواب العالم الاسفل بعد استجوابه لها عن سبب نزولها انها جاءت من اجل الاشتراك في شعائر الدفن الخاصة بزوج الآلهة « ايريشكيكال » المسمى « كو ـ كال ـ أنا » (Gugalanna) والذي قتل(*) ، ولكن هذا المورد غامض بدوره ولا يوجد ما يوضحه في سياق الاسطورة ولا ينسجم مع الاحداث التي استتبعت نزول عشتار وما لاقته من اختها « ايريشكيكال » من تعذيب وعزمها على ابقائها في ذلك العالم ولم تتحقق قيامتها من عالم الاموات الا من بعد تقديم

(*) يبدو ان هذا الزوج كان قبل مجيء نرجال الى العالم الاسفل وزواجه بالالهة •

بديل عنها هو زوجها « تموز » كما المحنا الى ذلك •

وبعد هذه المقدمة التوضيحية نقدم موجزا وافيا عن كل من الروايتين السومرية والآشورية عن نزول عشتار الى عالم ما بعد الموت مبتدئين بالرواية السومرية التي قلنا انها هي الاصل والاقدم •

١ ـ الرواية السومرية :

خلاصة الرواية السومرية[١٠] عن اسطورة نزول الالهة « انانا » (عشتار) الى العالم الاسفل ان « انانا » ، ملكة السماء صممت ، وهي مدفوعة ببواعث غير معروفة ، الى النزول الى ذلك العالم :

« من السموات العلى الى الارض السفلى

« صممت « انانا » على النزول الى العالم الاسفل

« هجرت « انانا » السماء وتركت الارض وهبطت الى العالم الاسفل (ارض اللاعودة)

« تخلت عن الآلوهية ، ونبذت السيادة ونزلت الى العالم الاسفل

« هجرت « اى ـ أنا »(*) في أوروك وانحدرت الى العالم الاسفل

« وهجرت في « باد ـ تبيرا » « اى ـ مش ـ كلاما »(**) ونزلت

(١٠) جاء نص الرواية السومرية في نحو ثلاثة عشر لوحا وكسر من الواح وجد معظمها في اثناء التنقيبات القديمة في مدينة « نفر » (اواخر القرن التاسع عشر) ، وهي موزعة ما بين متحف الشرق في استانبول ومتحف جامعة فيلادلفيا في امريكة • وقد سبق ان ذكرنا ان زمن تدوينها يرقى الى النصف الاول من الالف الثاني ق٠م • اما زمن تأليفها فلا يعلم على وجه التأكيد • ويرجع الفضل في جمع نصوصها الى الاستاذ « كرامر » ونحيل القارىء الى آخر ترجمة ودراسة عنها في المرجع الآتي وفيه الاشارات الى الدراسات السابقة :

Kramer in ANET, (1969), 52 ff.

(*) « اى ـ انا » (E-Anna) اسم معبد عشتار وآنو في الوركاء •

(**) معبد « اى ـ مش ـ كلاما » (E-mush-kalam-ma) اسم معبد الالهة « انانا » والاله « دموزى » في مدينة « باد ـ تبيرا » التي عين موضعها الآن في التلول المسماة « المدينة » في منطقة لجش • انظر :

Crawford in IRAQ, XXII, 197 ff.

الى العالم الاسفل

« وهجرت معبد « كي ـ كونا » (Giguna) في « زبــــلام »(*)
ونزلت الى العالم الاسفل

ثم يعدد النص معابد الالهة الاخرى التي هجرتها الآلهة مثـل معبدها في « أدب » ومعبدها المسمى « اى ـ شرا » (E-Sharra) ، وفي مدينـــة نفر حيث المعبـــــد المخصص لعبــــادتها واســـــمه « برساك كلاما » (Bursagkalamma) وفي مدينة » أكادة « (أكد) حيث معبـدها المسمى (اى ـ اولماش) (Eulmash وقبل ان تهبط الى عالم الارواح تزودت بالنواميس الالهية السبعة(**) وازينت بأجمل حلاها وجواهرها الخاصـة باعضاء جسمها واستعدت للنزول الى « أرض اللاعـــودة » • وخشية ان تحبسها أختها « ايريشكيكال » في مملكتها فلا تقوم منها الى عالم الاحياء ، أوصت رسولها الامين « ننشوبر » (Ninshubur) بانها ان لم تصعد من ذلك العالم في مدى ثلاثة أيام عليه أن يلبس ثياب الحداد ويخفـالى نجدتها عن طريق توسط الآلهة العظام ، وفي مقدمتهم الاله « انليل » في نفر فيذهب للاستغاثة به :

« انتحب امام انليل وقل له ، ايها الرب لا تدع ابنتك يقضى عليهـا بالموت في العالم الاسفل » • واذا لم يستجب « انليل » الى استغاثته عليه ان يقصد الاله القمر « نانا » (ننار او سين) في مدينة « أور » ويكرر طلب النجدة فاذا لم يهب لنجدتها عليه ان يذهب الى « اريدو » ويكرر الاستغاثة

(*) « زبلام » (Zabalam) احدى المدن الشهيرة في جنوبي العراق وتعرف بقاياها الآن باسم تل بزيخ ، في منطقة لجش •

(**) مر بنا ذكر مصطلح النوميس الالهية (في السومرية مي ME وفي الاكدية « برصو » (فرض) التي يسير بموجبها نظام الكون (راجع الاسطورة الخاصة بسرقة الالهة « انانا » هذه النواميس من اله اريـــدو « انكي » ونقلها الى مدينتها الوركاء) •

بآلهها « انكي » (ايا) الذي لاشك في انه سيستجيب للاغاثة ، وهو الحكيم العارف بسر طعام الحياة وشراب الحياة » .

وعندما اقتربت « انانا » من قصر اختها في العالم الاسفل المشيد من حجر اللازورد ، وعند مدخل ذلك العالم لاحقها حاجبه المسمى « نيتي » (Neti) فصرخت به ان يفتح لها الباب ،ولما سألها عمن تكون وعلام نزلت الى العالم الاسفل ، اجابته بانها « انانا » ، من الموضع الذى تشرق منه الشمس ، وانها حضرت لتشارك في دفن زوج أختهـــا المسمى « كوكال أنا » ، فاجابها ان تنتظر ريثما يبلغ ملكته « ايريشكيكال » بالامر ، ولما بلغ الخبر هذه الالهة أمرت رسولها أن يقود « انانا » من أبواب العالم الاسفل السبعة ويجردها من ملابسها وحلاها الكثيرة عند اجتيازها من كل بوابة من أبوابه التي وردت اسماؤها في الاسطورة ، وهكذا قادها من بعد اجتيازها الباب السابع عارية امام اختها « ايريشكيكال » التي كانت تجلس علـى عرشها ، وفي حضرتها قضاة العالم الاسفل السبعة من آلهـة الانوناكي . فأصدر هؤلاء القضاة حكمهم على « أنانا » بالموت بأن صوبوا عليها نظرات الموت ، وبكلمتهم التي تزهق الارواح استحالت « انانا » جثة هامدة فعلقت من عمود . وبعد مضي ثلاثة أيام ، وهو الاجل الذى حـــددته « انانا » لرسولها « ننشوبر » ولما لم تقم هذه الآلهة من العالم الاسفل خف رسولها لتنفيذ امرها وقصد الآلهة الثلاثة وهو لابس ثياب الحداد واستغاث بهم ، وقد وقع ما تنبأت به « انانا » من تقاعس الالهين « انليل » و « نانا » عن نجدتها ، ولكن الاله « انكي » استجاب لاستغاثة رســـولها ودبر خطـة لانقاذها : خلق مخلوقين لا جنس لهما اسمهما « كركرو » (Kurgarru) و « كلاترو » (Kalaturru) وزودهما بطعام الحياة وماء الحياة ، وبعث بهما الى العالم الاسفل لينثرا هذين الاكسيرين عدة مرات على جثة « انانا » المعلقـة ، وارشـدهما بأمور أخرى لا تعرف ماهيتها لانخرام النص . ففعلا

ذلك وعادت « انانا » الى الحياة ، وقادها حارس العالم الأسفل من ابوابه السبعة وكان يعيد اليها حلاها التي سلبها منها ، وقامت « انانا » من عالـم الاموات ، ولكن تبعها جمع من شياطين ذلك العالم وهي تتجول من مدينـة الى اخرى •

اخذ تموز الى العالم الاسفل :

ومع ان نص الاسطورة المنشور لم يذكر الغرض من ملاحقة اولئك الشياطين لانانا ، فانه وجدت اضافات تعود الى الاسطورة وهي مدونة في لوح يحتوى على نحو ٩١ سطرا وهو موجود ضمن مجموعات جامعـة « ييل » الامريكية(١١) ، وفيها ايضاحات مهمـة عـن فحـوى الاسطورة وخاتمتها ، من ذلك ان سبب ملاحقة الشياطين لانانا كان من اجـل ان تسلمهم بديلا عنها ليحل محلها في العالم الاسفل • فكان اول من لاقت عند صعودها من ذلك العالم رسولها « ننشوبر » الذى حالما رآها تمرغ في التراب وهو يلبس ثياب الحداد• فلما هم اولئك الشياطين أن يقبضوا عليه ويأخذوه على انه البديل المبحوث عنه تدخلت « انانا » وحالت دون ذلك • ثم قصدت الالهة ومعها جمع الشـياطين الى مدينـة « اوما » وهنـا رمى الهها المسمى « شارا » بنفسه أمامها على الارض وتمرغ في التراب في ثيـاب الحـداد ، فحالت انانا دون اخذ الشياطين له بديلا عنها ، وقصد الجمـــع من بعد « اوما » الى مدينة « باد ـ تبيرا » الى معبد الهها « لتـراك » (Latarak) الذى اظهر عند رؤيته « انانا » الحزن كما فعل الالهان الاولان ، فحالت كذلك دون اخذ الشياطين له بديلا عنها • واخيرا انتهى المطاف بانانا ومعها جمع الشياطين الى مدينة يكاد من المؤكد ان تكون مدينة « انانا » نفسها اي « اوروك » حيث يرد في النص اسم معبدها « اى ـ أنا » ، وهنا وجـدوا الاله « تموز » ، زوج « انانا » • وبدلا من أن يظهر الحزن كما فعل الآلهة

---

(١١) راجع دراسة الاستاذ « كرامر » في المرجع المرموز له بـ :
ANET, (1969), p. 52.

الآخرون كانت مظاهر الفرح بادية عليه ولم يكترث بحضورها • فكان عقابه أن صوبت عليه نظرات الموت واسلمته الى شياطين العالم الاسفل ليأخذوه بديلا عنها الى ذلك العالم • وكان قبض الشياطين على تموز عنيفا اذ انهم اوثقوه بالحبال وانهالوا عليه ضربا بالسياط والفؤوس ولم يرأفوا بصراخه واستعطافه ، فاستجار بالاله « شمش » (اوتو) وهو اخو « انانا » زوجة تموز فحوله هذا بهيئة ثعبان ، وجعل روحه لطيفة الجوهر ، فاستطاع ان يفلت من الشياطين ولجأ الى اخته المسماة « كشتن ـ أنا » التي ذعرت من هيئته فبكت وصرخت وخبأته في حظيرة الماشية ، ولكن الشياطين لاحقوه الى بيت أخته واكرهوها على أن تبوح بموضع مخبئه ، فكرروا ضربه وتعذيبه واخذوه الى عالم الاموات •

وهنا تتوارد الى الذهن بعض التساؤلات المهمة عن قضية بقاء الاله « تموز » في عالم الاموات • فهل ظل رهينة الى الابد ؟ اي هل اختفى من عالم الاحياء وبقى في العالم الذى « لا رجعة منه » كما سماه العراقيون القدماء ؟ وكانت الاجابة على هذا السؤال الى عهد قريب موضع خلاف بين الباحثين ، فذهب البعض الى ان تموز يمكث في عالم الاموات بضعة ايام (ثلاثة الى ثلاثين يوما) ، ورأى البعض الاخر انه يظل ميتا الى الابد(١٢) ولعل أصوب الآراء ما وصل اليه الباحث المشهور « فلكنشتاين (١٣) » من فحصه للنصوص المختلفة ولاسيما ما نشره الاستاذ « كرامر » في عام ١٩٦٤ ومن بينها لوح يتضمن قفاه الخمسة عشر سطرا الاخيرة من اسطورة نزول « انانا » الى العالم الاسفل وفيها نص واضح ان تموز يظل في عالم

---

(١٢) انظر :
Kramer in Mythologies of The Ancient World (1960), p. 10

(١٣) نشرت هذه الدراسة في :
Falkenstein in Bibliotheca Orientalis, XXII, (1965), 279 ft.

ما بعد الموت طوال نصف عام واخته « كشتن ـ أنا » النصف الثاني من العام بديلا عنه(١٤) ، وهو رأي اصبح الآن مقبولا لدى جميع الباحثين تقريبا ، وهو ينسجم مع ما جاء الينا من اشارات في اساطير أخرى عن الموضوع ، ومنها الحلم الذي رآه « تموز » أن اخته ، وهي مدفوعة بحبها له ، تبعته الى العالم الاسفل وقدمت نفسها بديلا عنه في ذلك العالم . كما انه يتفق مع العقائد العامة عن اله الخصب (الذي يمثله الاله تموز) وضرورة قيامته الى الحياة في مطلع الربيع لتعود بعودته حياة الخصب والخضرة الى الطبيعة، ومنها الاساطير الكنعانية واسطورة « ادونيس » المشهورة في المآثر اليونانية التي تشبه اسطورة تموز العراقية الى درجة لا تدع مجالا للشك في انها مأخوذة منها(*) .

---

(١٤) انظر النص في :

Kramer, Ur Excavations. Texts, VI part I, No. 10.

(*) نذكر بوجه خاص اسطورة الاله « بعل » والالهة « عانات » في الاساطير الكنعانية ـ الفينيقية انظر :

Kramer, (ed.), Mythologies of the Ancient World, (1961).

اما اسطورة « ادونيس » اليونانية واصل اسمه الكنعاني ـ الفينيقي « ادون » اى « الرب » ، والسيد فيمكن ايجازها بان زوجة ملك قبرص المسمى « كينراس » (Cinyras) كانت تتباهى بجمال ابنتها المسماة « سميرنا » (Smyrna) وانها تفوق في جمالها حتى الالهة « افروديت » (فينوس الرومانية والمضاهية لعشتار) فعمدت هذه الالهة الى الانتقام لهذا التطاول ، فجعلت الابنة تتدله بحب ابيها فتسللت ليلا الى مخدعه وكان ثملا فواقعها ، ولما اكتشف فعلته الشنيعة جرد سيفه لقتلها فهربت ولكنه لاحقها فادركها ولما اوشك ان يقضي عليها اسرعت افروديت فحولتها الى شجرة المر ، ففلق السيف الشجرة الى نصفين ، خرج من احدهما الطفل « ادونيس » فأخذته افروديت واخفته في صندوق سلمته الى الهة العالم الاسفل « برسيفونه » (Persephone) ، ولما اكتشفت هذه الاله الطفل مخبأ في الصندوق اسرها جماله فربته في قصرها ، ولما بلغ النبأ « افروديت » هبطت الى العالم الاسفل وطلبت من ملكته ان ترد الطفل اليها فرفضت ، وعند ذلك شكت افروديت الى كبير الآلهة «زيوس» =

حلم الاله « تموز » عن قرب نهايته :

قبل ان نأتي على ذكر النسخة الآشورية عن نزول عشتار الى عالم الارواح يجدر ان نضيف الى الرواية السومرية التي اوجزناها قصيدة سومرية ترجع في تأريخها الى مطلع الالف الثاني ق.م(١٥). تتضمن حلما رآه « دموزى » (تموز) بعد أن كثرت عليه الهواجس عن قرب نهايته ، فتملكه الحزن والاسى وهام على وجهه في البوادي باكيا مصيره ، ومناشدا المروج والاشجار ان تشاركه الحزن والبكاء . وبينما هو في تجواله جلس مرة يستريح فغلبه الكرى ورأى حلما محزنا فخف الى اخته « كتشن ــ أنا » المتمرسة بتعبير الرؤى وقص رؤياه عليها وخلاصتها : ان تموز رآى فيما يراه النائم ان سيقانا طوالا من القصب تحيط به ، وان قصبة منها كانت معزولة منحنية الرأس . وبينما كانت اغصان القصب مجتمعة بعضها الى بعض على هيئة زوجين ابتعد احد الاغصان عن زوجه الملاصق له . ورأى أشجارا سامقة وهي ذات هيئآت مخيفة وشاهد صقرا أو نسرا يمسك حملا بمخالبه ، وابصر اناء وقد سقط من على وتد في حظيرة الماشية فتحطم على الارض ، وكانت ماشيته في وضع بائس تضع رؤوسها في التراب وقد نضبت البانها ، واختفت عصاه الذى يهش بها على غنمه ، وهاجت عاصفة على حظيرته فشتتها .

= فحكم بين الالهتين المتنازعتين في حب «ادونس» ان يكون نصيب كل منهما منه نصف عام ، وهكذا صار « ادونيس » مثل تموز يمكث في عالم الاموات نصف عام ، ويقوم الى عالم الاحياء في النصف الثانى ليكون من حصة افروديت . انظر :

R. Graves, The Greek Myths, (Penguin), I, (1964), p. 69.

(١٥) انظر :

1. Kramer, The Sacred Marriage Rite (1960), 127 ff.
2. Th. Jacobsen, "The Myth of Inanna and Bilulu", in JNES, 12, (1957), 16 ff.

وبعد ان قص تموز رؤياه على اخته ادركت ما ينطوى عليه حلمه من نذر الشر فواسته وعبرت عن رؤياه أن سيقان القصب التي شاهدها معناها ان اشرارا عتاة سيهاجمونه ، وان القصبة الوحيدة التي انحنت تعني أمه التي تحاول درء الشر عنه • وأما عن ابتعاد أحد ازواج القصب عن زوجه الآخر فقالت : « اننا الاثنان سيفترق أحدنا عن الاخر »•وحذرت « كشتن ــ أنا » في ختام تفسيرها ان الجناة هم شياطين مردة من شياطين العالم الاسفل الذين يطلق عليهم اسم « كلا » (Galla) • ثم تذكر القصيدة ان رؤيا تموز قد تحققت حين جاء اولئك الشياطين الى بيت أخت « تموز » وهددوها ان تدلهم على مخبأه ، حيث كان قد هرب الى خارج المدينة واختبأ في الغابات ولكن خوفه من أن اولئك الشياطين سيعذبون اخته بسببه جعله يعود الى المدينة فأمسك به الشياطين واوثقوه رغم استغاثته بالاله « اوتو » ، أخي زوجته « انانا » (عشتار) ، اذ حاول هذا انقاذه بان حوله مرة الى ظبي ونقل روحه الى بيت الآلهة العجوز « بيليلو » او « بيليلي » التي قدمت له الطعام والشراب ، ولكن الشياطين لاحقوه الى هنا ، فحوله الاله « اوتو » الى غزال مرة ثانية وهرب الى بيت اخته واختبأ في حظيرة الماشية ، حيث وجده الشياطين فانهالوا عليه بالضرب والطعن وامسكوا به وانزلوه الى العالم الاسفل •

الرواية الاشورية عن نزول عشتار الى العالم الاسفل :

بعد ان اوجزنا الرواية السومرية عن نزول « انانا » (عشتار) الى عالم ما بعد الموت نورد الان خلاصة الرواية الثانية عن هذه الاسطورة

أي الرواية الآشورية التي نوهنا بها[١٦] ، وقلنـا انهـا تسـتند الى الرواية السومرية ، ولكن توجد عـدة اختلافات بين الروايتين • ولان الـرواية الآشورية أوضح لغة وفيها وصف واضح لعالم ما بعد الموت كما تصوره القوم فيستحسن ان نورد ترجمة المواطن المهمة فيها على انها امثلة على هذا النوع من أدب العراق القديم •

« الى ارض « اللاعودة »[*] ، الى مملكة « ايريشكيكال »

« عقدت العزم عشتار ، ابنة الاله « سين »

« اجل ! عقدت العزم ابنة « سين » الى موطن الظلمـــة ، مسكن « اركلا »[*]

« الى البيت الذى لا يرجع منه من دخله

« الى الطريق الذى لا عودة منه

« الى البيت الذى حرم ساكنوه من النور

« حيث التراب والطين طعامهم وقوتهم

---

(١٦) جاءنا نص الرواية الاشورية في نسختين ، نسخة قديمة وجدت في مدينة « آشور » ترجع في تاريخها الى مطلع الالف الاول ق٠م٠ وقد نشر نصها المسمارى في KAR, No. I Pls. 1-4. ، والنسخة الثانية احدث عهدا وقد عثر عليها بين الواح مكتبة « آشور بانيبال » في نينوى (القرن السابع ق٠م٠) ونشر نصها المسمارى ضمن مجموعة النصوص المسمارية في المتحف البريطاني :

CT, 15, pls. 45-48.

واشهر ترجمات لها في :

1. A. Heidel, The Gilgamesh Epic.
2. Speiser in ANET, (1969), 106 ff.

(*) مر بنا المصطلح الذى اطلقه العراقيون القدماء على عالم الاموات بانه « أرض اللاعودة » او الارض التي لارجعة منها ، وباللغة السومرية « كور — نو — كي » $(KUR\text{-}NU\text{-}GI_4)$ وبالبابلية « ارصة لاتارى » • و « اركلا » من اسماء ملكة العالم الاسفل « ايريشكيكال » •

(**) لا تعرف ماهية هذا النوع من القصب • ويستخدم الشـاعر القديم في هذا البيت نوعا من الجناس اللفظي في الكلمتـين البابليتين : « شبط » ، ومعناها مرضوض و « شفة » ومعناها شفة •

« ويقيمون في ظلام دامس فلا يرون نورا
« وهم مكسوون باجنحة كالطيور بدلا من الثياب(*)
« لما وصلت عشتار الى باب « ارض اللاعودة » قالت الى حارس الباب:
« افتح بابك يا حارس لكي ادخل منه
« واذا لم تفتح الباب فساحطمه واكسر المزلاج
« وسأقيم الاموات ، وسيأكلون كالاحياء(**)
« فيكون الموتى اكثر عددا من الاحياء
فاجاب حاجب الباب عشتار الجليلة :
« مهلا يا سيدتي لا تقلعي الباب
« ساسرع فاعلن اسمك الى الملكة « ايريشكيكال »
« فدخل البواب على « ايريشكيكال » وقال لها :
« ها هي اختك عشتار عند الباب »

« ولما سمعت « ايريشكيكال » ذلك شحب وجهها وصار كالطرفاء المقطوعة ، واسودت شفتاه وصارت مثل قصبة ال « كينينو » المرضوضة وقالت ما الذي حمل قلبها ان تأتي الي ؟ وما الذي قاد روحها الى هنا ؟ فياليت شعري هل سأشرب الماء مع الانوناكي ، وآكل الطين خبزا واشرب عكر الماء جعة ؟

« وهل سيقع على أن اندب الرجال الذين تركوا زوجاتهم خلفهم ؟

(*) تصور ارواح الموتى بهيئة الطيور شاع في معتقدات أخرى مثل حضارة وادي النيل ، راجع موجز ملحمة جلجامش ·
(*) الترجمة الحرفية المجازية يأكلون الاحياء أي طعام الاحياء ·

« وهل سأنوح على العذارى اللاتي انتزعن من احضان احبائهن ؟(*)
« ثم قالت لحاجبها اذهب وافتح لها الباب
« وعاملها وفق القواعد القديمة •
ففتح الحاجب الباب لها وقال :
« ادخلي يا سيدتي ، وعسى أن ترحب بمقدمك كوثى(**)
« وعسى ان يفرح بحضورك قصر ارض « اللاعودة »
ولما ادخلها الحاجب من الباب الاول نزع عن رأسها تاجها العظيم
فقالت له : « علام يا بواب اخذت التاج العظيم من رأسي ؟
فاجابها : « ادخلي يا سيدتي ، ان هذه نواميس سيدة العالم الاسفل »

ولما دخلت من الباب الثاني انتزع قرطي اذنيها ، وهكذا صار يجردها من حلاها التي زينت بها مختلف اعضائها عند اجتيازها من بقية ابواب العالم الاسفل السبعة حتى اجتاز بها الباب السابع وهي مجردة عارية ، وهمت بالهجوم على ملكة ذلك العالم اي اختها « ايريشكيكال » ولكن وزيرها « نمتار » اسرع فامسك بها وسحبها • وسلط على عشتار ، بأمر من « ايريشكيكال » ستين نوعا من الامراض والآلام ، فغلبها الموت •

وتستمر القصيدة في وصف ما حل بعالم الاحياء عند غياب عشتار وهي الالهة الخاصة بالخصب والحب والزواج :

(*) فحوى قول ملكة العالم الاسفل انها احست ان قصد عشتار من مجيئها الى ذلك العالم كان لاطلاق الموتى من ذلك العالم ، وبذلك تحرم « ايريشكيكال » من الطعام والشراب اذ ستنقطع القرابين التي تقدم الى الموتى وستضطر الى اكل التراب وشرب الماء العكر وتندب الموتى • قارن ذلك بما جاء في ملحمة جلجامش •

(**) كوثي من اسماء العالم الاسفل ، وهو اسم المدينة البابلية الشهيرة « كوثى » (كوتو) ، مركز عبادة الاله نرجال (اله الموت واله العالم الاسفل) وتعرف بقاياها الان باسم « تل ابراهيم » ، جنوبي بغداد بنحو ٥٠ ميلا •

« من بعد ان هبطت السيدة عشتار الى العالم الاسفل

« لم ينز ثور على بقرة ، ولم يلقح الحمار الاتان

« ولم يلقح الرجل العذراء

« صار الرجل يضطجع في حجرته والمرأة في حجرتها » •

ويتضمن قفا اللوح ما قام به وزير عشتار المسمى « پاپسكال »(*) حيث لبس ثياب الحداد وقصد الاله « سين » ثم الاله « ايا » ، وكرر عليه ما حل بعالم الاحياء من انقطاع الاتصال الجنسي بين الاحياء على أثر غياب عشتار في العالم الاسفل ، فدبر الاله « ايا » وسيلة لانقاذ عشتار بان خلق انسانا جميل الصورة اسمه « آ سوشونامر » ، وهو خصي وامره ان ينزل الى العالم الاسفل ويمثل امام ملكته « ايريشكيكال » ، وحالما تنجذب الى جماله المفرط عليه ان يطلب منها ان تقسم « بقسم الآلهة العظيم » ، وهو القسم الذى يلزم صاحبه ان يعطي ما يطلب منه مهما كان ، ولما فعلت « ايريشكيكال » ذلك طلب منها « آسوشونامر » ان تعطيه قربة ماء الحياة ، ورغم ان الالهة أحست بالخديعة ولكنها وفت بقسمها فسلمته القربة ، فرش من مائها على جثة عشتار واعادها الى الحياة ، وخرجت من العالم الاسفل وكان يصحبها « نمتار » الذي ارجع اليها حلاها عند كل باب من ابواب ذلك العالم السبعة ، ولم يطلق سراحها الا بعد ان ضمن انها ستقدم بديلا عنها ليحل محلها في عالم الموتى •

وتنتهي الرواية الآشورية بنحو ١٢ سطرا غير واضحة المغزى ، اذ انها لا تنسجم مع سياق احداث القصيدة ، فهي تدخل وبدون تمهيد سابق اسم الاله « تموز » في عبارات غير مفهومة وتتخللها الخروم •

(*) في الرواية السومرية اسم وزير الالهة « أنانا » « ننشوبر » •

فهرست الاماكن والاعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ــ د ــ

ــ ر ، ز ــ

- س -

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ع ـ

ف ، ق

ك ، گ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

فهرست المواضيع

الفصل الاول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :



دمية من الفخار لعلها تمثل الآله انليل
(منتصف الالف الثالث ق.م)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٣ سنة ١٩٧٦

دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٧٦

AN INTRODUCTION TO THE LITERATURE OF ANCIENT IRAQ

TAHA BAQIR

